فيزياء الحزن

غيورغي غوسبودينوف

ترجمة : نيديليا كيتايفا



فيزياء الحزن

رواية

تأليف الكاتب البلغاري

غيورغي غوسبودينوف

ترجمتها عن البلغارية

نيديليا كيتاييفا



فيزياء الحزن

فيزياء الحزن / رواية

تأليف الكاتب البلغاري غيورغي غوسبودينوف

ترجمة نيديليا كيتياييفا

الطبعة الأولى 1437 / 2016

ردمك 978-9938-880-48-9

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل البلغاري **Физика на тъгата**. حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من الكاتب بمقتضى الإتفاق الخطي الموقع بينه وبين دار أثر للنشر والتوزيع.



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

الفهرست

نقوش... 7
مقدمة 9
الفصل الأول: خبز الحزن 21
الفصل الثاني: قضية التبرؤ: قضية م........................ 67
الفصل الثالث: البيت الأصفر........................ 85
الفصل الرابع: قنبلة زمنية (تُفتحْ بعد نهاية العالم)........ 139
الفصل الخامس: العلبة الخضراء........................ 177
الفصل السادس: مشتري الحكايات........................ 209
الفصل السابع: الخريف العالمي 233
الفصل الثامن: فيزياء جسيمات الحزن 217
الفصل التاسع: نهايات 313
خاتمة... 318

نقوش

.O mytho é o nada que é tudo

F. Pessoa, Mensagem

ثمة طفولة وموت فقط. ولا شيء بينهما.

غاوستين، "مختارات من سيَر ذاتية"

العالم لم يعد سحريًا. أنت بقيت مهجورًا.

بورخيس، 1964

... وها أنا أتخطى مساكن الذاكرة وقصورها الواسعة، حيث تكمن كنوز الصور التي لا عد لها...

"اعترافات القديس أغسطينوس"، الكتاب العاشر

لا تستحق التدوين إلا الأشياء العابرة الزائلة.

غاوستين، "المهجورون"

أوّد أن أطير، أن أسبح، أن أعوي، أن أخور. أودّ أن أملك أجنحة، قوقعة، لحاء، أن أترك دخانًا، أن أملك خرطوم فيل، أن أتضور، أن أنبسط في كل مكان، أن أفوح مع الروائح، أن أورّق مثل نبات، أن أسيل مثل ماء... أن أدخل كل ذرة، أن أغوص إلى قعر المادة – أن أكون المادة.

غوستاف فلوبير، "تجربة القديس أنطونيوس"

يمزج الذكرى بالرغبة الحيّة..

ت. س. إليوت، الأرض اليباب

الأغراض الأدبية الطاهرة لا تهمني كثيرًا. فالرواية ليست آرية الأصل.

غاوستين، "روايةٌ ولا شيء"

وللقارئ أن يعدّ هذا الكتاب روايةً...

إرنست همنغواي، "وليمة متنقلة"

مقدمة

ولدتُ في نهاية أغسطس عام 1913 كمخلوق إنساني من الجنس المذكر. لا أعرف تاريخ ولادتي بالضبط. انتظروا عدة أيام ليروا ما إذا كنت سأظل حيًا، وبعدها سجلوني، كما تفي العادة. اقترب الشغل الصيفي من نهايته وكان يجب جني بقية الأشياء من الحقل، وضعت البقرة عجلاً، فالتفّوا حولها وانشغلوا بها. بدأت الحرب العظمى. احتملتُها مثلما احتملتُ بقية أمراض الأطفال منها جدري الماء والحصبة وإلخ.

ولدت قبل بزوغ الشمس بساعتين كذبابة فاكهة. سأموت هذا المساء بعد غروب الشمس.

ولدتُ في الأول من يناير، عام 1968، كمخلوق إنساني من الجنس المذكر. أتذكر بالتفاصيل سنة 1968 كلها من بدايتها إلى نهايتها. لا أتذكر شيئًا من السنة التي نعيش فيها الآن. ولا أعرف حتى رقمها.

دائمًا كنت مولودًا. ما زلت أتذكر بداية العصر الجليدي ونهاية الحرب الباردة. صورة الديناصورات التي تحتضر (في كلا العصرين) من أكثر المشاهد تعذيبًا التي رأيتها في حياتي.

لم أولد بعد. أنا في انتظار ولادتي. عمري ناقص سبعة أشهر. لا أعرف كيف يُعدّ هذا الزمن الناقص في الرحم. أنا كبير، أنا كبيرة (لا يعرفون جنسي بعد) بمقدار زيتونة، وَزْني غرام ونصف. ذيلي يختفي تدريجيًا. الحيوان فيّ يتركني ملوحًا بذيله المندثر. لعلني مختار أن أكون مخلوقًا إنسانيًا. هنا ظلام وراحة، وأنا مربوط بشيء يتحرك.

ولدتُ في السادس من سبتمبر، عام 1944، كمخلوق إنساني من الجنس المذكر. في زمن الحرب. بعد أسبوع من ولادتي غادر أبي إلى الجبهة. نشف حليب أمي. أرادت إحدى العواقر أن تأخذني وترعاني، أن تتبناني، لكنهم لم يعطوها إياي. بكيت من الجوع طوال الليالي. أطعموني خبزًا مبللاً بالخمر ومصصته بدلاً من اللهاية.

أتذكر نفسي مولودًا كزهرة نسرين، وحجلة، وجينكو بيلوبا ، وحلزون، وسحابة في شهر يونيو (الذكرى تستغرق وقتًا قصيرًا)، وزعفران بنفسجي خريفي بالقرب من بحيرة هالنزيي، وشجرة كرز مبكرة جمّدها ثلج متأخر في أبريل، كثلج جمّد شجرة كرز مخدوعة...

أنا... نكون.

الفصل الأول

خبز الحزن

المشعوذ

وعندها خطف أحد المشعوذين قبعتي من فوق رأسي، خرقها بإصبعه فصنع هذا الثقب الكبير. بكيت، كيف أعود إلى البيت وقبعتي مثقوبة؟ فضحك، ونفخ فيها، فعادت - يا للعجب - من جديد إلى شكلها الأصلي. ساحر كبير!

وأسمع نفسي وأنا أقول: جدي ي ي ي، هذا ساحر.

فيرد جدي: في تلك الأيام كانوا مشعوذين، ثم صاروا سحرةً.

لكني قد انتقلت إلى ذاك الزمن، في الثانية عشرة من عمري، ولعل السنة

هي 1925. ها هو القرش، الذي أقبض عليه وهو متعرق، أحس أطرافه. إني لأول مرة أحضر وحدي مهرجانًا قرويًا ولدي نقود.

"أيها الناااااااااس، تعالوا إلى هنا... تعالوا لتروا أفعى بايثون، ثلاثة أمتار من رأسها إلى ذيلها، ثلاثة أمتار زائدة من ذيلها إلى رأسها..."

أووو، ستة أمتار، ما هي هذه الأفعى؟ "هيه، انتظرْ، إلى أين أنت ذاهب بلا نقود؟ أعطني قرشًا"... "ولكن ليس لدي سوى قرش، لن أصرفه لإحدى الأفاعي..."

في الجانب المقابل تباع دهانات الوجه، والطين، وأصباغ الشعر.

"للشاااااااارب صبااااااغ، للأحمق دمااااااااغ..."

ومَن ذاك الرجل وحوله جدات يبكين بكاءً خافتًا؟

"نيكولتشو أسير الحرب عاد إلى بلاده.. عاد وعلم.. أن هربت حبيبته.. مع حبيب آخر.. واعترض نيكولتتشو طريقها وهي ذاهبة تجلب الماء.. فقطع رأس عروسه.. فطار وهو يتكلم.. يا نيكولتشو ما هذا الذي فعلته؟"

هيا الآن، اِبْكِينَ يا جدات... وتنفجر الجدات بالبكاء... "تعالين واشترين مجموعة الأغاني، لتعرفن كيف اقترف نيكولتشو الخطأ وقتل حبيبته البريئة..." إنه بائع مجموعات الأغاني. أوووو كيف كان ذاك الخطأ؟

ناس، ناس، يصطدمون بي، أقبض على القرش في يدي، "كن منتبهًا حتى لا يسرقوه"، قال لي أبي عندما قدمه لي.

"آغاب. شراب. حساب". أقرأ هذه الأحرف الكبيرة الوردية مثل لون الشراب. أبتلع ريقي. هل أشتري كأس شراب؟

"غزل البناااااات، غزل البنااااااات"... يوسوس لي الشيطان متلبسًا

صورة جدة أرمنية. "مَن يعرف، هنا يقف". والآن؟ شراب أم غزل البنات؟ أقف بينهما ولا أستطيع اتخاذ القرار مطلقًا. جدي في داخلي لا يستطيع اتخاذ القرار. يعني، مِن هنا يأتي ذاك التردد الذي سيعذّبني فيما بعد. أرى نفسي كيف أقف هناك، نحيلاً، طويلاً، مخدوش الركبة، وعلى رأسي القبعة التي سيخرقها الساحر، أقف وقد انتابتني الدهشة وسحرني العالم من حولي. أبتعد عن هذا المكان قليلاً، أرى نفسي من بعيد، من الأعلى، كل الناس من حولي يتحركون، أنا أقف، وجدي يقف، نقف نحن الاثنان في جسم واحد.

وها هي يد تخطف قبعتي من رأسي. قد وصلت إلى منضدة الساحر. لا تقلقوا، لن أبكي، الآن أعرف جيدًا ماذا سيحصل. ها هي إصبع الساحر تخرج من الجانب الآخر للقماش، أوووو، ما أكبر هذا الثقب! الجمهور من حولي يغرق في الضحك. يصفعني أحدهم على رقبتي العارية فتدمع عيناي. أنتظر، لكن الساحر كأنه نسي متابعة بقية الحكاية، يضع قبعتي المخروقة إلى جانبه، يدني يده من فمي، يديره بمفتاح الصمت، ويا للهول! فمي مقفل. لا أستطيع فتحه. لقد فقدتُ قدرتي على الكلام، والناس من حولي يموتون من الضحك. أحاول أن أصرخ، لكن لا يسمعون سوى خوار يخرج من حلقي. ممم. مممم.

"هاري ستويف أتى إلى المهرجان، هاري ستويف عاد من أميركا..."

رجل ضخم يشق طريقه وسط الجمهور الذي يوشوش ويرحب به بكل احترام. المصارع البلغاري هاري ستويف – إنه دان كولوف الثاني، إنه الحلم البلغاري. "ثمن ساقيه يعادل مليون دولار أمريكي"، يقول أحدهم من خلفي. "يلف ساقيه حول رقبة الخصم يخنقه فلا يستطيع التحرك". "أهاا، يسمونها قبضة الموت"، يهمس آخر.

أتخيل بوضوح المصارعين المخنوقين مطروحين على الأرض واحدًا إلى جانب الآخر، وأشعر بالاختناق كأنني وقعت في قبضة هاري ستويف المميتة. أتعجّل بالمغادرة، والجمهور يندفع وراءه.

وقتها أسمع من خلف ظهري:

"تعالوا أيها الناس، تعالوا لتروا ولدًا له رأس ثور. أعجوبة الأعاجيب. المينوتور الصغير من المتاهة، في الثانية عشرة فقط... خمسة ليفات ستأكل بها، خمسة ليفات ستشرب بها، وبخمسة ليفات ستروي ما رأيته هنا طوال حياتك".

حسب ما ذكره جدي فإنه لم يدخل ذاك المكان. لكنني الآن هناك، في مهرجان هذه الذكرى، أنا جدي ويجذبني المكان ولديّ رغبة قاهرة في دخوله. أدفع قرشًا، أترك أفعى بايثون ذات الستة أمتار الغشاشة، وشراب البائع العم "آغاب" المثلج، وحكاية الأسير "نيكولتشو"، وغزل البنات من الجدة الأرمينية، وقبضة الموت لهاري ستويف، وألج الخيمة عند المينوتور.

بعدها يرق خيط ذكرى جدي، ولكنه لا ينقطع. كان جدي يزعم أنه لم يجرؤ على الدخول، لكني أنجح في ذلك. لم يقل الحقيقة. لكن بما أنني هناك، في ذكراه، أكنت أستطيع السير إلى الأمام لو لم يكن جدي في ذاك المكان قبل حضوري فيه؟ لا أعرف ولكن هناك شيء ليس على ما يرام. إني الآن في المتاهة، التي تبين أنها خيمة كبيرة شبه مظلمة. ما أراه يختلف كل الاختلاف عن كتابي المفضل للأساطير الإغريقية والرسوم البيضاء والسوداء، حيث رأيت لأول مرة الوحش المينوتور. ما أبعد الشبه بين الليلة والبارحة. هذا المينوتور هنا ليس رهيبًا بل حزينًا. إنه مينوتور سوداوي.

في صدر الخيمة قفص حديدي، عرضه حوالي خمس أو ست خطوات

وارتفاعه أطول بقليل من قامة الإنسان. قضبانه الحديدية الرقيقة اسودّت من الصدأ. في طرف القفص فرشة ومقعد صغير ذو ثلاث أرجل، وفي طرفه الآخر دلو ماء وقش منثور. زاوية للإنسان، وزاوية للوحش.

يجلس المينوتور على المقعد مديرًا ظهره إلى الجمهور. ما يصدمني ليس أنه يشبه وحشًا، بل شكله الإنساني. وشبهه بإنسان هو الذي يجعلك متجمدًا كالمسمار. جسمه جسم صبي، يشبه جسمي تمامًا.

ظهور الشعر في بشرة رجليه، قدمان بأصابع طويلة، لا أدري لماذا توقعت أن أرى حوافر. سروال قصير بالٍ يصل إلى ركبتيه، قميص قصير الأكمام و... رأس ثور شاب لا ينسجم مع حجم الجسم، رأس كبير، ثقيل، كثيف الشعر. كأن الطبيعة هناك ترددت. وتركت كل شيء في الوسط بين الثور والإنسان، خافت أو سهت. فهذا الرأس ليس رأس ثور فحسب، بل وليس رأس إنسان تمامًا. كيف يمكنك وصف هذا، عندما يتردد وينشق اللسان أيضًا. الوجه (أو الخطم؟) متطاول، الجبين يتراجع قليلاً إلى الوراء، بل هو ما زال ضخمًا بعظم بارز. (في الحقيقة جباه كل رجال عائلتنا تشبه جبهته. لحظتها وبلا شعور مني أمرر يدي فوق جمجمتي). فكه السفلي متين وبارز جدًا وشفتاه أسمك بكثير. في الفك دائمًا تختبئ طبيعة الحيوان، وهي تنسلّ من الفكفي تراجعها. بسبب وجهه (أو خطمه) المتطاول والمفلطح جانبيًا، ابتعدت عيناه بعضها عن البعض. كل وجهه مغطى بشُعيرات بنية اللون، وهي ليست لحية بل شعيرات. في اتجاه أذنيه ورقبته فقط تتخشن تلك الشعيرات لتصبح كالوبر وتنمو بشكل وحشي وبلا ترتيب. على الرغم من ذلك فإنه يشبه المخلوقات البشرية أكثر مما يشبه أي مخلوقات أخرى. وفيه حزن لا وجود له في أي حيوان آخر.

عند امتلاء الخيمة، يطلب الرجل من الولد المينوتور أن ينهض. فيقوم

من الكرسي ولأول مرة ينظر إلى الجمهور، ويجول ببصره ويدير رأسه بسبب عينيه الواقعتين في جانبيّ وجهه. يبدو لي أنه يشاهدني وقتًا أطول مما يشاهد الآخرين. هل نحن في نفس العمر؟

الرجل الذي أدخلنا الخيمة (صاحب الولد أو وَصِيه) يبدأ حكايته. وهي خليط خاص من الأسطورة وسيرة حياته، لقد غيّرها الحكواتي في سياق تكرارها الطويل في المهرجانات. حكاية تتلاحق وتتشابك فيها الأزمنة. فبعض الأحداث تحصل الآن وبعضها الأخرى في قديم الزمان والأوان. كذلك تختلط الأماكن، حيث قصور وأقبية، ملوك جزيرة كريت والرعيان المحليون يبنون متاهة هذه الحكاية للولد المينوتور، حتى تضيع فيها. كانت القصة تلتوي مثل متاهة وللأسف، لن أستطيع أبدًا أن أعود إلى الوراء وأنا أحذو حذوها. حكاية فيها ممرات طرشاء، وخيوط تنقطع، وأماكن عمياء، وتناقضات جلية. وكلما تبين أنها غير معقولة صدقتَها أكثر. إني عاجز عن رواية سحر تلك القصة، ولا أستطيع إلا رسم أحد خطوطها المستقيمة الشاحبة، التي جاء فيها ما يلي:

هيليو وهو جد الولد وأبو أمه، كان مسؤولاً عن الشمس والنجوم، فيقفل الشمس ليلاً ويسرّح النجوم بين السماوات، وكأنه يسرح المواشي بين المراعي. أما صباحًا، فيعيد قطيع النجوم إلى الحظيرة ويسرّح الشمس. ابنة الشيخ، التي كان اسمها باسيفايكا، وهي أم هذا الولد الذي أمامكم، كانت امرأة هادئة وجميلة وتزوجت من أحد الملوك الكبار بالجزر القريبة. وكان ذلك في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، قبل الحروب. وكانت تلك المملكة غنية، وكان الإله نفسه (وهو إله تلك المناطق) يجلس بصفته ضيف محترم إلى جانب ملك تلك الجزر على مائدته، وإجلالا للملك أهدى الإله له ثورًا أبيض كبيرًا كان أعجوبة الأعاجيب. مضت سنوات وطلب

الإله من الملك تقديم نفس الثور الأبيض قربانًا... ولكن الملك مينيو بخل (مينوس.. مينوس، يصرخ أحد المستمعين) وقرر خداعه، فذبح ثورًا ضخمًا سمينًا آخر. ولكن من يستطيع خداع الإله؟! فهم كل شيء، واحتد، وأرغى وأزبد قائلا "والآن أريك نجومًا حمراء في عز الظهيرة". وجعل باسيفايكا، زوجة مينيو الهادئة الوفية، تضاجع ذلك الثور الجميل الأبيض كالثلج. (وعند هذه الكلمات تعلو أصوات الاستنكار وسط الجمهور). ونتج عن هذا طفل جسمه جسم رجل، ووجهه وجه ثور. قامت أمه بإرضاعه ورعايته، لكن الملك مينيو المُهان لم يستطع احتمال تلك الفضيحة. ولأن قلبه لم يطاوعه على قتل الرضيع المينوتور، أمر بإقفاله في قبو القصر. أما ذلك القبو فكان مثل متاهة حقيقية، إذ بناه أحد المعماريين الموهوبين، ولو دخلتَه لعجزتَ عن الخروج منه. ولعل ذاك المعماري كان بلغاري الأصل من منطقتنا، لأن المعماريين الموهوبين بلغار، وأما اليونانيون فهم كسالى. (يسمع صياح استحسان في الخيمة). مع أن جهود ذاك المعماري لم تعد عليه بالخير فيما بعد، ولكن هذه حكاية أخرى. وهكذا تم احتجاز الفتى في ذلك المكان وكان في الثالثة من عمره. فارق والديه. أتتخيلون ما يعانيه قلبه الملائكي في ذاك السجن المظلم؟! (عند هذه الكلمات بدأ المستمعون يبكون بكاءً خافتًا مخنوقًا، على الرغم من أنهم يسلكون نفس السلوك، موقعين العقاب على أطفالهم، صحيح أنهم لا يحبسونهم وراء جدران القبو الحجرية السميكة إلى أبد الآبدين، لكن يحبسونهم، ولو لساعة أو ساعتين). وواصل الحكواتي قائلاً: أدخله في الظلام، فبكى الفتى ليل نهار، ونادى أمه. في النهاية طلبت باسيفايكا من ذاك المعماري الذي بنى المتاهة أن يُخرج الفتى سرًا ووافق، وأدخل الباني ثورًا شابًا حقيقيًا احتل مكانه في القبو."لكن هذا ليس موجودًا في الكتاب"، يصيح من جديد ذاك الشخص من بين المستمعين. فيقول الحكواتي، مشددًا على المفردات: ليبق هذا سرًا بيني وبينكم، حتى لا

يكشف الملك مينيو الغش، لأنه لم يعرف شيئًا عنه بعد. وهكذا - سرًا - تم تخليص الفتى ذي رأس الثور وسرًا أركبوه سفينة متجهة إلى أثينا (وكانت السفينة نفسها التي غادرت إلى أثينا لأخذ سبعة شبان وسبع عذارى من بين أهل أثينا ليأكلهم المينوتور من المتاهة). نزل المينوتور الصغير في أثينا، حيث وجده أحد صيادي السمك، وخبأه في كوخه، وقام برعايته عامًا أو عامين، وبعدها أعطاه لأحد رجال منطقتنا وهو راع، اتجه موسم الشتاء إلى المناطق الجنوبية القريبة من بحر إيجة ليرعى قطيع الجواميس. فقال له: "خذْه، لأنه لن يرى يومًا أبيض بين البشر، عسى الجواميس أن تقبله كواحد منها". وقبل عدة سنوات قدّم هذا الراعي شخصيًا الولد لي قائلا: "والجواميس لا تريده أيضًا، ولا تقبله كواحد منها، تخاف منه فتبتعد، لذلك لا يستطيع البقاء عندي". فأخذته أنا ومنذ ذلك الحين أتجول في المهرجانات القروية مع اليتيم المسكين الذي تركه أبوه وأمه، لا رجلاً بين الرجال ولا ثورًا بين الثيران.

بينما يروي الرجل حديثه، يقف المينوتور حاني الرأس، كأن لا علاقة له بهذه الحكاية، ومن حين إلى حين آخر يلفظ صوتًا حنجريًا خافتًا. الصوت نفسه، الذي ألفظه أنا وفمي مقفل. ويأمر السيد: "أرهم الآن كيف تشرب الماء"، ويسقط المينوتور على ركبتيه ويبدو أنه يقوم بذلك متبرمًا، يغرق رأسه في الدلو ويعبّ بصخب. "والآن رحّبْ بهؤلاء الناس الطيبين". يصمت المينوتور وينظر إلى الأرض. ويردد الرجل طلبه مرة أخرى: "رحب بالناس". والآن أرى أنه يمسك بيده عصا ذات شوكة حادة في طرفها السفلي. يفتح المينوتور فمه ويخرج من أحشائه صوتًا أجش عدائيًا عميقًا "مووووو..."

وعندها ينتهي التمثيل.

ألتفت قبل أن أخرج (وأنا الأخير) من الخيمة، ولحظتها تتقاطع أنظارنا

من جديد. لن أتخلص أبدًا من الشعور بأنني أعرف ذاك الوجه من مكان ما.

وأحس في الخارج بأن فمي ما زال مقفلاً وقبعتي مخروقة. أندفع مهرولاً إلى الكشك، لكن المشعوذ غائب ولم يبقَ له من أثر. هكذا خرجت من الذكرى، أي تركت هناك جدي ذا الثانية عشرة. فمه مقفل، قبعته مخروقة. ولكن لماذا جدي أخفى في حكايته أنه دخل خيمة المينوتور؟

99999

وقتها لم أسأل جدي شيئًا حتى لا يعرف أنني أملك القدرة على دخول ذكريات الآخرين، وكان ذلك أكبر أسراري. كما وأنني أكره البيت الأصفر، الذي سيقتادونني إليه مثلما اقتادوا ماريكا العمياء، لأنها تستطيع التنبؤ بأحداث ستحصل في المستقبل.

على الرغم من أنني عن طريق سري جدًا وصلت إلى بعض المعلومات التي أخذتها من أخوات جدي السبع، فهن - بينما كن على قيد الحياة - يأتين كل صيف لزيارة جدي، كن نحيلات، لابسات ثياب سوداء، أجسامهن جافة مثل جراد. ذات يوم بعد الظهر انفردتُ مع إحدى أخوات جدي، وهي أكبرهن وأكثرهن ميلاً إلى كثرة الكلام، وبدأت أستعلم عن طفولة جدي. قبل ذلك اشتريت لها بسكويت وشراب ليمون، وهن يعشقن الحلويات، وحصلت على الحكاية كلها.

يومها عرفتُ، أن جدي في طفولته أصيب بالخرس فجأة. رجع من المهرجان القروي ولم يلفظ سوى الزئير، ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة. اقتادته أمه إلى البصّارة البراجة "لصياغة رصاصة له". نظرت إليه وقالت: "اعلمي أن هذا الطفل في غاية الخوف". ثم أخذت بعض الرصاص، صبته في كوز حديدي، سخنته على النار حتى يذوب ويأزّ. في صياغته يتخذ الرصاص شكل الشيء الذي أرعبك . إذ يدخل الخوفُ الرصاصَ. بعد ذلك تنام معه عدة ليالٍ وثم يجب أن ترميه في نهر، في ماء سائل، حتى يحمله النهر بعيدًا. ثلاث مرات صاغت البصارة البراجة رصاصًا، وثلاث مرات اتخذ شكل ثور برأسه وقرنيه وخطمه وكل شيء. خوّفه أحد الثيران في المهرجان القروي، قالت أخت جدي، فهم يجيئون إلى هناك من القرى المجاورة لبيع قطعان الجواميس، والغنم، والبقر. لم ينطق جدي بحرف ستة شهور وظل يجأر فقط. فأتت البصارة البراجة إلى بيته كل يوم تقريبًا، وبخّرته بالأعشاب الطبية، ونكّسوه برأسه إلى الأسفل فوق بقايا طعام العشاء، كي يسقط منه الخوف. جعلوه يشاهد كيف ذبحوا عجلاً، لكن الفتى ابيضت عيناه، وأغمي عليه ولم ير شيئًا. بعد ستة شهور ذهب كل شيء. فدخل مرة البيت وقال: "أمي، أسرعي، وضعت نيرا العمياء عجلاً". كانت لديهم بقرة اسمها نيرا. وكان ذلك هو المفتاح الذي فتح فمه. وطبعًا أتت إليّ أكثر تفاصيل الحكايات بفضل دخولي السري في ذكريات أخت جدي، التي كان اسمها دانا. وكانت تخفي حكاية أخرى، قد تسللتُ سرًا إلى ممراتها.

الفصل الأول

خبز الحزن

أراه بوضوح. طفلاً في الثالثة من عمره. نائمًا فوق كيس طحين فارغ في ساحة المطحنة. خنفساء ثقيلة تمر فوقه على علو منخفض وتسرق نومه بطنينها.

يفتح الفتى عينيه قليلاً، ما زال ناعسًا، لا يدري أين هو...

أفتح عينيّ قليلاً، ما زلت ناعسًا، لا أدري أين أنا. في مكان ما في أرض العدم بين النوم واليوم. إنه وقت العصر، تمامًا ذلك الزمن المنعدم لوقت العصر المتأخر. ضجيج المطحنة المنتظم. الهواء مليء بغبار الطحين، حكة خفيفة في الجلد، تثاؤب، تمطٍ. يسمع كلام أناس، كلام ساكن، مهدئ، مطرد النغم. عدة عربات تقف، نصفها محملة بأكياس طحين وكل شيء مغطى بذاك الغبار الأبيض. في مكان قريب، يرعى حمار وقد قُيّد من رجليه بسلسلة.

يغيب النعاس تدريجيًا ثم ينسحب انسحابًا كاملاً. في هذا اليوم وقبل بزوغ الفجر، أتى الطفل مع أمه وثلاث من أخواته إلى المطحنة. أراد أن يساعدهن بتعبئة الأكياس، لكنهن لم يسمحن له. ثم غلب عليه النوم. لابد أنهن جاهزات الآن وقد أنهين العمل بدونه. ينهض ويتلفت يمينًا وشمالاً. ولا يرى أحدًا حوله. وها هنا يخطو الخوف خطاه الأولى، خطى ما زالت خافتة لا يكاد يشعر بها. إنه مجرد افتراض رفضه الفتى فورًا. لسن هنا ولكنهن بالتأكيد داخل المطحنة أو في الجانب الآخر منها، أو ربما نائمات تحت العربة في الظل.

والعربة ليست موجودة أيضًا. تلك العربة ذات الطلاء الأزرق الفاتح والديك المرسوم في مؤخرتها.

عندها يتدفق الخوف ويملأه مثلما يملؤون جرة الفخار الصغيرة من

سبيل الماء، ويرتفع الماء، ويدفع الهواء إلى الأعلى فتطفح الجرة. تيار الخوف قوي جدًا على جسم في الثالثة، ويملؤه بسرعة إلى درجة لم تترك له هواءً ليتنفس. ولا يستطيع حتى الصراخ. فالبكاء بحاجة إلى هواء، البكاء هو زفير خوف، زفير عالٍ طويل. على الرغم من أنه لم يفقد الأمل بعد.

أهرع إلى داخل المطحنة، حيث الضجيج صاخب والحركات متسارعة. عملاقان بلون أبيض يرميان الحبوب في فم المطحنة، كل شيء يسبح في ضباب أبيض، في الزوايا خيوط عنكبوت كبيرة متثاقلة وقد غطاها الطحين، شعاع الشمس ينفذ من خلال النوافذ المحطمة في أعلى المطحنة، وعلى امتداد هذا الشعاع يمكن رؤية المعركة التيتانية التي تدور بين ذرات غبار الطحين. ولكن أمه ليست في الداخل ولا حتى إحدى أخواته. رجل ضخم ينحني تحت كيس طحين، ويكاد يوقع الفتى أرضًا. فينهره كي يخرج لئلا يعيقه.

ماما؟

النداء الأول ليس بنداء بل استفهام.

ماما-ا-ا؟

تطول الألف لأن اليأس كذلك يكبر.

ماما-ا-ا-ا... ماما-ا-ا-ا-ا-ا-ا-ا-ا...

لقد تلاشى السؤال. يأس وغضب، فُتات غضب. وماذا بقي في الداخل أيضًا؟ حيرة. أهذا ممكن؟ الأمهات لا يتركن أولادهن. هذا ليس عدلاً. مثل هذه الأشياء لا تحدث. "متروك" هي الكلمة التي لا يعرفها الفتى بعد. لا أعرفها أنا. غياب الكلمة لا يلغي الخوف، بل العكس، يراكمه أكثر فأكثر ويجعله طاحنًا لا يطاق. وتسيل الدموع، حان وقتها، وهي الآن العزاء الوحيد. على الأقل يستطيع البكاء، لقد انفجر الخوف، وطفحت

جرته. وتنهمر الدموع على وجنتيه، على وجنتيّ، وتختلط بغبار الطحين فوق الوجه، ماء، وملح، وطحين تصنع عجينة خبز الشجن الأول. الخبز الذي لا ينتهي أبدًا. خبز الحزن الذي سنقتات عليه خلال كل السنوات اللاحقة. طعمه المالح على الشفاه. يبتلعه جدي. أبتلعه أنا. ونحن في الثالثة من العمر.

في نفس الوقت، عربة زرقاء رسم عليها ديك تثير غبارًا مبتعدة عن المطحنة.

إنها سنة 1917. المرأة التي تقود العربة الزرقاء، لها من العمر ثمانية وعشرون عامًا. ولديها ثمانية أطفال. يزعم الكل أنها كانت امرأة ممتلئة، بيضاء وجميلة. الأمر الذي يؤكده اسمها أيضًا كالا. على الرغم من أنه في ذاك الوقت لم يكن أحد يعلم مغزى الكلمة باللغة اليونانية، حيث تعني "جميلة". كانوا يعرفونها بكالا وكفى. إنه مجرد اسم علم. وهم في حالة حرب. الحرب العظمى كما يسمونها، تقترب من نهايتها. وكما هو الحال دائمًا، نحن إلى جانب المهزومين. والد جدي ذي الثلاث سنوات في مكان ما على الجبهة حيث يحارب منذ عام 1912. لم يأتِ خبر عنه منذ شهور. يعود لبضعة أيام، تحمل منه زوجته بطفل، ثم يغادر. لا ندري ما إذا كانوا ينفذون أوامر عسكرية خلال عطلتهم. فالحرب تشتد وتشتد الحاجة إلى محاربين. لكن والد جدي، لم يسعفه الحظ في تأمين المحاربين الجدد. فمعظم أطفاله كانوا إناث، سبع بنات. ولعله عند عودته إلى قطعته العسكرية كان يتلقى العقوبة بالسجن بعد كل فتاة مولودة.

نفدت بعض النقود الفضية التي كانت مخبأة للأيام السوداء. فرغ العنبر من موجوداته، وقد باعت المرأة ما تستطيع بيعه – السرير مع الفراش والطاولة المعدنية، التي كانت نادرة في تلك الأيام، وجديلتيها، وقطع النقود

الذهبية وهي هدية عرسها. الأولاد يبكون من الجوع. بقي لديها جاموس وحمار يجر العربة الآن. تحاول جاهدة أن تستخدم الجاموس لحراثة الأرض. الخريف يقترب من نهايته وفصل الشتاء يطل برأسه. تمكنت - بعد رجاء - من أن تأخذ بعض أكياس القمح وها هي تعود من المطحنة بثلاثة أكياس من الطحين. في العربة بين الأكياس تنام بناتها. يقفن في منتصف الطريق ليستريح الحمار.

- ماما، لقد نسينا غيورغي.

يأتي الصوت الخائف من خلف ظهر الوالدة. إنه صوت دانا، كبرى بناتها. صمت.

صمت.

صمت.

صمت ثقيل ومطبق. صمت وسر سيتناقل سنة بعد سنة خلال الأعوام اللاحقة. ماذا تفعل الأم، لماذا تصمت، لماذا لا تستدير فورًا بالعربة وتعود أدراجها بسرعة نحو المطحنة؟

إنها الحرب، وهم بشر. لن يتركوا فتى في الثالثة من عمره وحيدًا. فهو صبي، سيأويه أحدهم ويرعاه، هناك نساء لا يستطعن الإنجاب وهن متلهفات ليكون لديهن طفل. سيكون لديه مزيد من الحظ.

كلمات أحاول إيجادها في أفكارها. ولكن ليس هناك سوى الصمت.

نسيناه، نسيناه، تردد الابنة خلف ظهر الأم وهي تذرف الدموع. لا يهم أن الكلمة ليست نسيناه وإنما تركناه.

وتمضي دقيقة طويلة أخرى. أتخيل كيف من هذه الدقيقة تظهر وجوه

الذين لم يولدوا بعد وهم كاتمو الأنفاس. ها هم يطلون من وراء سياج الزمن - أبي، وعمتي، وعمتي الأخرى، وها هو أخي، وها أنا ذا، وها هي ابنتي واقفة على أصابع قدميها. وعلى ضوء هذه الدقيقة، وعلى صمت المرأة الشابة، يتوقف ظهورنا خلال السنوات المقبلة. هل تدرك المرأة كم من الأمور تتقرر الآن؟ ترفع رأسها في النهاية وكأنها تستيقظ لتوها، فتعود إلى المكان وتتفحص. سهول تراقيا المترامية، بقايا أصول القمح المحترقة، أنوار الغروب المتغيرة، الحمار الذي يمضغ بعض الحشائش المحروقة غير مبالٍ بما يجري، أكياس الطحين الثلاثة التي سوف تُستهلك حتى منتصف الشتاء، وثلاث من بناتها الست اللواتي ينتظرن ماذا ستقول.

إنها مترددة، والذنب قد اقترف. بمجرد أن فكرت ولو لدقيقة واحدة أن تترك ابنها. صوتها جاف. "لو أردتِ يمكنكِ الرجوع إلى المطحنة". هذا ما تقوله لِدانا وهي الابنة الكبرى ذات الثلاثة عشر عامًا. وتترك الأم اتخاذ القرار لغيرها. فلا تقول "سنرجع"، لا تقول "إرجعي"، لا تتحرك من مكانها. وبالرغم من ذلك، فجدي ذو السنوات الثلاث لديه فرصة أخرى. تقفز دانا من العربة وتنطلق تعدو في الطريق الترابي نحو المطحنة.

نحن الذين نسترق النظر عبر سياج هذه الدقيقة، نحن الذين لم نولد بعد، نعود برؤوسنا خلف السياج، ونتنفس الصعداء.

يحل الظلام، والمطحنة ابتعدت قليلاً قليلاً. فتاة في الثالثة عشرة تركض حافية على ذاك الطريق الترابي إلى المطحنة، والريح المسائية تتلاعب بفستانها، كل ما يحيط بها خالٍ، تركض لتتعب خوفها ولتأخذ أنفاسه. لا تنظر يمينًا ولا يسارًا. وكل شجيرة تشبه رجلاً مترصدًا، وتعدو وراءها مثل قطيع كل الحكايات المخيفة التي استمعت إليها في الليالي العابرة، حكايات عن

قطاع الطرق والعفاريت والتنانين والجن والذئاب. ولو التفتت إلى الخلف، لقفز كل هؤلاء على ظهرها. وأنا أركض أركض أركض في تلك الأمسية الدافئة من شهر سبتمبر، أركض وحيدًا وسط ذلك الحقل، فوق الوحول الجافة، التي أشعر بها بقوة أكبر بكل خطوة أخطوها، ويقفز قلبي من مكانه ويرتطم بصدري، ها هنا شخص يجلس القرفصاء قرب الطريق، ولكن لماذا يده ممدودة للأعلى بشكل غريب، آهٍ...، إنها شجيرة... وها هي أولى أنوار المطحنة تظهر من بعيد... هناك يجب أن يكون أخي ذو الثلاث سنوات ... جدي ... وأنا.

الأم، أم جدي، عاشت ثلاثًا وتسعين سنة، وعبرت القرن من بدايته إلى نهايته وكانت كذلك جزءًا من طفولتي. كبر أولادها، وتفرقوا، وافترقوا عنها، وشاخوا. أحدهم فقط لم يفارقها أبدًا واستمر يعتني بها حتى وفاتها. إنه الولد المنسي عند المطحنة.

دخلت قصة الطاحونة في أسرار العائلة المتداولة، وكان الكل يتكلم عنها، أحدهم عاطفًا على الجدة كالا، شهادةً على صعوبة ذاك الزمن، وثانيهم كان يتندر مازحًا، وثالثهم - كجدتي مثلاً - موجهًا إليها اتهامًا علنيًا.

ولكن لم يروها أحد أمام جدي قط. وكذلك لم يروها جدي ولو لمرة واحدة. ولم ينفصل عن أمه أبدًا.

سخرية تراجيدية، نكتشفها عادة في أساطير الميثولوجيا. عندما بلغتني القصة ذاك اليوم، لم تعد بطلتها على قيد الحياة. أتذكر أني في البداية أحسست بغضب وحيرة، كأنهم تركوني أنا، ومرة أخرى راودني الشك في العدالة الكونية. لقد عاشت تلك المرأة حتى شيخوختها المتقدمة برعاية ذاك الفتى

ذي الثلاث سنوات الذي تركته في غابر الزمان في ساحة المطحنة. ويبدو وكأنه هو العقاب بذاته. أن تعيش مثل هذا العمر الطويل وبجانبك ذاك الطفل. الطفل المتروك.

أكرهكِ يا أريادني

لم أغفر لأريادني أبدًا، لأنها خانت أخاها. أن تُقَدِّمَ فكرة الخيط في يديّ ذاك الذي سيقتل أخاك المسكين المتروك المتوحش من الظلام. أتى البطل الأثيني الوسيم، المفتول العضلات، وأدار رأسها، محاولاً بقدر ما يستطيع أن يوقعها في حبه، وهذا ليس صعبًا، فهي بنت الريف والعاصمة، بالدقة والضبط إنها في آن واحد بنت الريف والعاصمة، التي لم تترك أبدًا غرف قصر أبيها، تلك الغرف التي ليست إلا متاهة أفخم.

عادت دانا إلى المطحنة، وحيدة في الظلام وأنقذت أخاها، أما أريادني، فساعدت قاتل أخيها حتى لا يضيع في الطريق. أكرهك يا أريادني.

رسمتُ قرني ثور بقلم حبر فوق رأس أريادني في كتاب الأساطير الإغريقية للأطفال.

تعزية

جدتي، هل سأموت؟

أنا في الثالثة، نهضت من السرير، وأقف وسط الغرفة الصغيرة، ممسكًا أذني بإحدى يديّ. كانت توجعني. وبيدي الأخرى أشد جدتي على ذراعها

وأبكي كما لا يستطيع البكاء سوى طفل في الثالثة، طفل ميت من الخوف. أبكي بكاءً لا عزاء له. جدتي، وهي نفس تلك الجدة كالا، تجاوزت التسعين، عانت المزيد من الموت، دفنت الكثيرين، امرأة صارمة، تجلس في السرير مشعثة الشعر، وقد اعتراها خوف ليس بأقل من خوفي. إنه منتصف الليل، وقت الجن، كما تقول جدتي. جدتي ي- ي - ي، أموت، جدتي - ي - ي - ي، أردد باكيًا، متمسكًا بأذني.

لن تموت، يا بني، لن تموت. يا إلهي، هو أيضًا يعرف عن الموت...

جاءت أمي راكضة ووجدتنا هكذا، متعانقين، باكيين في الظلام. أتخيل بوضوح هذا المشهد - طفل في الثالثة، حافٍ، لابسٌ منامة قصيرة، وامرأة تسعينية ذات جسم جاف، سترحل عن عالمنا بعد عدة أيام من تلك الأمسية. نبكي ونتحدث عن الموت. هل كان الموت يحوم حول بيتنا، وهل لدى الأطفال شعور حدسي بقدومه؟ "لا، يا بني، لن تموت". رددت جدتي في تلك الليلة كي تعزيني. "هناك ترتيب معين، يا عمري، أولاً سأموت أنا، ثم يأتي دور جدتك وجدك، ثم..." وعند تلك الكلمات ارتفع صوت بكائي وانهمرت دموعي بغزارة. تعزية مبنية على سلسلة الوفيات.

توفيت جدتي كالا بعد أسبوع. ماتت ميتة طبيعية، لازمت الفراش يومًا أو يومين ورحلت عن هذا العالم في إحدى ليالي رأس السنة. إنه الموت الأول الذي أتذكره، على الرغم من أنهم لم يسمحوا لي برؤيتها. كانت ترقد في سرير الغرفة، عجوز شمعية صغيرة، "كأنها دمية". فكرت في نفسي آنذاك، على الرغم أن الدمى لا تشيخ. كانت في صدر الغرفة تقف شجرة عيد الميلاد وتمتد من الأرضية إلى السقف تقريبًا، محاطة بالزينة والقطن والكرات الزجاجية المصنوعة في السبعينيات. كانت هذه الأشياء ترقد طوال السنة، مرتبةً بعناية في إحدى العلب فوق الخزانة. وفي كل كرة ملونة لامعة من تلك

الليلة غير المنسية كانت تتراءى جدتي الميتة.

كنت خائفًا أكثر على جدي الذي يجلس عند قدميها ويبكي بصوت خافت. وهو متروك هذه المرة إلى غير رجعة.

سنوات طويلة بعدها سوف يرقد جدي في نفس السرير، في إحدى الليالي من شهر يناير، كي يودعنا، فالطريق في انتظاره.

تناديني أمي لمساعدتها بالأكياس...

كلمات غنائم

سيرفوس، كينير، بور، فيز، كيوسيونيوم، سيب، إيستين فيليد... سيرفوس، كينير، بور، فيز...

لن أنسى أبدًا تلك المسبحة الغريبة من الكلمات. كان جدي ينظمها في الليالي الشتائية الطويلة التي نقضيها معًا أثناء أيام العطلة وأنا طفل. مرحبًا، خبز، خمر، ماء، شكرًا، جميلة، وداعًا... ما أن تهمس جدتي الصلاة همسًا سريعًا وشبه سري، حتى تجيء كلماته سيرفوس، كينير، بور...

كان جدي يقول إنه كان يستطيع الكلام باللغة المجرية لساعات طويلة، ولكن بعد ذلك، لم تبقَ معه في شيخوخته إلا تلك الحفنة من الكلمات. كانت غنيمته التي اكتسبها في الحرب. تلك الكلمات المجرية السبع، التي يحفظها، كأنها ملاعق فضية. ولعل جدتي غارت عليه منها. فما حاجة جندي يا ترى إلى معرفة معنى كلمة "جميلة"؟ ولم تستطع جدتي أن تقبل مطلقًا تسمية الخبز بهذه الطريقة المختلفة العوجاء. يا إلهي، يا أيتها العذراء مريم الفائقة

القداسة، كم هي قبيحة هذه الكلمة! حرام على هؤلاء الناس. كيف يمكن تسمية الخبز بكلمة "كينير"؟ تردد هي وتشتعل غضبًا.

الخبز مجرد خبز.

الماء مجرد ماء.

وبدون قراءتها أعمال أفلاطون، تقبل جدتي رؤيته للأسماء وصحتها الفطرية. كانت الأسماء صحيحة بطبيعتها، ولا شيءيزعزع إيمانها أن هذه الطبيعة كانت منذ بدء الزمان - بلغارية.

جدتي لا يفوتها أن تقول إن جنود القرية الآخرين رجعوا من الجبهة وقد أحضر أحدهم ساعة، وثانيهم قِدر، وثالثهم طقم ملاعق وأشواك فضية بكامله. نعم، مسروقة، يضيف جدي، ولم يستعملوها أبدًا، ألا أعرفهم؟

لكن جدتي والمجر لم تتمكنا من إقامة علاقات الصداقة الوثيقة، ولم تستطيعا خلق روح التفاهم والتعاون بينهما، كما يُقال تلك الأيام في الجرائد. فترة طويلة بعد ذلك سأفهم ما يسبب ذاك التوتر.

كان يبدو لي غريبًا أن جدي لا يحب التحدث عن الحرب. أو لا يروي ما أتوقع سماعه وقد شاهدته في الأفلام. المعارك المستمرة، إطلاق النار، كار ر ر- كار- كار ر ر ر (كل لعبنا كانت على شكل مسدسات وبنادق رشاشة). أتذكر بوضوح كيف سألته كم من الفاشيين قتل على الجبهة وأنتظر سماع عددهم متعطشًا. وعلى الرغم من معرفتي، أنه في الحقيقة لم يسجل أي قتيل على حسابه. أي قتيل. وبصراحة كنت أخجل منه قليلاً. جد صديقي من الحارة الأخرى مثلاً قتل ثمانية وثلاثين شخصًا بإطلاق النار عليهم عن كثب، وطعن عشرين آخرين بحربة في بطنهم. كان صديقي ديماتا يقوم بخطوة إلى الأمام، يضربني بالحربة غير المرئية مسافة شبرين في بطني ويُديرها. أعتقد

أنني أخفته بشدة حينما سقطت أرضًا شاحب الوجه وبدأت أتقيأ. يا للهول، أن يطعنوك بالحربة في البطن! لم أكد أنجو.

دواء حي

رتل بزاقات يزحف ببطء فوق صفحة الجريدة بدون الخروج منها. عدة بزاقات تشبثت أجسامها مع الخوف بعضها ببعض. يمسك جدي بزاقة بإصبعيه، يغمض عينيه، يفتح فمه ويضعها ببطء في الداخل، بالقرب من حلقه. يبتلع. أشعر بالغثيان. أخاف على جدي. وأريد قدرته على ابتلاع البزاق. جدي يعاني من القرحة الهضمية. والبزاق هو دواؤه الحي. يدخل الحلزون بسيره الخاص عبر المريء ويقف في المغارة الناعمة للمعدة، حيث يخرج إفرازات مخاطية تشكل نوعًا من الطبقة الواقية فوق جدران المعدة، وهي عبارة عن غلاف علاجي رقيق يختم الجرح. هذه الوصفة تعلمها جدي من الجبهة. هل البزاق يخرج بعد ذلك من الخلف سليمًا معافى، أم يدركه الهلاك وكأنه متطوع يحمي غشاء المعدة؟

يد ضخمة ترفعني وتضعني في فتحة مغارة رطبة دافئة حمراء. هذا ليس سيئًا، على الرغم من أنني أشعر بقليل من الخوف. الشيء الأحمر، الذي كنت موضوعًا فيه، يرجف باستمرار، يتقلص ويرتفع قليلاً، وذلك يجعلني أزحف إلى الداخل نحو الممر الوحيد هناك. في المدخل حاجز ناعم سهل الاختراق. كأنه ينفتح بنفسه، وتقوم بردة الفعل الناتجة عن لمساتي. ها هو النفق الناعم المظلم، الذي أغوص في داخله، مثل ثور بطيء مندفع بقرنيه إلى الأمام. أترك ورائي أثرًا، كي يمكنني العودة مسترشدًا به، مما يشعرني

بإطمئنان أكبر. السير إلى الأسفل سهل والمسافة قصيرة. بعد قليل يتسع النفق وينتهي في فراغ أوسع بقليل. وهي مغارة ناعمة جدًا، تختلف عن الأولى التي عبرتها. في أحد أطرافها ألاحظ بقعة زاهية دامية تُشعّ حرارة. أَمرّ فوقها على مهل فارزًا كمية من المادة المخاطية.

ولكن لا يعجبني هذا المكان على الإطلاق. فهو ضيق، ومظلم، وخانق، ويثير رهاب الأماكن المغلقة، وكأن جدران المغارة تكبسني بحركاتها المنقبضة. لكن الأشدّ رعبًا هو السائل الخاص الذي تصبه الجدران نفسها علي مما أشعر بالقرْص. لا أملك القدرة على التحرك، كأنه كابوس وأنت تقوم فيه بحركات أبطأ، وأبطأ، وأب... ط... أ...

أن تشعر بالعطف على كل شيء، أن تكون بالع البزاق والبزاقة المبلوعة في آن واحد، المأكول والآكل... كيف يمكنه نسيان تلك السنوات القليلة التي يملك فيها القدرة على التعطف.

أحيانًا، بينما يكتب، يحس كأنه بزاقة تزحف في اتجاه غير معروف (مع أنه معروف – وهو الاتجاه إلى حيث يذهب كل شيء) ويترك وراءه أثرًا من كلمات. لا يدري ما إذا كان يعود أدراجه مسترشدًا به في زمن ما، لكن هذا الأثر يمكن أن يتحول، دون إرادته، إلى دواء لِمن يعاني من القرحة. نادرًا ما إلى دواء لقرحته الخاص.

سفر سعيد

إلا أن جدي، كان يحتفظ بسرٍ من أيام الحرب. وفي تلك الأمسية في يناير، عندما أراد أن نختلي، انفتح قليلاً باب الكلام الذي لم يقله... استدعاني وأنا أكبر أحفاده، وأحمل اسمه، وكنت في السابعة والعشرين. كنا نجلس في

غرفته الضيقة ذات االسقف المنخفض والشباك الصغير، الغرفة، التي كبر فيها مع أخواته السبع، والتي كنت أقضي فيها كل عطلة صيفية وأنا طفل. أيامها جدي أصابته السكتة ويكاد لا يستطيع الكلام. كنا الاثنين فقط، ذهب إلى الخزانة الخشبية، فتّش وقتًا طويلاً في أحد أدراجها وهناك، من تحت الجريدة، التي فرش بها أسفل الدرج، أخرج ورقة دفتر بسيطة مطوية مكرمشة ومصفرة جدًا. لم يفتحها بل دسها في يدي وأومأ لي أن أخفيها. ضمّني مثلما كان يفعل أيام طفولتي، وبقينا كذلك حتى سمعنا خطى أبي أمام البيت فانفصلنا. بعد يومين رحل جدي عن هذا العالم. كان ذلك في نهاية يناير.

جاء ناس كثيرون ليودعوه في رحلته الأخيرة. لو كان رآهم لخجل بالتأكيد. كان أبناء وبنات أخواته السبع يصلون من كل أرجاء البلاد، يضعون زهرة شتائية إلى جانب رأسه وأوصوا ببعض طلباتهم إلى العالم الآخر. الميّتُ في تلك المناطق يتحول إلى ما يشبه البريد السريع. "هيا يا عمي، تحياتي وسلاماتي إلى أمي، حين تراها. قلْ لها إننا بخير، وأن دانا الصغيرة الآن متخرجة من الثانوية، وهي متفوقة في المدرسة وممتازة في كل مادة. قلْ لها أيضًا، إن حفيدتها الأخرى غادرت إلى إيطاليا. ما زالت تعمل في غسل الصحون حتى الآن، وعلى الرغم من أنها لم تقطع الرجاء. هيا، وداعًا يا عمي وأتمنى لك سفرًا سعيدًا". ثم إن ابن أخته الذي يقدم تلك الإرشادات يقبّل يد المرحوم ويعود إلى مكانه. بعد لحظة يرجع إليه من جديد، يعتذر، نسي القول إنهم باعوا بيتهم في القرية، واشتراه ناس طيبون من إنجلترا. "هيا من جديد وداعًا وسفرًا سعيدًا". في تلك المناطق الجنوبية الشرقية لا يقول الناس "رحمه الإله" أو "رحم الرب ترابه"... ولا يتمنون إلا سفرًا سعيدًا.

سفرًا سعيدًا.

ممر جانبي

تروي إحدى صديقاتي كيف كانت متأكدة أيام طفولتها من أن المجر واقعة في السماء. كل صيف كانت جدتها مجرية الأصل تأتي إلى صوفيا لزيارة ابنتها وحفيدتها المحبوبة. يستقبلونها دائمًا في المطار. يذهبون إليه وقتًا طويلاً قبل وصولها، يرفعون الرؤوس مثل أفراخ، حتى يشعروا بتصلّب رقابهم، وتقول أمها: ها هي جدتك ستظهر لتوها. الجدة المجرية التي تأتي من السماء. تعجبني هذه القصة وأُدخلها فورًا في مخزن الحكايات. أفترض أن الجدة المجرية، عندما ماتت، بقيت في الأعلى، في المجر السماوية، وظلت تلوح بيدها من سحابة، وظلت هناك دون الهبوط إلى الأرض.

مخبأ الذاكرة

أربعة أشهر بعد ذلك، في منتصف شهر مايو، كنت أسافر بسيارة أوبل قديمة إلى المجر. اقترحتُ على محرر الصحيفة التي اشتغلت فيها كتابة مقالة حول المقابر البلغارية العسكرية الموجودة منذ فترة الحرب العالمية الثانية. تقع أكبرها في مدينة هركان، في جنوب المجر.

وافق رئيس التحرير على اقتراحي وها أنا ذا في الطريق الذي يمر عبر صربيا. كانت هركان في الماضي قرية، وإنها الآن مدينة صغيرة واقعة بالقرب من المناطق التي جرت فيها معارك درافا. بعد لحظات تركت الأوتوستراد واخترت مسارًا مختلفًا، يمر عبر كل من ستراسين، وكومانوفو، وبريشتينا، ثم انعطفت إلى كريفا بلانكا، ونيش، ونوفي ساد... أردت عبور كل الطرق

التي قطعها جدي متوغلاً في الوحول خلال شتاء عام 1994 . اطلعت بدقة على الخرائط الحربية الموجودة المتعلقة بخط سير فوج مشاة سليفين الحادي عشر، فرقة المشاة الثالثة، الجيش الأول. كنت أقود السيارة وفي جيبي تلك الورقة المطوية التي كان مكتوبًا عليها عنوان مجرّي.

وصلت إلى مدينة هركان. كان لدي وقت لزيارة المقبرة الحربية. أردت قبل ذلك إيجاد أحد البيوت. تجولت بعض الوقت، حتى وجدت عنوان الشارع المكتوب على الورقة. وحمدًا لله، لم يغيروا اسم الشارع منذ خمسين سنة. أوقفت السيارة في نهاية الشارع وصرت أبحث عن الرقم. والآن فهمت، أنني في الحقيقة لا أدري ما الذي أتوقعه من هذه الزيارة المتأخرة. هنا عاش جدي في تلك الأسابيع الهادئة قبل المعارك بعد مكوثه في هذه المنطقة. عاش سعيدًا وقلقًا في آن واحد. ها هنا البيت الذي تم بناؤه في فترة ما قبل الحرب. ألاحظ بشيء من الحسد أنه أكبر من بيت جدي، وذو شكل بيوت أوروبا الوسطى. حوله حديقة كبيرة فيها زهور ربيعية متفتحة، "لكن أزهار توليب جدتي أجمل"، أقول في نفسي. في قعر الحديقة تعريشة تجلس فيها امرأة ذات شعر أبيض مرتب دون غطاء رأس، وهي في عمر جدي. أدرك أنني لا أعرف على الإطلاق مَنْ هي بالضبط. خلال خمسين عامًا تغير البيوتُ سكانها، وهم يتنقلون من مكان لأخر، يموتون. أضغط باب المدخل، حيث الجرس فوقه يعلن وصولي. رجل تجاوز الخمسين يخرج من البيت. أرحب به باللغة الإنجليزية، كنت أستطيع الترحيب بالمجرية التي تعلمتها من دروس جدي ولكني أكفّ عن ذلك. والحمد لله أنه أيضًا يتكلم الإنجليزية. أشرح له أني صحفي من بلغاريا وأُظهر بطاقتي الصحفية، قائلاً إني أكتب مقالة عن الجنود البلغار المحاربين في هذه المناطق أيام الحرب العالمية الثانية. هل ذهبت إلى المقبرة؟ يسألني الرجل. أقول إني لم أذهب بعد. أسأله عما يعرفه

أهل المدينة، عما يتذكرونه. وأخيرًا يدعوني إلى دخول التعريشة حيث تجلس المرأة العجوز.

هذه أمي، يقول. نمد يدينا للمصافحة. مصافحة خفيفة، غير واثقة. ذاكرتها تنطفئ كما يشرح الرجل. لم تعد تتذكر ما أكلته أمس، بل تتذكر الحرب. كان في مدينتنا جنود بلغار، أعتقد أنهم عاشوا في بيتنا. ثم يلتفت إليها ويبدو أنه يقول لها مَن أنا ومن أين جئت. لم تلاحظني إلا الآن. ذاكرتها مخبأ، أستطيع أن أحس كيف تفتح أدراجًا أغلقتها بالمفتاح منذ زمن. تمضي دقيقة طويلة، يجب فيها عبور أكثر من خمسين سنة. كأن الرجل يشعر بالحيرة الناتجة عن صمت أمه. يسألها شيئًا. إنها تهز رأسها قليلاً دون تحويل نظرها عني. لا أدري إن كان ذلك اختلاجًا، أو إجابة سلبية، أو جزءًا من مونولوجها الداخلي الخاص. يلتفت الرجل إلي، قائلاً إنها في نهاية يناير أصيبت بنزيف دماغي ومنذ ذلك الحين تخونها الذاكرة.

"في نهاية يناير؟"

"نعم"، يجيب الرجل بشيء من الارتباك. أهذا أمر يهم أحد الأجانب؟

أقول: "جدي حارب في هذه المنطقة".

يترجم الرجل. وأنا متأكد من أنها أدركت مَن أنا، أعجز عن شرح كيف، لكنها أدركت. عمري الآن يعادل عمر جدي أيام الحرب. تقول جدتي إني صورة طبق الأصل عن جدي - نفس تفاحة آدم البارزة، طويل القامة، مقوس الظهر، معقوف الأنف، ذو مشية مشتتة. تقول العجوز شيئًا لابنها، فيقفز من مكانه، ويعتذر أنه لم يسألني عما أشربه، يقدم مربى الكرز الحامض والقهوة. أشكره، لأني أريد البقاء هناك للمزيد من الوقت وهو يغوص في البيت. أخيرًا، في التعريشة، أنا والعجوز نبقى جالسين على جانبي

الطاولة المصنوعة من الخشب الخشن. الطاولة قديمة جدًا، لا أدري إذا كان جدي جلس في نفس التعريشة. الربيع مجنون في عزه، يطن النحل، في الهواء تحوم روائح لا أسماء لها، وكأن الدنيا خُلقت لتوها، لا ماضي، ولا مستقبل لها، الدنيا بكل ما فيها من طهارتها الأصلية التي تعود إلى ما قبل أيام المسيح.

ينظر أحدنا إلى الآخر. المسافة بيننا نحو ستين عامًا ورجل تتذكره هي في الخامسة والعشرين، أما أنا فودعته قبل شهور في الثانية والثمانين من عمره. ولا لغة نقول من بابها كل شيء.

على وجه هذه المرأة أثر من جمال بائد. أحاول رؤيتها بعيني جدي في يناير عام 1945. وسط كل الفظاعة، قبح الحرب ووحوله والموت الذي تجلبه، أنت تدخل (أنا أدخل) بيتًا أوروبيًا فيه امرأة في العشرين أو ما يزيد، شقراء الشعر، جميلة البشرة، واسعة العينين. في البيت جراموفون لم تر مثله قط، تعلو الموسيقى التي لم تستمع إلى مثلها قط. الفتاة ترتدي فستانًا طويلاً ريفيًا. البيت كله هادئ ومنير، عبر الستائر ينفذ شعاع الشمس ويسقط تمامًا على صحن الخزف على الطاولة. وكأن الحرب لم تكن أبدًا. الفتاة تقرأ على الكرسي بالقرب من النافذة. وهنا صوت يُخرجني من هذه اللوحة. كانت نظارات العجوز قد سقطت على الأرض، أحضرها لها. كم هو مفزع هذا العبور الخاطف لنصف قرن من الزمن. فجأة توارى ذلك الوجه الجميل وشاخ في لحظة. في البداية فكرت أن أقدم لها ورقة جدي. والآن قررت أنه لا يجب. كانت لدينا دقائق قليلة نحن الاثنين (كم كان إرسالها لابنها تصرفًا حكيمًا).

أمامها حفيد ذاك الرجل. يعني كل شيء أصبح على ما يرام. وأخيرًا ها هنا الرسالة الحية، التي أُرسِلت بعد تأخر طويل. يعني أنه نجا. وعاد إلى زوجته وابنه الرضيع، وكبر ابنه، وأنجب ابنًا... وها هنا الحفيد، جالس

أمامها. دارت الأيام، نسيها الرجل، تغلب على صعوبة فراقها، وأصبح كل شيء على ما يرام... دمعة أجّلتها طويلاً، تنهمر من عينها، وتضيع في متاهة تجاعيد كفها.

تمسكني من يدي، دون أن تحوّل نظرها عني، وتقول ببطء باللغة البلغارية الصافية: زدرافاي، بلاغوداريا، هلياب، فينو (مرحبًا، شكرًا، خبز، نبيذ)... وأستمر بالمجرية: szép (جميلة). قلت هذه الكلمة وكأني أحمل خبرًا سريًا من جدي المرحوم، وهي فهمت. شدّت كفي وتركتْها. الكلمات البلغارية الأخيرة التي سمعتها منها كانت سبوغوم (وداعًا) وغيورغي. أنا وجدي نحمل نفس الاسم. أتى ابنها بالقهوة، لاحظ فورًا أن أمه بكت، لكنه لم يجرؤ على السؤال. نرتشف القهوة، أسأله عن وظيفته، قال إنه طبيب بيطري (أكاد أقول "مثل أبي"، لكني بدلاً من ذلك، ارتشفت من فنجاني).

هل جدك على قيد الحياة؟ سألني بلطف. توفي في يناير، أجبت. أنا آسف فعلاً، أطلب العزاء والسلوى... فهمت أنه لا يعرف شيئًا. لم تخبره أمه، هكذا قررت. ومن الممكن أن أخترع أنا بنفسي كل شيء. طوال الوقت أتحاشى النظر إليه، كيلا أجد تشابهات كبيرة بيننا. على الرغم من أن العالم مملوء برجال ذوي أنوف معقوفة وتفاحات آدم بارزة. نهضت للمغادرة، قبلت يد المرأة. قال ابنها إنه سيرافقني. في باب المدخل قبض على يدي وقتًا طويلاً، وفكرت للحظة أنه يعرف كل شيء. تركته بسرعة متجهًا إلى سيارتي وراء الزاوية. فتحت ورقة جدي، التي رُسمت عليها فوق العنوان كف رضيع من عام 1945. ومَن يستطيع القول إذا كانت هي نفس الكف التي كنت أمسكها قبل قليل؟

قبل سنوات كان علي أن أجدد جواز سفري وأدبّر بعض الأمور في البلدية. ملأت كل المعلومات في الاستمارة. مُطَلَّق، طويل القامة، جامعيّ... من النافذة تناولت الموظفةُ الاستمارةَ، قارنت المرأة بين معلومات الاستمارة وتلك التي في الكمبيوتر، حولت إلي بصرها وقالت ببرودة: لماذا تُخفي أن لديك طفلاً آخر؟ دوى السؤال بما يكفي من شدة الدوي وأحسست كيف الناس الذين يملؤون الاستمارات من حولي، رفعوا أنظارهم بغتة إلي، وحتى بدا لي أنهم تراجعوا قليلاً إلى الوراء. وأنا بنفسي كنت واقفًا كأنهم قبضوا علي متلبسًا بجريمة. لقد لاحظتُ أنني أستطيع أن أبرر بسهولة أكبر الأشياء التي كنت قد فعلتها، ولكن عندما يتهموني بشيء لم يخطر ببالي على الإطلاق، أبقى معقود اللسان ومذنبًا. كما يقال "كاد المريب أن يقول: خذوني". أما بالنسبة لي فالعكس كان دائمًا أصح: "كاد البريء أن يقول: خذوني".

لعل صمتي طال أكثر مما يجب قبل أن أستطيع النطق أنه ليس لدي سوى بنت واحدة. في هذا الوقت - كم هو الانسان غير واثق ببراءته - حسبت كل علاقاتي العاطفية السابقة. تذكرت صديقة لي وهي كلما حاولنا الفراق، زعمت أنها حامل. لديك فتى في الثانية عشرة، قالت المرأة الجالسة وراء الشباك بوقاحة. كنت أقف كأن صاعقة نزلت علي. ولم يبقى إلا أن تضيف الموظفة "ألف مبروك". هل يمكنني الرؤية، نطقت. فأدارت شاشة الكمبيوتر إلي وحمدًا لله، لم أكن أنا ذاك الشخص، كان مجرد تطابق أسماء. الموظفة حتى لم تتعب نفسها بكلمة اعتذار، برمت على الكرسي غاضبة وخائبة الأمل لأنني أفلتّ منها بهذه السهولة. لو علمت أنني طوال اليوم واصلت أستعيد إلى ذهني كل النساء اللواتي كنت معهن قبل اثنتي عشرة سنة، وحتى كتبت الأحرف الأولى من أسمائهن على ورقة صغيرة، مقدّرًا

بمقياس من 1 إلى 10 احتمالات أن يكون لدي طفل لم أعلم عنه... لو علمت ذلك، لكانت مرتاحة البال إلى درجة ما.

قبو الحكاية

ولعل تلك الحكاية تطورت كهذه.

شهر مارس، عام 1945 . اقتربت الحرب من نهايتها. معركة من أجل مدينة مجرية صغيرة، معركة عنيفة متقلبة، من شارع لشارع. جندي بلغاري جرح جرحًا خطيرًا وغاب عن وعيه. العدو صد هجوم فوجه، وبقيت المدينة مؤقتًا (لمدة عدة أيام) في أيدي الألمان. عاد الجندي إلى وعيه في قبو، على سرير قديم، وعلى رأسه امرأة وقد ضمّدته. تمكنت من سحب جسده من الرصيف مباشرةً عبر نافذة القبو ومستواه على مستوى الشارع نفسه.

تومئ له ألا يتحرك، وهو على أي حال لا يستطع الحركة، لقد فقد المزيد من الدم. وباللغة الألمانية السيئة، أي لغة العدو، يتمكن من تبادل بعض الكلمات مع المرأة المجرية. تمضي أيام، أسابيع، شهر. أحيانًا يفقد رشده، بعدها يستيقظ، ما زال على حافة الموت، على حافة الحياة. كل يوم تستمر المرأة في جلب الطعام، وتكميده، وتغيير الضمادات... في الشهر الثاني تتحسن حالته، ويبدو أنه سيعيش. تخبره المرأة بأن المدينة ما زالت في أيدي الألمان، واشتدت الحرب.

المرأة تعيش وحيدة، إنها أرملة، لم يكن لديها أولاد وهي في عمر الجندي، في الخامسة والعشرين تقريبًا. تقع في غرام الجندي المجروح. وتقرر من أجله، أن تغيّر مجرى الحرب كلها. فتقول له إن الألمان لم يستسلموا، بل اخترعوا سلاحًا سريًا مما أبطأ كل شيء، وتنقلت الجبهة إلى الشرق حيث كانت من

قبل. وتصل المرأة إلى درجة أن تقوم مرة بإيهامه أن هناك تفتيش في بيتها. والرجل في القبو لا يسمع إلا وقع الأقدام على الأرضية فوقه وكأن هناك من يوقع الكراسي على الأرض، وتسقط بعض الصحون، صوت الآواني المكسورة... يشد الجندي مدفعه، في الاستعداد أن يطلق النار على أول الداخلين إلى القبو، وحمدًا لله، لم تصل الأمور إلى ذلك. تبدأ الغرفة الضيقة في القبو تثير جنونه. الشباك الصغير الوحيد قد سدّ بصفيحة معدنية. من ثقب ضيق فقط يتسلل قليل من الضوء ليفصل بين النهار والليل. ويستمر يعذبه السؤال: كيف يمكن انقلاب الحال إلى هذه الدرجة، مع أن الحرب تكاد تخبو أوزارها، وهم كانوا على وشك الانتصار. وكم من الوقت لن يلاحظه الألمان في هذا القبو.

للحقيقة لا بد من القول، إن الجندي وقع هو الآخر سرًا في حب المرأة التي تعتني به، ولكنه لا يريد أن يعترف ذلك في نفسه بعد. هناك في بلاده، لديه زوجة وطفل، ولعلهما قد اعتبراه ميتًا. ذات ليلة بقيت مُنقِذته عنده، لم تمس إلا وجهه. وهذا يكفي.

حدث فجأة، كما يحدث دائمًا بعد انتظار طويل وعانقًا بعضهما البعض، ولهثا، وتلفظا كلمات حب، كلمات متقطعة، تعبة، غرامية، كل واحد منهما تلفظها بلغة أمه. لم يفهم شيئًا من اللغة المجرية المجنونة، لم تفهم شيئًا من اللغة البلغارية المجنونة. بعدها عمّ السكون، استلقى فيه الاثنان واحدًا إلى جانب الآخر. استرخاء وسعادة عند المرأة. استرخاء، سعادة وقلق غامض (بل وذنب واضح) عند الرجل. قال لها بالبلغارية إن لديه زوجة وطفلاً، وحين غادر كان عمره أسبوعًا. قال ذلك ليخفف عن نفسه من جانب، ومن جانب آخر، قاله بالبلغارية كيلا تفهم المرأة كلماته. إذ لم يعرف أنه إذا تعلقت الأمور بفهم شيء لا يجب فهمه، فلدى النساء معرفة أخرى. قامت المجرية

بغتة وصعدت إلى الطابق العلوي. ولم ير عينيها عدة أيام.

ذات يوم بعد الظهر أسقطت ضربة مفاجئة شباك القبو. قفز الرجل، كان دائمًا ينام وسلاحه بجانبه، واختفى في الزاوية. دخول الضوء أزعج عينيه. بعد قليل ظهر في الشباك رأس ولد أشعث. تخبأ الرجل وراء برميل ضخم. لحظتها رأى كرة الهلاهيل الثقيلة، التي سقطت مسافة متر عنه. تمتم الولد بشيء، زحف مثل سحلية عبر الشباك الضيق ودخل القبو. حبس الرجل أنفاسه. كان الفتى بالقرب منه إلى درجة يستطيع الإحساس بحرارة جسده المتعرق. قبض الولد على الكرة، رماها عبر الشباك، تسلق النافذة وخرج.

ولكن عبر الشباك المفتوح، إلى جانب الغبار ورائحة بول القطط، حملت الريح قطعة جريدة قديمة. ورغم أنها كانت باللغة المجرية، إلا أنه تمكن من قراءة عبارة "هتلر كابوت" ورؤية صورة جندي روسي رافع العلم فوق بناية الرايخستاغ.

أدرك كل شيء. حطم الباب، تسلق الدرج والبندقية بيده. صدم الضوء عينيه وسار مستندًا إلى الأثاث. كانت المرأة واقفة أمامه. قالت له إنه يستطيع أن يقتلها أو يبقى عندها. قالت له إنها تحبه ويستطيعان العيش معًا، قالت له أيضًا، إنه لن يبتعد كثيرًا بهذه البندقية والملابس العسكرية، وإن العالم لم يعد العالم الذي يعرفه بعد شهر من نهاية الحرب. نعم، تبين، أنه قد حل يونيو. تكلمت بصوت خافت مازجة المجرية والألمانية. أجابها، مازجًا البلغارية والألمانية أنها منقذته ولو لم تكن هي، لعفنت عظامه في السهوب المجرية. قال أيضًا، إنه يرغب في العيش معها حتى نهاية أيامه (وهذا بالبلغارية)، لكن يجب عليه أن يعود إلى ابنه الذي قد يبلغ عمره نصف سنة. وأما فيما يتعلق بها، فلن ينساها أبدًا ولو أراد نسيانها. عرف الاثنان، أنهما لو افترقا، لما التقيا بعدها أبدًا. ولو تعانقا، لما انفصلا أبدًا. ولحسن حظ ابنه ذي التسعة أشهر،

ابتلع كل واحد منهما رغبته. أخيرًا وهما مرتبكان لم يقولا إلا: آآآآآآ ...، يلا ...، وداعًا ... وملأت حقيبة ظهره بما كان هناك من الأكل، ولم تبك إلا عندما رن الجرس فوق باب المدخل وراء ظهره.

كانت بين مدينة ه. وقريته في بلغاريا مسافة 965 كيلومترًا تمامًا، وحدود بلدين. لم يمشِ إلا ليلاً، أولاً كيلا يلتقي بالناس، وثانيًا، لأن عينيه ما زالتا تؤلمانه ألمًا عنيفًا عند تعرضهما لضوء النهار. عاد أدراجه في نفس الطريق الذي هجم فيه مع فوجه على العدو قبل نصف سنة. تخبأ في أكواخ مهجورة، قرى مُحروقة، نائمًا نهارًا في خنادق قديمة، وحفرِ حفرتها القنابل. أما بندقيته ولباسه العسكري فقد تركها عند المجرية حتى لا يلاحظوه. أعطته بولوفير محبوكًا من الصوف، فكان يونيو باردًا وممطرًا، أعطته أيضًا سترة الصيد المتعددة الجيوب، التي بقيت من زوجها المرحوم. وهكذا، بدون سلاح، بدون كتافات ووثائق، مضى في طريق الحرب العكسي، في اتجاه الشرق، مختفيًا من الجميع. في اليوم الرابع والثلاثين من رحلة عودته وصل إلى أرض قريته. انتظر حتى منتصف الليل وتسلل سرًا مثل اللص إلى بيته. نام والداه في الطابق الثاني، ابنه وزوجته يجب أن يكونا في الأسفل في الغرفة إلى جانب السقيفة. مشهد التعرف هذا واضح. خوف، رعب وفرح في آن واحد. يعود الزوج الميت. هناك قد أعلنوا رسميًا، أنه مات موت الأبطال، مُنح وسامًا صغيرًا، وحتى حفروا اسمه على تمثال نصبوه على عجل في ساحة القرية، إلى جانب أسماء سائر أبناء القرية الذين خرجوا يواجهون الرصاص من أجل حرية الوطن. إذ أن ظهوره، مثل ظهور كل المبعوثين من الموت، لا يفعل إلا أن يعقد سير الحياة العادي.

وماذا الآن؟ الفرح البلغاري ينقلب بسهولة إلى تأوه. استيقظ والداه وراح الجميع يسألون الرجل المبعوث كيف يمكن هذا وماذا سنفعل الآن؟

جميل أنه عاد سالمًا غانمًا، ولكن هذه بِليَّة كبيرة أيضًا. كان المبعوث منهوكًا إلى درجة لا يستطيع شرح شيء.

عندما بدأ الفجر ينبلج، لم يأخذ مجلس الأسرة إلا قرارًا وحيدًا ممكنًا. أن يدفعوه إلى داخل قبو الخمر، من جانب، كي ينام نومًا عميقًا، ومن جانب آخر، كيلا يراه أحد. هكذا قضى الجندي البلغاري العائد إلى البيت، ليلته الأولى وكل الأيام والليالي اللاحقة على مدى شهور. إذ أنه لم يبدّل سوى قبو بقبو آخر.

حدث ذلك في زمن الفتنة. طاف الشيوعيون قاتلين لأتفه ذنب. على أي حال قد دخلت أسرة الجندي قائمة أغنياء القرية بمجرد أنها ملكت ثلاث بقرات، وقطيع غنم وعربة عتيقة جميلة، رسم على مؤخرتها ديك. ولكن الجندي ما ذنبه؟ إليكم ذنبه.

أولاً، كذب على الدولة، ادّعى أنه مات ميتة بطل، الأمر الذي من أجله كللوه بوسام وحفروا اسمه على التمثال القروي. وثانيًا هروبه من الوحدة العسكرية وهذه جريمة تضعه في مواجهة الرصاص. أن تغيب عن الفوج مدة أربعة شهور، بدون أن يكون موتك مثبتًا، وأن تعود شهرًا بعد نهاية الحرب، بدون سلاحك الخاص وبزتك العسكرية، كل ذلك يخرج خارج خيال القوميسير السياسي، وحتى إذا كان أرحم قوميسير. والجندي ماذا يمكنه القول لتبريره؟ الحقيقة؟ أو الاعتراف بأنه قضى أربعة شهور في بيت أرملة شابة تعيش في الوحدة في بلدة مجرية، مخبئًا في القبو، على الرغم من أن قواتنا قد حررت المدينة من الألمان منذ زمن؟ إذن ممن كنت تختفي يا رفيق وكيل العريف؟

ظلت زوجة الرجل المبعوث من الموت تلبس ثوب الحداد. وقد قال لها الحقيقة بكاملها تقريبًا، عدا أنه أضاف إلى عمر المجرية الحنون التي أنقذته حوالي ثلاثين عامًا، وكل شيء سار على ما يرام. قال لها إن العجوز المجرية كذبت عليه أن الحرب ما زالت مستمرة وحصار الألمان ما زال قائمًا، ذلك لأن قلبها قلب أمٍ وقد أراد أن يحتل هو، الجندي البلغاري، مكان ابنها المفقود في نفس العمر.

كانت زوجته عاقلة ولبيبة، انشرح خاطرها، فزوجها عاد سليمًا معافى ولم ترد معرفة أكثر من ذلك. حتى عندما فتحت - عن غير قصد - ذلك الظرف الذي دسه سرًا في يديها موزع البريد وهو ابن أخيها. ذاك الظرف الذي لم يكن عليه سوى كف طفل مرسوم وعنوان لا يمكن قراءته، حتى في هذه الحال، لم تقل كلمة، بل لصقت الظرف بعناية من جديد، أعطته لزوجها وظلت تلبس ثياب الحداد.

بعد سنة خرج الرجل من القبو شبه أعمى بسبب العيش في الظلام، وذهب ليسلّم نفسه. وعند رؤيته طار عقلهم من الخوف. قد اشتعل رأسه ولحيته شيبًا على مدى هذه السنة، ما كادوا يعرفونه. من أين أتيت؟ سأله عمدة القرية. من العالم الآخر، أجاب الجندي وكان ذلك أدق إجابة. روى على عجل قصة لفقها بشكل سيء، فقص عليهم كيف وقع أسيرًا في أيدي الألمان عند الهجوم على مدينة ه.، ثم كيف أجبروه أن يعمل في أحد مناجم الملح الواقعة خلف الجيش الألماني، هناك عملوا، هناك ناموا، وفي النهاية كان يجب انسحاب الألمان بعجلة، ففجّروا مدخل المنجم.

ولم ينجُ من بين الأسرى الثلاثين سواه، فعثر على منفذ وتسرب من خلاله. ولكن عيشه الطويل في الخيط الأسود أصاب عينيه إصابة خطيرة، وهكذا سافر شبه أعمى على مدى الشهور، حتى بلغ مسقط رأسه. استمع

المحافظ إليه، استمع إليه بقية أهل القرية المتجمعين حوله. بكت النساء، مخط الرجال بمحارمهم بقوة، كيلا يبكوا، أما عمدة القرية فكرمش قبعته المسطحة بيديه عابسًا. من يدري إن كان الناس صدّقوا هذه القصة أم أرادوا إنقاذ الرجل، لكن مهما كان الأمر، قرر جميعهم تصديقها، أما عمدة القرية، فساعد في تدبير الأمور مع السلطات العليا في المدينة. تحت طي الكتمان جددوا جواز سفر الرجل "الميت"، لم تعد زوجته تحصل على معاش الأرملة التقاعدي، اسمه فقط بقي على ذاك التمثال. وحتى لا يبقى هناك أي شك، أمر العمدة مطرب القرية بتلحين أغنية مخصصة للجندي الذي عاد عودة سعيدة بعد سنة وأكثر بقليل منذ نهاية الحرب. كانت الأغنية ذات شكل أغنية البطل، ولحّنها حسب كل قواعد التلحين في ذاك الزمن، حيث يتحدث فيها بكل التفاصيل عن "عذابٍ أسودَ في منجمْ عميقْ" وكيف أن غيورغي تلاشْمَنْليتْشيتو (لقبه باسم القرية) بقوة هرقلية "رمى أحجارًا، كي يشقّ طريقَهُ لرؤيةِ الشمس". بعدها أتى الحديث عن عودته وهي طويلة طول عودة أوديسيوس تقريبًا، وعن الاتجاه العجيب الذي سلكه البطل الأعمى للوصول إلى وطنه الغالي وقريته الحنون.

المبعوث غيويرغي (هكذا لقبوه في القرية) عاش طويلاً، كان صحيح البصر ليلاً، أما نهارًا فأعمى كخلد. من جانب قد خرج غيويرغي من القبو، ولكن من جانب آخر، بقي القبو فيه. خلال تلك السنة والنصف حدثت له عدة حيوات ثم ازدادت صعوبته في تذكر أيًا منها كانت حياته الحقيقية.

من يدري إن كان هلك كبطل في تلك المدينة المجرية؟ تلك المرأة المجرية، التي غيرت مجرى الجرب، كي تجعله يبقى عندها، أكانت شابة أم عجوزًا فقدت ابنها؟ كيف تمكن من الفرار من المنجم الألماني؟ وذاك الهاجس الذي استمر يملأ رأسه إلى النهاية. يد طفل، رُسمت على ورقة دفتر بيضاء بسيطة

وأُرسلت في ظرف بريدي.

(ثمة قصتان وكلتاهما تختهان باليد نفسها، يد طفل رسمت على ورقة. لكن الحكايات تنتهي دائمًا بإحدى الطريقتين - بطفل أو بموت).

موقف

ولننتظر هنا أنفاس القرّاء مشتتي الأذهان. فلربما ضاع أحدهم في ممرات هذه الأزمنة المختلفة. هل عاد الجميع من الحرب؟ ومن مهرجان عام 1925؟ ألم ننسَ أحدًا في المطحنة؟ إلى أين ننطلق الآن؟ لا يجوز أن يطرح الكُتّاب مثل هذه الأسئلة، لكني أسمح لنفسي بذلك، بصفتي الكاتب الأكثر ترددًا وتراوحًا. لا أدري إن كان يجب أن ننعطف إلى قصة الأب، أم نسير إلى الأمام، وهو في هذه الحال إلى الوراء، إلى مينوتور الطفولة... لا أستطيع حكاية قصة خطية، لأنه لا متاهةَ ولا قصةَ تسير في خط مستقيم. هل تجمعنا؟ فلننطلق من جديد.

كتالوج مختصر لأطفال التبرؤ

إن تأريخ العائلة يمكن وصفه من باب التبرؤ من عدة أطفال. وتأريخ العالم أيضًا.

الطفل المنبوذ ذو رأس الثور، الذي رموه في متاهة الملك مينوس...

أوديب المنبوذ، المولود المثقوب الكاحلين، المرمي في سلة في الجبل،

الذي سيتبناه أولا الملك بوليباس، وبعده سوفوكليس، وأخيرًا أبوه المتأخر سيغموند فرويد.

الطفلان المنبوذان هانسل وغريتل، فرخ البط القبيح، بائعة الكبريت الصغيرة التي تريد العيش عند جدتها وعيسى بن مريم المدرك الذي يريد العيش عند أبيه...

ويقف في هذا الصف كل من تُبرّئ منه في الماضي، في الحاضر، في المستقبل، بالرغم من أنه ليس وراءهم خرافاتهم. كل هؤلاء وجدوا أنفسهم خارج دار حضانة الأسطورة. لنأويهم هنا، في خان الكلمات هذا، لنفرش لهم شراشف التأريخ البيضاء، لنلحف أنفاسهم التي بردت. ولنتركهم في الأيدي، التي بينما تقلب هذه الصفحات، ستمسح رؤوسهم وأكتافهم الخائفة.

كم من قارئي هذا الكتاب لم يحسوا، ولو لمرة واحدة، بأنهم أطفال التبرؤ؟ كم منكم سيعترف بأنه حُبس في غرفة، أو عليّة أو قبو، للعبرة والعظة؟ وكم منكم سيجرؤ على القول إنه لم يحبس أحدًا قط؟

في بداية كل شيء، كما قلت، يقف طفل مرمي في القبو.

القبو

منذ سنوات طويلة وأنا أراقب العالم من خلف نافذة واقعة على مستوى الرصيف. كانت الشقق تتغير، ولكن في كل واحدة منها كانت مثل هذه النافذة الصغيرة الضيقة. عشنا دائمًا في الطابق السفلي، حيث كان إيجار الغرف بأرخص سعر. انتقلنا لتونا إلى القبو التالي، الذي في الحقيقة كان

"قبوًا سابقًا"، كما قال صاحبه. ليس هناك أقبية سابقة، أجاب أبي بحدة، ولأن المالك لم يفهم ما وراء هذه الكلمات، لم يجد إلا الضحك إجابةً. في هذه المناطق، عندما يشعر المرء بحيرة، وأنا لا أدري لماذا، لكنه يبدأ يضحك.

هذا أمر مؤقت، قال أبي بينما كنا ننقل الطاولة، كنا في أواسط السبعينيات، كنت أدري أننا في قائمة "الأشخاص الذين هم بحاجة قصوى إلى شقة"، وأدري أن تعريف الأشخاص الذين هم بحاجة قصوى هو أولئك الذين يسكنون ما تعادل مساحته أقل من خمسة أمتار مربعة للفرد الواحد. ونحن ننتظر دورنا للشقة في قائمة ما. ولعلها كانت قائمة طويلة جدًا، أو أن ثمة من تخطونا في الصف، لأننا ظللنا نسكن تلك الغرفة الأرضية "موقتًا" لفترة دامت سنوات. لم يكن في الطابق السفلي (وهو في الحقيقة طابق تحت الأرض) سوى ممر طويل وغرفة زائدة مقفولة دائمًا. لم أسأل لماذا لا نستأجرها أيضًا، فأعرف الإجابة وهي أننا نوفر نقودًا لشراء الشقة. بالإضافة إلى أنه كان علينا الاحتفاظ بمساحة أقل من 5 أمتار مربعة للفرد الواحد كيلا نقع خارج قائمة الانتظار. الممر المظلم يلعب دور ردهة ومطبخ، لكنه كان ضيقًا ولا يتسع إلا لكرسيين، وموقد كهربائي صغير وما يشبه الطاولة الصغيرة. عندما يتشاجر والداي، يذهب أبي إلى الممر لينام على الطاولة. حيث يستمع سرًا إلى برنامج "أوروبا الحرة" عبر جهاز الراديو القديم "سيلينا" الملصق كله بالشريط اللاصق. وأفتخر كثيرًا باستماع أبي إلى تلك الإذاعة، إذ أعرف أنها كانت ممنوعة. وفي الحقيقة أفتخر بأنني جزء من المؤامرة. إذا شاركتم آخرين غرفة، فلا يمكن كتم الأسرار الكثيرة.

البيت الذي تقع فيه هذه الشقة الأرضية كان فعلاً جميلاً. يرتفع إلى الأعلى ثلاثة طوابق، وذو نوافذ نيرة واسعة. كانت الجدران ذات جص بارز بتعمد وكانت مرصعة بآلاف قطع الزجاج باللون الأخضر والبني من قناني

البيرة، على موضة ذاك الزمن، والتي تلمع في ضوء الشمس كلمعة الألماس. أما الطابق الثالث، فكان على هيئة شبه دائرة، يكاد يشبه قصرًا. لا أدري ما هو الشعور إذا عشت هناك، في غرفة مستديرة ذات نوافذ مستديرة وشرفة بيضوية الشكل. غرفة بلا زوايا. لعلك ترى من هنا كل المدينة والنهر. كل المارة، لا تراهم ككائنات غريبة، خُلقت من أرجل وأحذية فقط، بل تراهم برُمّتهم. وأنا بالمدرسة لا يفوتني الذكر أنني أعيش في ذاك البناء ذي البرج المستدير الواقع في زاوية الشارع. وهي الحقيقة بعينها، وإن لم أحدد طبعًا في أي طابق.

في تلك الأيام كان أبي يحلم بشقة فيها غرفة ضيوف وطقم أثاث، ويرى نفسه جالسًا على الكرسي الكبير المربع الشكل، يقرأ الجريدة ويمد قدميه فوق المسند الصغير. قد رأى هذا المشهد في أحد أعداد مجلة "نيكيرمان" استعارها لوقت قصير من أصدقاء عائلتنا. وتحلم أمي بمطبخ حقيقي، فيه أدراج وخزانات متعددة حيث ترتب مرطبانات البهارات الخزفية البيضاء، التي ستشتريها ذات يوم. أشك أن هذا الحلم سببه أيضا مجلة "نيكيرمان" نفسها.

...

أرجل وقطط. أوقات العصر، أوقات طويلة، بطيئة وكسلى مثل القطط. كنت أقضي كل النهار وأنا ملتصق بالنافذة، لأنها كانت أكثر المكان نورًا. أعدّ الأرجل الماشية وأؤلف الناس فوقها.

أرجل الرجال، أرجل النساء، أرجل الأطفال... أشاهد كيف تتغير فصول السنة من خلال تغير الأحذية. الصنادل التي تغلق تدريجيًا، وتتحول إلى أحذية خريفية، ثم ترتفع على امتداد الساق، البوتات النسائية الكيّسة من الجلد اللامع المكرمش الحديث، البوتات المطاطية الخشنة للعمال الذين

يرمون صناديق القمامة، الجرموق المطاطي الذي يلبسه الفلاحون بجواربهم المغزولة من الصوف والذين أتوا من أجل التسوق في يوم الخميس، بوتات الأطفال ذات الطلاء الأزرق أو الأحمر وهي بقع ملونة وحيدة وسط أغلبية الألوان السوداء والبنية. ثم من جديد يأتي التخفيف الربيعي التدريجي، نزع الأحذية إلى الأصابع والكواحل والأقدام الصيفية الحافية التي تلبس الصنادل والنعال فقط. كانت النعال تمثل ما يشبه ملابس السباحة بالنسبة للأرجل.

النافذة في الخريف تطمرها الأوراق الصفراء والحمراء المتساقطة على الرصيف مما يضيء الغرفة بنور خافت أصفر. ثم تنثرها الرياح الخريفية المتأخرة. وتأتي الأمطار والسيل الدائم من الماء أمام النافذة. تقف ساعات وتراقب كيف تنزل القطرات في سيل الماء، وتشكّل فقاعات تتبدّد، وتشكل أساطيل سفن كاملة تهزمها القطرات التالية. كم من المعارك البحرية التأريخية تجري في هذا السيل. ثم يطمر الثلج النافذة الصغيرة وتتحول الحُجَيْرة إلى وجار. ألتوي كالكرة كما لو كنت أرنبًا تحت الثلج. أن تشرق الدنيا إلى هذا الحد من الإشراق، وبالرغم من ذلك، تبقى أنت غير مرئي وغائبًا عن نظر الآخرين، الذين تقرقش خطواتهم في الثلج بُعيد شبر واحد عنك. هل هناك شيء أجمل منه؟

إله النمل

كان في السادسة عندما بدأ والداه في تركه وحيدًا بالبيت. صباحًا كان أبوه وأمه يشعلان مدفأة الغاز، مكررين أن يكون على حذر من تدفق الغاز في خرطوم المدفأة. فقد انفجرت مدفأتان في شارعهم. يتركان الطعام له في الثلاجة ويخرجان. طفولة السبعينيات. إنه متروك وشأنه طوال النهار،

وفي نفسه ذاك الشعور الغامض بالهجر. الغرفة شبه المظلمة تخوفه. في الأيام الدافئة الخريفية يقضي كل النهار في الخارج، جالسًا على حجر أمام البيت، في الرصيف، مثل شيخ صغير، ويعدّ كم من الناس سيمرون، كم من السيارات، وما هي موديلاتها. يحاول حزرها من خلال ضجيجها قبل ظهورها من وراء المنعطف. سيارة موسكوفيتش، موسكوفيتش، جيغولي، موسكوفيتش، ترابانت، فيات بولندي، جيغولي، موسكوفيتش، موسكوفيتش... بعد أن يضيق بهذا ذرعًا، يضع رأسه على ركبتيه ويحدق النظر في بلاط الرصيف. كل بلاطة تسطرت بشكل منتظم وتشابكت فيها خطوط عمودية وأفقية وشكلت شقوقًا صغيرة، حيث يدور النمل ويلتقي وينفصل. كان ذلك عالمًا كاملاً شبه مرئي، غير عالمنا. وهو يشبه المتاهة في ذاك الكتاب المصور. كان يبقى هكذا ساعات، ويؤلف قصة لكل نملة. يراقبها بتجربة عالم في العلوم الطبيعية، على الرغم من أنه لا يعرف معنى العبارة الأخيرة. يدرسها، يكرس لها ساعات من الزمن الذي مُنح له بيد سخية. كل نملة تختلف عن الأخرى.

أحيانا يتخيل أنه إله النمل. وفي أغلب الأحيان كان إلهًا لطيفًا، يساعد النمل، يقدم له فتات خبز أو ذبابة قتيلة، يدفعها بطرف العود إلى بيت النمل، كي يسهل عمله.

لكنه أحيانًا، يغضب بدون سبب، مثل إله حقيقي، أو يريد اللعب فيصب في شقوق المتاهة كوز ماء. وهكذا يخلق طوفانًا للنمْل.

وفي أحيان أخرى يصب ملحًا في أطراف البلاطة، فقد اكتشف بالصدفة أن الملح لا يعجب النمل إطلاقًا، وأنه يتوه مأخوذًا بالذعر في ممرات هذا السجن المؤقت. وعندما يلتقي بعضه بالبعض، يمس مجسّاته، كأنه يبلغ السر المهم جدًا.

اكتشافه الآخر وهو اكتشاف إلهي وعلمي، كان أن النمل لا تعجبه

رائحة البشر قط. إذا رسمت بإصبعك دائرة حول نملة، تصطدم بهذا الحد غير المرئي، وكأنك بنيت جدارًا.

قد لاحظ قدرته هذه، التي يعتبرها نقصًا هائلاً، وهي القدرة على أن يشعر بما يشعر به الآخرون. القدرة على "العيش في أجساد الآخرين"، كانت الكلمة ستأتي فيما بعد، القدرة على أن يكون الآخرين.

ذات ليلة رأى في منامه كيف يمضي مع أمه وأبيه في الشارع، وإذا بإصبع ضخم ذي ظفر بحجم صخرة، يسقط إلى جانبهم ويبدأ يطوف حولهم بشكل دائرة. وإضافةً إلى هول الموقف من الإصبع الذي يستطيع دهسهم هكذا، وبلا عناء، كانت تفوح منه رائحة كنتانة السم. النتانة التي يمكن اصطدامك بها وتهشيم رأسك.

ولكن في الشتاء، كانت الأمور تتغير، فلا تستطيع البقاء في الخارج طوال النهار. تزداد الحجرة ظلامًا، تفوح من المدفأة رائحة الغاز، وأما المخاوف، فتتسلل من تحت الأسرّة أو تصر داخل الخزانة التي قرضها دود الخشب. ثمة ملاذ وحيد وهو النافذة. يصعد إليها صباحًا ولا ينزل منها إلا لأكل شريحته من الخبز عند الظهر أو ليبول.

موقف

أفهم جيدًا ضمير المتكلم غير الواثق بنفسه، الذي ينسحب بسهولة إلى ضمير الغائب ثم يعود من جديد إلى المتكلم. ولكن من يستطيع القول باليقين أن ذاك الولد هناك قبل أربعين عامًا، كان أنا، ذاك الجسد هناك هو نفس الجسد هنا؟ وحتى نمل عام 1975، ليس النمل نفسه. لا أجد أي شبه بيني وبين جسدي ذي الست سنوات وتلك البشرة الوردية الشاحبة الرقيقة

والرجلين المغشتين بالشُعيرات الشقراء غير المرئية. لا علامة مميزة للمشابهة، لا أثرَ سوى ندبة اللقاح، التي دُمغ بها جيلنا كله. ذاك الندب شبه المرئي على الكتف الذي تضخم بخيانة وبدأ ينزل إلى الأسفل على مدى السنين.

منعطف داخل منعطف. كانت إحدى صديقاتي تروي لي كيف أنها بعد ليلة حب حدثت بالصدفة، بينما تستلقي على الأرضية في نهك الحب، مع عشيقها وهو أصغر منها، سألها فجأة (بشيء من العطف) ما هي هذه الندبة بين كتفها ومرفقها (قد غادرت الندبة كتفها). عندها لاحظت واعتراها الرعب أنه ليس لديه أي ندبة لقاح على كتفيه. وقالت لي: الأجيال وراءنا لا يدمغوهم مثلنا، وبدا لي وكأن ذاك الشاب كان كائنًا فضائيًا، كان مستنسخًا. نهضت، ارتدت ملابسها ولم يرها عشيقها الشاب بعد تلك الليلة قط.

الرب/النملة

لعل كل الأحلام المحكية ينبغي أن تبدأ بتلك الجملة الصريحة الفاتحة المفاجئة في بساطتها، التي سمعتُها من آية، عندما كانت في الرابعة: حلمتُ أنني يقظة.

وها أنا أحلم أنني يقظ. أقف أمام ستائر ضخمة محبوكة بألوان متغيرة لا أسماء لها، قلتُ "ستائر ضخمة"، بل كانت رقيقة وهوائية. وقيلَ لي في حلمي، إن وراءها يختفي "وجه الرب الجميل" تلك هي الكلمات بالضبط. أفتح الستارة الأولى. (يبدو أن الفضول يتغلب دائمًا على الخوف، أو على الأقل يصح هذا في الأحلام).

كانت وراءها ستارة ثانية. فتحتها.

ثالثة.

رابعة.

ألاحظ أن كل ستارة تالية يقل حجمها. وبالتالي يقل ما تخبئه خلفها. أظل أفتح الستائر وفي النهاية لا تبقى هناك إلا ستارة بحجم منديل جيب. وقفت. هل كان علي أن أفتح تلك الستارة؟ هل من الممكن أن يكون الرب صغيرًا إلى هذا الحد؟ ألا يوسوس إلي مسيح المنامات الدجال؟

فتحتها. كانت تقف وراءها نملة سوداء كبيرة. وأنا، لا أعرف كيف، بل أعرف أن هذه النملة هي الرب. ولكن لم يكن لديه وجه. وكان الاكتشاف مخيفًا. فكيف تصلّي وتتوكل على من لا وجه له؟ على من هو صغير غاية الصغر؟ كان الوحي الذي أنزله الرب/ النملة علي في لحظة الاستيقاظ تلك، وبدون أن يفتح فمه، يقول الآتي: الرب حشرة تراقبنا. لا يمكن لأي شيء أن يكون في كل مكان إلا الصغير.

لغة سريعة الانهيار

تعلمت الحروف في مقبرة تلك المدينة الفانية تحت الشمس. أستطيع قول ما أعنيه بكلمات أخرى - كان الموت هو أول كتاب تعلمت منه الحروف الأبجدية. الموتى هم من علّمني القراءة. وأنا أعني ما قلته حقيقةً لا مجازًا. كنا نذهب إلى المقبرة كل خميس وسبت. أقف بسكون أمام الصلبان الحجرية الساخنة. كان طولي يعادل طولها. وبشيء من الخشية، أمر بأصابعي على التجاويف، قارئًا عن طريق الجلد، حافظًا خطوط هلال حرف "C"، باب "H"، وكوخ "A". وتبدو اللغة دافئةً صلبةً، لها جسم سريع الانهيار. بأصابعي فقط كان يلصق بعض الغبار والرمل الناعم من الأحجار. تلك

هي الكلمات الأولى التي تعلمتها:

رقاد

أبدية

هنا

ذكرى

ولد – توفي

الرب

وأسماء، أسماء كثيرة، المقابر تعجّ بالأسماء.

أتاناس ح. غروزدانوف

ديم. حاجيناوموف

مارينتشو – العمر 5 سنوات

ديمو كورابوف

غيورغي غوسبودينوف

إيغور ساركيسيان (حفيد الجدة ساركيسا)

كالا غيورغييفا

...

ماذا يحدث للأسماء بعد وفاة أصحابها؟ هل يتركونها للآخرين؟ وهل

تستمر الأسماء بالدلالة على شيء، أو تنهار مثل الجثث تحتها ولا يبقى منها إلا عظام الأصوات الساكنة؟

الكلمات هي المعلّم الأول في دروس الموت. هي العلامة الأولى التي تدل على الفراق بين الأجسام وأسمائها. وأغرب شيء في تلك المقبرة كانت الأسماء المتكررة. كنت أقف طويلاً أمام حجر حفر عليه اسمي، الذي تركه شخص ما من بعد أن عاش معه ثلاث سنوات فقط.

حتى بعد مرور سنوات، لا أتخلّف عن زيارة المقابر في المدن التي أمكث بها. بعد أن أنحني باحترام أمام الشوارع المركزية والكاتدرائية في الساحة، وأمر بكل إجلال على تمثال الملك راكبًا الحصان (هل سنرى رؤساء اليوم راكبي سيارات ليموزين من الجرانيت غدًا؟)، أستعجل الاستفسار عن مقبرة المدينة وأستغرق في ممراتها التي تمثل مدينة موازية وحديقة في آن واحد. الموت بستاني كثير العناية. أدركته منذ ذلك الحين وأنا في السادسة وسط الورد المجنون، والسوسن، والشجيرات المتفتحة الفوّاحة، والبرقوق، والتفاح الحرجي، والكرز الصغير، والإجاص المتعفن في مقبرة القرية.

محرقة جثث الموتى في مقبرة بير لاشيز تشبه كاتدرائية ذات مدخنة. يقول تيودور أدورنو إن نظم الشعر بعد أوشفيتز هو من أعمال البربرية. وهل من الممكن وجود محارق جثث الموتى وحتى لو كانت في المقابر؟

الموتى هم من علّمني القراءة. أكتب هذه الجملة من جديد وأعي أنها تكشف عن المزيد من الأشياء، تفصح عن أشياء أكثر اختلافًا عما أردتها.

الناس الذين علموني القراءة ليسوا على قيد الحياة. الأشياء التي قرأتها منذ ذلك الحين كانت مكتوبة بأيدي الموتى. ما أكتبه الآن هو كلمات امرئ رحل...

لم أعرف كم من الموت يغفو تحت اللغة.

الباء

بعد كتاب أبجدية المقبرة، اصطدمت بكتاب الأبجدية الحقيقي في الصف الأول الابتدائي، وكنت عارفًا ومرتبكًا في آن واحد. كل حرف كان مرتبطًا بكلمة وصورة.

أي كلمة تتضمن حرف "الباء"؟

"رب" – صحت بعجلة، ما أسهل هذا السؤال. ولكن هناك شيء لم يكن كما يجب. ارتجفت المعلمة ولم تعد تبتسم كما كانت. أتت إلي، كأنها تخاف أن أقول شيئًا آخر. من أين تعلمتَ هذه الكلمة؟ أأأأ... من المقبرة. عندها قالت إحدى البنات من المقاعد الأمامية: "بلغاريا، بلغاريا، يا رفيقة". تلك هي الإجابة الصحيحة. وتشبثت المعلمة بقشة تلك الإجابة. أحسنتِ يا بنتي. أما أنا فأحسست بغاية الوحدة مع ربي. من الغريب أن وجود كلمتين تتضمنان الحرف نفسه كان أمرًا مستحيلاً، كأن ظهر الباء كان واهن العظم إلى حد لا يستطيع حمل مثل هاتين الكلمتين الجسيمتين.

يا له من سخف. حرف "الباء"، تبدأ به كلمة "بلغاريا". بلغاريا لا رب فيها! كانت المعلمة تشدد على كل "باء"، سندرس ذلك في صفوف الثانوية. أليس كذلك؟

ولكنه موجود في المقبرة...

إننا في المدرسة، لسنا في...

يا ربي، كم من المشكلات تقع من كلمة واحدة، سوف أكره هذه المدرسة.

وفي المساء، كان لوالديّ حوار جاد معي. كانت المعلّمة الرفيقة قد أخبرتهما كل شيء. ولكن الرب موجود، أليس كذلك؟ كأنني طرحت أصعب سؤال في العالم. اسمعْ، بدأت أمي (وكانت تعمل محامية)، اعلمْ أنه موجود، ولكن ليس من الضروري أن تذكر اسمه في كل مكان، فهو يغضب إذا ذكرت اسمه أمام ناس غرباء.

إذن أقفل فمك، أضاف أبي.

كان الرب هو السر الأول. أول الأشياء الممنوعة، التي لا يمكننا الكلام عنها إلا في البيت.

"جدتي، بلغاريا لا رب فيها"، قلت ذلك حالما وصلنا إليها، ورأيتها تغيّر الزيت في القنديل على الجدار وترسم الصليب بخفية. بالتأكيد كانت ستنهرني لتلك الكلمات، لكنها رأت أبي عند الباب ولم تقل إلا: "وبلغاريا ماذا يوجد فيها؟ لا فلفل أحمر ولا زيت". كانت جدتي الوحيدة التي استطاعت جمع عجز الدولة المادي والميتافيزيقي بمثل هذه الطريقة. الرب والزيت والفلفل الأحمر.

كانت تقرأ الكتاب المقدس في السر. غلّفته بجريدة، كي تخبئه. تقرأ بعشوائية، تمر بسبابتها المعقوفة من التهاب المفاصل على السطور وتحرك شفتيها. هكذا استمعتُ إلى أبوكاليبس كله، بهمس، في أوقات العصر المتأخرة من طفولتي، وسط صيحة أبواق أريحا الهادئة، التي ينفخها الذباب

بطنينه في الغرفة.

كانت جدتي تعرف أنّ عليها ألا تتحدث عن هذه الأشياء أمام الناس، كي تحمي أبي ولا تلحق الضرر به. كان أبي يعرف أنّ عليه ألا يتحدث عن أشياء أخرى كي لا يهدم حياتي (هكذا تقول أمي)، فأخذ يغلق على نفسه باب المطبخ ومعه الراديو. كنت أعرف أنّ عليّ ألا أتحدث عن أي شيء أسمعه بالبيت، كي لا تجيء الشرطة وأهدم حياتها. سلسلة طويلة من الأسرار والأكاذيب التي تجعلنا عائلة عادية. مثل العائلات الأخرى. كانت تلك أكبر حيلة في المؤامرة – أن تكون مثل الآخرين.

الحبر غير المرئي

في الخامسة تعلمت القراءة، وفي السادسة أصبحت قراءتي مرضًا. التهام الكتب الشره غير المنظم. نوع من بوليميا القراءة. كنت أقرأ ما أعثر عليه، وها أنا وصلت إلى مكتبة أمي، وذلك المجلد البنفسجي اللون ذي الغلاف الصلب، وبعنوان كبير الأحرف.. "علم كشف الجريمة". كان الفصل الأول يبدأ بقوله إنه قبل 9 سبتمبر عام 1944، لم يكن لعلم كشف الجريمة وجود. أما الفصل التالي قد نسي هذه العبارة، وأكد أن دراسة علم كشف الجريمة البورجوازي أصبحت من اللازم لسببين هما: أولاً، من أجل كشف القناع عن طبيعته الرجعية، وثانيًا، لاستسقاء كل الأفكار الثمينة منه.

وكشف القناع عنه كان الأمر الأكثر إمتاعًا. في هذه الحال فقط، عن طريق فهم ما بين السطور والاقتباسات المحرّفة، يمكنك معرفة ما يحدث في العالم.

وبعد هذا، فقد تمخّض عن علم كشف الجريمة البورجوازي بعض

الأشياء "التافهة"، مثل جهاز كشف الكذب، وعلم النفس القضائي، وأخذ بصمات الأصابع. كان يعجبني كتاب "بصمات الأصابع" (1987) لِفرانسيس غالتون، وهو خبير برجوازي في هذا المجال.

أما في بداية علم كشف الجريمة الثوري، فكان يقف "لينين" طبعًا. يبدو أن الإجرام كان يجري في عروقه. في نفس الوقت كان لينين قد وضع أساس كل العلوم الأخرى، الأمر الذي تثبته جميع الكتب إثباتا مُطْ - لَ- قاً (كلمة مفضلة لديه). "اللغة هي أهم وسيلة للتخاطب بين الناس"، كان هذا مكتوبًا فوق لوحة قاعة الدرس. يا لعبقرية الابتذالية!

ولكن أكثر الأشياء إمتاعًا في ذلك الكتاب البنفسجي كانت التصوير القضائي، والسلاح و... الحبر غير المرئي. "الأحبار السرية هي عبارة عن محاليل المواد العضوية أو اللاعضوية مثل: عصائر الفواكه، البصل، محاليل السكر، البول، اللُعاب، الكينين..." جذبني هذا الأمر واشمأززت منه في آن واحد. فلم أتخيل الجواسِيس أبدًا شخاخين يكتبون رسائلهم بالبول والشراب واللعاب. تفووو... أن تكتب رسائلك السرية بإفرازات! ولكن من جانب آخر، كانت سهولة الوصول إلى الحبر السري تعجبني كثيرًا. كل المواد كانت في متناول يدي. في أول الأمر قررت عدم استعمال البول، نزلت إلى القبو، أخذت كمبوت الخوخ، فتحته وبمساعدة عود الكبريت كتبت بشكل بطيء أكثر صفحتين سريتين في دفتر يومياتي.

وهنا أقدم لكم جزءًا مما كتبته بحبر فواكه غير مرئي:

ماذا؟ ألا ترون أي شيء؟ يعني أنه فعلاً حبر غير مرئي. ليتني كنتُ أقدر على كتابة رواية كاملة بمثل هذا الحبر.

ممر جانبي

بعد معرفة كل الأدلة المشيرة إلى أن تأريخ الأربعة مليارات سنة الأخيرة قد تم تدوينه في الحمض النووي الريبوزي للكائنات الحية، لم تعد جملة "الكون مكتبةٌ" ذات معنى مجازي على الإطلاق. إننا الآن بحاجة لمعرفة جديدة. الكثير من القراءة في انتظارنا. عندما كان السيد بورخيس يقول إنه يتخيل الجنة كمكتبة لا بداية ولا نهاية لها، فهو على الأرجح، وبدون أن يعلم، يقصد الرفوف اللانهائية للحمض النووي الريبوزي.

أنا كُتُبٌ.

أبي، ما هو المينوتور؟

نتدافع في هذه الأقبية كما لو كنا مينوتورات، سأفعل... كذا وكذا بأمهم، وبمشروع الإسكان، وبقائمة الانتظار... كان أبي يعضّ على لسانه بجهد جهيد، محاولاً ألا يسب في حضوري وحضور أمي، الأمر الذي كان يشبه محاولاته للإقلاع عن التدخين. كنت متأكدًا من أنه يعوّض خسارته، مدخنًا كل السجائر التي لم يدخنها، شاتمًا كل الشتائم التي لم ينطقها. عبارة أبي هذه، التي وصلتني بعد تعثره في خرطوم المكنسة الكهربائية راكيتا،

ستؤدي إلى عواقب مهمة بالنسبة لي. كنت أعرف معنى عبارات "سأفعل كذا وكذا بأمه"، و"مشروع الإسكان"، كما وأعرف مغزى "أشخاص بحاجة قصوى"، و" صاروخ بيرشينغ" وإلخ...، لكنني لم أعرف معنى كلمة "مينوتور". وهل هو من جماعة الأخيار (وهي جماعتنا)، أم من جماعة الأشرار. تلك الأيام كنت أصنف كل شيء على تينك الطبقتين. بعدها أفهم بشكل مفاجئ أن الكبار يقومون بالتصنيف نفسه. انقسم العالم إلى نصفين – نصف الأخيار ونصف الأشرار، نصفنا ونصفكم. من حظنا الحسن وقعنا في "نصفنا" وبالتالي في نصف الخير. على الرغم من أنني أسمع أبي يقول بعد نشرة الأخبار المسائية: "بالله عليكم! ذاك المعتوه جيمي كارتر، ما ذنبه هو إذا سكنت قبوًا وإذا ما كانت أغطية المرطبان موجودة في السوق؟" أمي، التي دائما كانت أكثر رصانةً منه، تُومِئُ له ليصمت. أيعتقدان بأنني أُفشي عن غير قصد أسرارنا إلى الشرطي المسؤول عن حينا، والذي يسكن البيت بجانب بيت جيراننا؟ أما جيمي كارتر، فحقًا يرسمونه في الكاريكاتير في صورة معتوه ذي أسنان كبيرة، وقد أزاح عن جبينه قبعته المنقوشة بنجوم علم أميركا وفي فمه صاروخ مجنّح بدلاً من السيجار.

دخلت من جديد ممرات أخرى، أرتبك عندما أعود إلى الوراء. الزمن الماضي له صفة خاصة يختلف من خلالها عن الحاضر وهي أنه لا يجري أبدًا في اتجاه واحد. من أين انطلقت؟ لحسن الحظ أنني أكتب وإلا فلن أستطع إيجاد الخيط أبدًا...

نتدافع في هذه الأقبية كما لو كنا مينوتورات ... تلك هي عبارة أبي ... ودخلت فورًا كتالوج الإدراكات، الذي لم أكن أُؤلِّفُه بعدُ، كتالوج إلهامات الوحيّ كلها. تلك التي من حيث المبدأ تنزل بغتة في اللحظات الأكثر مفاجئة وغير المناسبة. تعثر أبي في خرطوم المكنسة الكهربائية، لأنه لم يره، لأن الممر

كان ضيقًا، لأننا نعيش تحت الأرض، كان اليوم مظلمًا، كانت النافذة صغيرة ولم تتمكن الشمس من النزول إلينا.

أبي، ما هو المينوتور؟ سألت. ادّعى والدي بأنه لم يسمعني. أبي، هل المينوتور من جماعتنا؟ أعتقد أن هذا السؤال زاده توترًا. وفي اليوم التالي أحضر لي الطبعة الكاملة القديمة للأساطير الإغريقية. ومنذ ذلك الحين لم أفارق هذا الكتاب قط. يومها دخلتُ المينوتور ولم أخرج منه. إنه كان أنا. كان المينوتور ولدًا يقضي أيامه ولياليه الطويلة في الطابق الأرضي لقصر ما، بينما يعمل والداه مُلُوكًا أو ينامان مع الثيران.

لا عليك من الكتاب عندما يصف المينوتور كوحش. كنتُ في داخله وأعرف الحكاية الكاملة. ففي أساسها يكمن الخطأ الكبير، والافتراء، والظلم. أنا المينوتور ولست وحشًا دمويًا، لا أريد أكل سبعة شبان وسبع فتيات، لا أعرف لماذا أقفلوا عليّ، لست مذنبًا... وأنا خائف أشد الخوف من الظلام.

الفصل الثاني

قضية التبرؤ: قضية م.

"في قبو القصر في جزيرة كريت، بنى المهندس الموهوب ديدالوس متاهة فيها ممرات معقدة ومحيرة إلى درجة أنك لو دخلتَها مرة، لعجزت عن الخروج منها أبدًا. وقد حبس الملك مينوس داخل تلك المتاهة تحت الأرض خزي سلالته، ابن زوجته باسيفاي -المينوتور وهو وحش جسمه جسم إنسان، رأسه رأس ثور، حملته باسيفاي من ثور أرسله الإله بوسيدون إلى الملك مينوس.

قام مينوس بمهاجمة أثينا ليفرض إتاوة بسبعة شبان وسبع عذارى ليأكلهم المينوتور كل تسع سنوات، إلى أن ظهر البطل ثيسيوس، الذي قرر قتل المينوتور. أما ابنة الملك مينوس التي كان اسمها أريادني، فأعجبت كثيراً بالبطل الأثيني، وقدمت له سيفاً بتّارًا وكرة خيط. وفي لحظة دخوله إلى المتاهة، ربط ثيسيوس الخيط عند مدخلها، ليعود مسترشداً به، بعد أن يقتل المينوتور، فتسلل بين الممرات التي لا نهاية لها، باحثًا عن غريمه. مشى ومشى، وإذا به يسمع فجأة جؤارًا مرعبًا، فهجم الوحش عليه بقرنيه الضخمين. ودارت معركة حامية. وفي النهاية قبض ثيسيوس على قرني الوحش وطعن صدره بعدة طعنات من سيفه البتار فقضى عليه، وخرّ الوحش أرضًا، فسحبه ثيسيوس حتى مخرج المتاهة".

من "الاساطير والخرافات الإغريقية القديمة"

ملف القضية

السادة المحلفون الأحياء والموتى، من كل الأزمنة وكل أصقاع الخليقة،

السادة والسيدات رواة الأساطير وجمّاعوها، السيد مينوس المحترم، الذي يتقلد حاليًا وظيفة القاضي في العالم السفلي.

أعددت لهذه القضية، "قضية م."، وكتبت مرافعتي الدفاعية على مدى سبعة وثلاثين عامًا. بدأت وكنت في التاسعة من عمري، بدأت بقلم رصاص جدي وكتبت به في مفكرته العسكرية القديمة، التي لم يستعملها منذ زمن طويل. (الأمر الذي لا يبرر استئثاري غير القانوني بالمفكرة. مما يتبين أنه في البداية دائمًا تختفي جريمة ما).

وتنص الصيغة الأولى من مرافعتي على ما يلي:

"المينوتور بريء. إنه ولد محبوس في القبو. إنه مذعور. هم هجروه.

أنا، المينوتور".

هذه هي مرافعتي. كتبتها بأحرف كبيرة وامتدت مساحة صفحتين من المفكرة. أرفقها في ملف القضية. وهي تمثل صلب الفكرة الأساسية إجمالاً. بمرور السنين لم أغيرها وإنما أضفت أدلة إليها. وجمعتُ الإشارات التي جاءتني دون أن أسعى إليها.

من الغرابة أنني أجد كل الأدب الكلاسيكي يعامل المينوتور معاملة لا رحمة فيها. حيث لا يخرج الأدب من خطوط صورة المينوتور الثابتة، فيُلبسه في كل مرة قناع الوحش. وكلمة "وحش" هي أبسط الكلمات التي تستعملها النصوص القديمة في وصف المينوتور. ألا يسميه أوفيد في كتابه التحولات: "وحش بغرابة شكله المزدوج" و"أصل هذا الخزي"... إذ إنه ليس إلا "غرابة" و"أصل الخزي". ألم يشكّ أوفيد أنه، بعد كتابة "التحولات" ببضع أشهر، سوف يُرمى في أرض البنطس وهي قعر المتاهة الرومانية، إقليم من

الأقاليم التي لن يخرج منها ولن يرى طريق العودة. آه ... أوفيد، لا تؤدي كل الطرق إلى روما عندما تقع في متاهة الأقاليم.

ومن الغريب أن أوفيد في أحد أعماله التي كتبها قبل التحولات أظهر العطف على المينوتور، وهو كتاب "رسائل البطلات" (Heroides أو Epistulae Heroidum)، رغم أنني هنا أفضل الكلمة البلغارية القديمة "هيرويني" بدل "بطلات"، ولا سيما أنها أجمل كلمة تصوّر هيروين اليأس. حيث كتبت أريادني المنبوذة رسالتها إلى ثيسيوس، الذي يمخر عباب البحر إلى أثينا. وكأن هذه المرأة التي تشارك في قتل المينوتور حبًا بثيسيوس، تندم لأول مرة على مشاركتها في الجريمة: أوه ... ثيسيوس، اعلم أنني لو لم أقدم لك كرة الخيط، لكنت ميتًا في المتاهة العاصفة. ألم تقل لي إنك ستحبني حتى نهاية العمر؟ وها نحن ما زلنا على قيد الحياة، وإذا كنت حيًّا، فيعني أنك سيد السافلين. كان من الأفضل ألا أقدم لك فكرة الخيط الملعونة، وإلخ... ولكن المهم هنا أنها ولأول مرة تسمي المينوتور أخاها: "قتلتَ بسيفك المينوتور أخي...". فلنؤكد أمام هيئة المحلفين المحترمين على أنه قد تم الاعتراف بالوحش بصفته أخًا لمخلوق إنساني آخر.

ولنحفظ هذه العبارة غيبًا: " المينوتور أخي".

"كان ذا وجه ثور، وجسم إنسان"، قال ذلك أبولودور الهادئ العَلاَّم (أو أبولودور الزائف) في حوالي القرن الثاني ق.م.، ولعله الوحيد الذي لم يطلق على موكلنا المينوتور أقسى النعوت.

ماذا يفعل فلوطرخس الداهية كي لا يزل لسانه بالخطيئة؟ إنه يفضّل

الحديث عن م. من فم يوربيديس، الذي سمى المينوتور "هجين ومجنّس في شكل وحش". وكذلك: "طبيعة ثور وطبيعة رجل في جسم واحد". كأن العبارة الثانية تلتزم الحياد، أي أنها – في سياق قضيتنا – عبارة رحيمة، ولذا فإن طبيعته الإنسانية تظهر هنا من جديد.

أما سينيكا، فبعكس فلوطرخس، يستخدم في "فدرا" لغة بذيئة إلى درجة أن لو سمعها الجنود الرومان لخجلوا منها. حيث يصرخ إيبوليت في فدرا: "يا زانية، يا عاهرة يا سافلة، إنك تتفوقين على أمك باسيفاي التي أنجبت الوحش، وكشفت شبقها الحيواني العنيف. ولكن لماذا يفاجئني هذا وقد حملك نفس الرحم الذي نفخه ابن العار ذلك ذو صورتين... " لعل سينيكا لفظ بمثل هذه الكلمات، إذا استخدمنا لغة زمنه.

أتحتجُّ عليها حضرتك، أيها السيد المدعي؟ إذا كان الاحتجاج على الخطاب البذيء، فلأؤكد لك أن هذه الأقوال ليست من بين أقوالي، وأن الترجمة دقيقة جدًا. لا علاقة لها بقضيتنا؟ حضرتك على خطأ. فالحديث يدور حول ترك طفل واحتجازه القهري، ووصمة العار المرسومة على جبينه، ولا ذنب له فيها. وبعدها يأتي تلويث شخصيته، والتشنيع عليه، وترويج المعلومات الكاذبة بصورة علنية... ورغم أن كل هؤلاء كتموا، واحتاطوا، وتحفظوا في كلامهم، إلا أننا نقرأ ما بين السطور وبعض العبارات والأقوال، فنرى أنهم يعترفون بطبيعة المينوتور الإنسانية، رغم تجريده من حقوقه الإنسانية. أيها السيد المدعي، أرجو أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الأقوال، وتمنحني الحق في الاستمرار.

الشاعر فرجيل، المحبب لدى أغسطس، في ملحمة الإنياذة ضرب الضحية وألقاها بالبيتين التاليين: "وليد الوقاع البشيع ذو صورتين... ذكرى دائمةٌ لشبقٍ مخزٍ ..."

وكل كلمة هنا تقطر بالتقزز.

إذا ذكرنا فرجيل، فلا يمكننا ألا نذكر دانتي أليغييري. ففي جحيم دانتي، نجد المينوتور عند مدخل الدائرة السابعة وهي أكثر الدوائر دمويةً: "هكذا كان الهبوط في ذلك المنحدر الوعر، وعلى حافة الصخر المحطم، استلقى عار كريت، الذي حملته البقرة الزائفة في بطنها".

يبدو أن دانتي أليغييري هو أكثر قسوةً من مرشده فرجيل. بعد منفى المينوتور في المتاهة، بعد قتله بسيف ثيسيوس، تم رميه بين السفاحين، والطُّغاة، والكافرين بالرب، ومرتكبي الخطيئة ضد قوانين الطبيعة. ولكن المينوتور ليس إلا نِتاج هذه الخطيئة. ليس جانيًا، بل مجني عليه، وخسرانه لا يُعوَّض، أليس كذلك؟

(ناهيك عن أن الدائرة السابعة يحرسها القنطور. والقنطور بنصفه العلوي على شكل إنسان ونصفه الآخر على شكل حصان، ليس إلا مرآة المينوتور).

الأدب يعود باستمرار إلى ولادة المينوتور الفظيعة، أما الرسوم فاستوحت من موته. وعلى كل فريسك يعود تأريخه إلى العصر الكلاسيكي القديم، وكل الرسوم على الأواني الخزفية، وكل الصور في كتب الأساطير والخرافات الإغريقية، نرى رسمًا يصوّر نفس المشهد – ثيسيوس يقتل

الوحش المينوتور. كل صورة تظهره على وشك الطعن بالسيف أو أنه قد مات وثيسيوس يسحله ممسكًا بقرنيه. وكل ذلك يشبه سلسلة الأساليب القتالية للضرب بالسيف عن قرب.



ثيسيوس يمسك المينوتور بأحد قرنيه ويشرع السيف ذا الحدين نحو صدره. أحنى المينوتور رأسه الضخم الخارق للعادة في حضن ثيسيوس، كاشفًا عنقه لضربة السيف.

يقف ثيسيوس من وراء ظهر المينوتور، ويلف بيده اليسرى رقبته، أما يده اليمنى، فيُدخل بها سيفه القصير في الجزء اللين من صدر المينوتور. الجسم جسم إنسان. إنك تقتل إنسانًا يا ثيسيوس. يَدخل السيف في الجسم بسلاسة. نعم، في كل الصور، جسد المينوتور الرهيب هو جسد يُجرح، وهذه

حقيقة لا يمكن إخفاؤها.

في أسفل إحدى الأواني الخزفية يبدو المينوتور جميل الوجه، يشبه مورو، وهو ذو شفتين ممتلئتين، ومنخارين جميلين، جاثيًا على ركبتيه، كاشفًا جسمه بغير حذر كي يتلقى الطعنة القاتلة من يد ثيسيوس، الذي وطئ بقدمه اليمنى أربية المينوتور.

في بعض الرسومات الأخرى، نرى ثيسيوس يسحل من خلفه جثة المينوتور الهادئة... فيكاد لا يقاومه، وعلى ذلك يشهد المحامي الآخر الغيابي في القضية، السيد بورخيس.

وفي بعض المشاهد يبدو القتل أعنف، وأكثر همجية وبربرية، حيث تم الاغتيال بعصا ثقيلة، أو نبوت خشبي شوكي، وهو عبارة عن نموذج أولي بسيط للهرواة المستعملة في أيامنا. إنه ذبح الجاموس أو ذبح الثور، كما يقدم عليه القرويون في المسالخ الريفية، ضربة الجبين بقفاء الساطور.

طفولة وموت فقط. ولا شيء بينهما. سوى ظلام وصمت.

السادة والسيدات، أرجو أن تأخذوا كل ذلك بعين الاعتبار.

فيروسات

رأيتُ وردًا ومعزى تغازل من حولي

وصرختُ خائفًا مرتعبًا

يا إلهي!

لا تسمحْ بهذه الخطيئة!

الرب سمع وفرّقها.

يا دنيا مُنقَذةْ مُخلّصةْ

من إثم "سدومْ وعمورة"

غاوستين من "آرل"، القرن السابع عشر

وهنا سأقول بعض كلمات حول مهارة ديدالوس غير الطبيعية التي جعلت ممكنًا ما منعته الطبيعة. إذ صنع نموذجًا لبقرة من الخشب، وكساها بجلد أصلي، وأدخل في جوفها زوجة مينوس باسيفاي التي وقعت بشكل جنوني في حب الثور وانفجرت فيها الشهوة. وصنع ديدالوس البقرة متحركة على عجلات، واقتادها إلى المرتع حيث يرعى الثور كعادته. وكلنا نعرف بقية الأسطورة. وكما يخبرنا أبولودور: "جاء الثور وغطاها بجسده وكأنها كانت بقرة حقيقية. وأنجبت منه ناتجًا عن هذا الاقتران أستريوس المسمى مينوتور".

على الرغم من أن الأسطورة لا تقول شيئًا عن عاقبة سرية أخرى. إذ إننا لا ندري إن كانت البقرة الخشبية الكريتية أنجبت حصان طروادة؟ فهو كذلك مجوف من الداخل ومتحرك على عجلات، إلا أنه أكبر منها ويتسع جوفه لثلاثين محاربًا مسلحًا – ولم يُبنى بغرض الغواية، بل بغرض الدمار والغزو. بقرة تنجب حصانًا، امرأة تنجب ثورًا – إنسانًا – ديدالوس يُدخل

حصان طروادة في تأريخ أصل الأنواع. وبعد عدة آلاف من السنين، سيبصر النور في زمننا هذا وريثٌ جديدٌ، ليس له جسد خشبي، ولا أي جسد، ويسمونه "حصان طروادة" أو Trojan وهو فيروس حاسوبي خبيث، يتظاهر بأنه برنامج مفيد، يستكين ليوم أو يومين، ثم بعد ذلك ينفجر، ويمحو، ويفتح أبوابًا، ويدمر دفاعاتٍ، ويُدخل عيونًا غريبة في مدينتك، طروادة الافتراضية. وكل ذلك ينتج عن مهارة ديدالوس غير الطبيعية. بحيث نجده خارج قوانين الطبيعة ونظامها الذي أصرّ عليهما غاوستين الغامض من القرن السابع عشر:

لا يخطئ الرب، فثمةَ نظامْ

لا يسفدُ هناكَ

ذبابٌ وكبشٌ، ولا توليبٌ وسنديانْ.

اسطورة ولعبة

هل نفتح باب الحديث عن المينوتور والألعاب الإلكترونية؟ ادخلوا أيًا من الألعاب التي تكاثرت في السنوات الأخيرة. كليشيه وأدب كلاسيكي. حيث يشبه المينوتور في هذه الألعاب فتوةً في فيلم الدرجة الثانية، فهو مفتول العضلات، ذو رجلين قصيرتين، رقبته قصيرة وممتلئة، جسمه كثيف الشعر، وجهه مثل وجه المبيد شبه المنحرف وقرنين صغيرين سخيفين. بالإضافة إلى أننا نراه في بعض الألعاب يملك نابًا معقوفًا كالذي للخنزير البري. كأن لا ينقصه كل ذلك، بل زادوا أيضًا عليه بتهجين الثور والخنزير البري.

السادة المحترمون.. أوفيد، وورغيليوس، وسنكا، وفلوطرخس، ويوربيديس، ودانتي أليغيري صاحب "الجحيم" (وهاهنا أورد لقب

حضرتك)، تعالوا لتروا إلاما تتحول الميثولوجيا. انظروا إلى البطل الذي حقّرتموه. فقد جهدتم جهدكم الأقصى ليتخذ المينوتور شكله الحالي. والآن ابكوا، يا أسلاف اللاعبين من العصر الكلاسيكي القديم. ذات يوم يمكننا لعب شوط واحد، مجتمعين في وقت حقيقي. في وقت حقيقي ها - ها - ها... سنلعب لعبة "المينوتور في المتاهة"، أو "ووركرفت"، أو "إله الحرب"، أو ... لعبة أخرى من الألعاب ثلاثية الأبعاد. ولكن إذ ذاك لن يكون ثلاثي الأبعاد إلا المينوتور، ونحن معكم نكون ظلال ثنائية الأبعاد (لأننا سنكون في مملكة الظلال أليس كذلك؟). سنكون رسومات متحركة سيئة ذات ألوان باهتة منذ بداية عصر الديجيتال.

مادونا والمينوتور



طفل في حضن أمه، تلفه بيدها اليسرى، لعلها رضّعته قبل قليل والآن تنتظره كي يتجشأ. الطفل عارٍ. إنه مشهد إيقوني، ومعروف غاية المعرفة، فقد رأيناه مرارًا وتكرارًا في كل الصور بعد ولادة الطفل يسوع. ولكن هناك شيء مختلف يجعل الصورة فريدة من نوعها. الطفل ذو رأس ثور. له قرنان صغيران، وأذنان طويلتان متمددتان، وعينان في جانبيّ رأسه، وخطم. رأسه رأس عجل. باسيفاي والطفل المينوتور. قرونًا قبل مريم العذراء والطفل يسوع.

الصورة وحيدة وفريدة من نوعها. وتم العثور عليها قرب المدينة الإتروسكية القديمة Volci، التي تشمل اليوم منطقة توسكانا. وهذه الصورة يمكن رؤيتها اليوم في مجموعة مكتبة باريس الوطنية. جرؤ أحدهم على التذكير بالحقيقة البديهية، التي سرعان ما تنساها الأسطورة. الحقيقة أن الأمور هناك ليست متعلقة بوحش، بل بطفل رضيع حملته وولدته امرأة، وفي إثر ذلك سيتم سجنه في القبو. ومن المحتمل أن الملك مينوس كان في حاجة إلى بعض الوقت، إلى سنة أو سنتين ليقرر ماذا يفعل وكيف يخفي الطفل الموسوم عن عيون العالم. ولو تفرسنا في وجهي الأم والابن لوجدناهما قد عرفا ما الذي ينتظرهما.

لا ندري إن كانت تلك لحظة الفراق؟ فيدها اليسرى لم تعد تحتضن الطفل، بل تنفصل وتلوح مودعةً من خلف ظهره.

بعد ذلك ستحوّل الأسطورةُ الطفلَ إلى الوحش، كي يبرر ذنب تركه، كي يبرر ذنبنا حين نترك كل الأطفال فيما بعد.

غير مناسب للأطفال

من المدهش أن الميثولوجيا الإغريقية تفتقد حضور الأطفال.

لو قبلنا الفكرة أن العصر الكلاسيكي القديم عبارة عن فترة طفولة البشر، فلماذا تُحرم تلك الطفولة من الأطفال إلى هذه الدرجة الكبيرة؟ يبدو أن هناك، حيث يسلك الجميع سلوك الأطفال، لا أحد يريد الأطفال الحقيقيين. وإن وُجدوا، فغالبًا ما يأكلهم آباؤهم. ولو بقي هناك طفل غير مأكول، أكل هو أباه. وكان ذلك منذ أول الأزمنة، منذ زمن كرونوس وأولاده.

من الواضح أن الزمن دائمًا يأكل أولاده. ولكن الزمن موجود هناك

حيث يوجد الضوء كذلك، وتعاقب النور والظلام، والنهار والليل. مما يتبين أن المكان الوحيد الغائب عن عين الزمن هو الظلام الكامل في الكهف. حيث تم إخفاء الطفل زيوس. إنه المكان الوحيد الذي لا يحكمه كرونوس/ الزمن.

أُخفي المينوتور أيضًا في المتاهة المظلمة تحت الأرض. ولأن الزمن هناك لا يجري، بقي المينوتور طفلاً أبديًا.

في القبو وهو كهف المدينة الحديث، تم كذلك إقفالنا حيث كنا لمدة قليلة من الزمن مينوتورات وسط مطربانات الكومبوت والمخلل.

كانت لي عمة. ودائمًا عندما تأتي لزيارتنا، تخوفني قائلةً إنها ستأكلني. كانت ضخمة ودحدحة، كخلف من أخلاف سلالة الجبابرة. تقف فوقي وتنشر جناحيها ببراثنها المفترسة الملونة بطلاء الأظافر، وتكشر عن أنيابها بشكل مشؤوم، إذ يلمع سنّان من الفضة، وتقترب مني ببطء، وتخرج من داخل بطنها زمجرة عميقة. ألتوي ككرة وأصرخ، أما عمتي فتقهقه ضحكًا. لم يكن لديها أطفال، لعلها أكلتهم.

الأطفال المأكولون في الميثولوجيا الإغريقية

(كتالوج غير مكتمل)

في البداية طبعًا، أولاد كرونوس الذين ابتلعهم هو بنفسه: منهم هيستيا، ديميترا، هيرا، هاديس، بوسيدون. وحجرًا طويلاً مقمطًا بأقمطة كرضيع، بدل زيوس.

زيوس، الذي ابتلع زوجته ميتس لأنها تخفي داخل رحمها أثينا (التي لم تولد بعد، وهي لذلك في عداد المبتلَعين). وثم ستخرج أثينا من رأس زيوس بكامل عدّها وعتادها.

إيتيس (إيتيل). طفل الملك التراقي تيريوس، الذي تقتله أمه وعمته، والذي تم تقديمه أكلاً في وليمة دعت إليها بروكني زوجها تيريوس الغافل عن كل شيء. يروي أوفيد هذه الحكاية بكل تفاصيلها في الكتاب السادس من التحولات: الطفل الذي طوّق عنق القاتلة بذراعيه الصغيرتين، الضربة بالسيف، وثم "كانت نسمة الحياة لا تزال تجري في أعضائه، بينما كانتا معاً تقطّعانه إرباً إرباً، غلتا بعضها في آنيةٍ من البرونز، وبعضها شُكّ في سفافيد تلتهب فوق النار..." وفي النهاية "أكل تيريوس هذا الطّعام جالساً على عرشِ أسلافه العالي، وغيّبَ في جوفه لحمه الخاصّ".

وثمة المزيد ... حكاية الطفل بيلوبس وهو ابن تانتالوس. قطّعه أبوه إرباً إرباً، وطبخه أكلاً طيبًا، وقدمه للآلهة في وليمة. ولم يلمسه إلا ديميترا المكلومة، التي أكلت جزءًا من كتفه في غلبةِ غمّها وحزنها وتشتت ذهنها.

كما ويحتوي الكتالوج على تلك الحكاية الغامضة المتعلقة بملك أرض آركاديا الذي كان اسمه ليكاون، والذي قدّم حفيده آركاد للإله زيوس على مائدته ليختبره.

لن تجدوا في هذا الكتالوج الفتيان والفتيات الذين أكلهم المينوتور، فأنا شخصيًا لا أصدّق ذاك الجزء من الأسطورة. بالإضافة إلى أن الثور حيوان عشبي.

تذييل

هناك صدى حكاية غريبة في الأزمنة الحديثة:

صينية فرن عادية وكبيرة، ومن كثرة الاستعمال لها آثار لا تمحى. الرز مغسول، مسبّك قليلاً، وبين بياضه – حبات فلفل أسود. يُظهر بوضوح أن الموقد مشتعل، وباب الفرن مفتوح ويدين تحملان الطبق إلى جوف الفرن. هناك يجب أن ندقق في بعض التفاصيل فقط – ما على الرز ليس ديكًا روميًّا ولا دجاجةً، بل طفل رضيع عارٍ كما ولدته أمه وهو حي. أكاد أقول وهو نيء. الرضيع مستلقٍ على ظهره مرفوع الذراعين وقدميه في الهواء. يبدو أن عمره لا يتجاوز عدة شهور ووزنه يعادل تقريبًا وزن الديك الرومي المتوسط.

أملك هذه الصورة (بالأسود والأبيض) وحكايتها، واشتريت كلتيهما. كادت المرأة التي استلمت هذه الصورة عن طريق البريد أن يُغمى عليها. "ألف مبروك قدوم حفيدك. إنه حلو أليس كذلك!" أرسلت ابنتها من كندا هذه الصورة وهي الصورة الأولى لطفلها الذي انتظرت قدومه وقتًا طويلاً. في صغرها كان أفراد عائلتها يمازحونها قائلين: "كم أنتِ حلوة، سآكلك مع الرز، مع الرز..." تلك هي عبارة خاصة تتداولها أسرتها. والآن، بعد سنوات، قررت البنت أن تعطي ذاك المزاح شكلاً واقعيًا.

إنها أسطورة مجرَّدة من العظام نالها من التهكم ما نالها، لكنها ما زالت رهيبة.

صوت المينوتور

تُعطى الكلمة للمُتَّهَم.

صمت.

هل يريد المتهم الدفاع عن نفسه، أم يفضل السكوت؟

لن نسمع صوت المينوتور أبدًا ولا في كتاب واحد من الكتب الكلاسيكية القديمة. فهو لا يتحدث، بل يتحدث عنه الآخرون. هناك حيث كل كائن حي وغير حي لا يتوقف عن الكلام، حيث تعجُّ الكلاسيكية القديمة بأصوات الآلهة والبشر الزائلين، أصوات حوريات الغابة والأبطال، أصوات رجال دهاة مثل أوديسيوس، وسُذَّج مثل سايكلوب، وحتى القنطور الحقير له حق في الكلام، ولا يصمت هناك سوى واحد. إنه المينوتور. لا صوت وحرف، لا تَبَرُّم وتَوَعُّد، لا شيء في أي كتاب. ولا كلمة واحدة في أبيات على الوزن السداسي عشري لهوميروس، ذاك المينوتور بين الشعراء، الذي يجول متاهة التأريخ في ليالي عماه الطويلة. ولا في أعمال الطريد أوفيد الذي يعرف مصير المنفيّ، لا ورغيليوس، ولا بلينيوس الأكبر، ولا إسخيلوس، ولا يوربيديس ولا سوفوكلوس. لا أحد يعطي كلمة للمينوتور. من السهل عليك أن تُشفق على إيكاروس، من السهل أن تكون في جانب ثيسيوس، وأريادني المخدوعة، وحتى في جانب مينوس العجوز... ولكن لا أحد يشفق على المينوتور.

هل يريد المتهم الكلام، وإلا ...

يريد. أهو غير مستحق للشعر على الوزن السداسي عشري، الذي يتغنى بالأبطال؟

مرافعة المينوتور دفاعًا عن نفسه

(مقطوعة)

عدة كلمات إليك أدحرجها منذ زمن

في الليلة الطويلة، يا أيها الملك مينوس

"أبي" هي الكلمة التي ترقد تحت لساني،

أعرف أنك تتقزز لذلك أبتلعها

ها هي الحقيقة وهي أرهب مما تريدها

إني مسخ من صلبك ودمك لا من خيانة

أشبه جدي وهو أبوك، فأنا حفيد وابن،

يا أبي، أبوك هو الثور الأول في الأسرةْ

لا تنس أنه خطف جدتي، أمك المسماة أوروبا

إذ أنني أشبه جدي الإله زيوس

قبل خروجه من صورة الثور

أشبه جدي كوقع الحافر على الحافر،

أخذت عنه صورة الثور

كما توشوش هنا جدات جزيرة كريت

كان إلهًا وكنتُ مسخًا لا فرق هنا

صدقني يا مينوس، يا أبي، يا أنت الذي

أردت ثيرانًا بيضاء سمينة

والآن تشمئز من عِجلها

مينوس: أرفع الجلسة...

مووووو...

أخرجوا المدعى عليه ...

موووووو...

وو
ووو

وو
ووو ووووووووووووووو
وو
ووووووووووووووووووووو

الفصل الثالث

البيت الأصفر

معزل

بناية متهدمة صفراء اللون، بعيدة عن البيوت الأخيرة في ضواحي المدينة، عريضة ومنخفضة، النوافذ تغلقها قضبان، السياج محاط بأسلاك شائكة. إنه المعزل للأشخاص المصابين بالأمراض العقلية، كما كان اسمه الرسمي، إلا أن أهل هذه المدينة المنسية في الجنوب الشرقي من البلاد سمّوه "مستشفى المجانين". كان يُحكى أن الكهرباء تُشغّل ليلاً في السياج، وقد صعق عدة أشخاص. كنت أخاف وفي نفس الوقت، الخوف ذاته يجعلني أمرّ بجوار هذه البناية.

ذات ليلة، بينما أنا أسير بجوارها، سمعت عواءً رهيبًا. كان في هذا الجؤار أو الخوار شيء مفرط، فاحش وغير إنساني، شيء يأتي من أجواف الليل، عُوووووووووو... هذه العُوووووو اللانهائية تشقّ أسْرَبا في هدوء أمسية نوفمبر الباكرة. كان يوم أحد. الأوراق المتساقطة تغطي كل الشارع، حاملة رائحة العفن والأسيتون، رائحة ما زالت ضعيفة تفوح من جثة الخريف. وحده المصباح في البوابة يبدد الضوء في غسق الليل الرطب.

لقد مضى المرض، كذلك لم يكن هناك رئيس الأطباء، الذي يأتي مرة في الأسبوع فقط، وأما البواب فهو بالتأكيد قد سكر ونام في غرفة الطبيب. وهذا، على ما يبدو، ما أنقذ المريض الذي يصرخ وإلا كان سوف يتلقى العقوبة التقليدية: الحمام البارد. يُحكى أنهم يرشون المرضى بخرطوم المياه بالحديقة عبر قضبان النوافذ مباشرة في الغرفة (بل الزنزانة هي الكلمة الأدق)، ويفعلون ذلك كإجراء علاجيّ طبيعي "لإركاد عفاريت المرضى".

استسلم رئيس الأطباء منذ زمن لأوضاعه الحالية، وقد قَبِل أن حياته المهنية ستنتهي هناك في تلك المدينة المنسية، بحيث لا تخوّفه التحقيقات والعقوبات. وكان مثل رجل وقع في جهنم وقد تيقّن ألّا حالَ أسوأ مما هو فيه.

كنت أطوف حول البيت الأصفر في مساء الأحد، وممرات ذاك العواء المظلمة تمتصني أكثر فأكثر. أخاف أن أدخلها، لأنه كائنًا ما كان هناك، لن تتحمله عين الإنسان وأذنه. لكن جسدي ظل يدور بلا وعي، حتى شعرت بأني أخرج من نفسي. بعد قليل سأدخل ممرات الصراخ، سأنزلق على جليدها، سأنتقل إلى جسم الصارخ.

لحظتها يد تقبض على كتفي بشدة، أرتعش، وأعود من جديد إلى نفسي، كما يختفي الحلزون داخل قوقعته. إنه أبي.

نحن الاثنان لا نستطيع إخفاء علامات المفاجأة على وجهينا. فلا علاقة لنا بهذا المكان. ولا أحد يسأل الآخر ماذا يفعل هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل. نتجه إلى المدينة صامتين ونستغرق في أمسية نوفمبر بعيدًا عن ذاك الصراخ.

كنت أعرف أنني لن أتخلص أبدًا من نفق هذه العووووو. سيقتفي العواء أثري في كل السنوات اللاحقة بمواظبته المختلفة. سيرتفع ويخفت في الأوضاع غير المتوقعة. سيسكت أحيانًا، وسأفقده في أسعد لحظاتي، بين ثرثرة الناس الغالبة عليه في سهراتي الفرحة... ولكنه بعد أن ساد الصمت فيما بعد، سيعود للظهور من جديد. وبعد عشر سنوات، عندما أصابتني تلك الضوضاء المستمرة في الأذن، قد عرفت أن ذلك الأمر الباكي- الجائر- العاوي استقر هناك، في الجزء الأعمق، في كهف جمجمتي، ووراء طبلة الأذن، المطرقة، والسندان، في المتاهة نفسها للأذن الداخلي، كما قال الأطباء.

بعد فترة طويلة، وأنا طالب في الجامعة سأجرؤ على إخبار أحد أصدقائي الذي كان طبيبًا، بحالة «التقمص» تلك التي تصيبني أيام طفولتي. فكر الطبيب وقتًا طويلاً، وفي النهاية تمكن من تشخيص مرضي النادر، لعله اخترعه لحظتها، وعرّفه بتلك الكلمات تقريبًا: إنه التقمص الوجداني الباثولوجي أو المتلازمة البدنية التقمصية الوسواسية. قال إنه مرض نادر جدًا وليس له علاج، ولكنه يبلغ أوج قوته في مرحلة الطفولة. وبمرور السنين يصبح من الممكن أن تتغلب على الأزمات بشكل أسهل، إذ ظهرت أعراض المرض من جديد واستمرت، لكنها قد فقدت قوتها السابقة. وأضاف الطبيب قائلاً: كما هو الحال في مرض الصرع، فلا نعرف أبدًا أين يسكع الإنسان أثناء النوبة.

في حالتي لم تصل الأمور إلى النوبات، كان جسمي يبقى هادئًا تمامًا، متجمدًا قليلاً كرجل حائم في أفكاره أو مستمع إلى حكاية فلان. كنت أقف دون أن أرمش، وتتوقف حدقتي عن التحرك، ويبقى فمي شبه مفتوح، وأتنفس بشكل أوتوماتيكي دون وعي مني، بينما أنا (جزء مني) أنتقل إلى حكاية غريبة وجسد غريب.

تقبّلتُ حالتي وقد وتملكني مزيج من الخوف والذنب الغامض واللذة. بذلت الجهد الكبير لأخفي، قدر ما أستطيع، هذه القدرة أو هذا المرض. وحدها جدتي تتمكن دائمًا من أن تعرف وتقول: "ها هو فقد حضوره من جديد".

يحصل ذلك مرارًا وتكرارًا رغم إرادتي. وبينما يشعر الغير بالألم، في هذا الجرح، في هذا القطع، في نقطة الالتهاب هذه، كأن هناك دهليز ينشق ويمتصني في داخله. في الحكايات ولا سيما في حكايات أقاربي، كان هناك

دائمًا بقعة عمياء، فتحة خاطفة، نقطة ضعف، حزن عويص، اشتياق إلى شيء مفقود أو غير محقق أبدًا وهو الذي يجرني إلى الداخل في الممرات المظلمة للحكايات غير المروية. وكانت في كل القصة تكمن مثل هذه الأنفاق والممرات السرية.

وكي يطمئن الطبيب، طلب مني أن أخضع لتصوير الرنين المغناطيسي النووي، تلك الكبسولة البيضاء الضخمة، التي يتم فيها تقطيع دماغك على شكل شرائح رقيقة، والتوغل في كل أسراره. "لا تقلق وفكرْ في أشياء جميلة"، قالت الممرضة...

وبعد ساعتين، دخلت مكتب الأطباء الذين كانوا يحلّلون نتائج التصوير، وشعرت من بعيد بأنهم لا يستطيعون إخفاء ارتباكهم. قالوا إن التصوير ليس ناجحًا. من المحتمل أن يكون السبب هو أن الجهاز قديم. قالوا إنه في الحقيقة يحصل لأول مرة، وإنهم لا يرون إلا لوح تصوير أسود قاتم. الأمر الذي لم يفاجئني. أعرف أن لا شيء يُرى، لأن في داخلي ظلامًا لا يمكن إضاءته، ظلامًا يتراكم مدة قرون. جمجمتي كهف. طبعًا لم أقل هذا لهم.

أحيانًا – في آن واحد – أنا ديناصور، سمكة، خفاش، طير، كائن حي وحيد الخلية، الذي يسبح في مرقة أولية، جنين ثدييات، أحيانًا أسكن كهفًا، أحيانًا أسكن رحمًا وهو الشيء نفسه – مكان للحماية (من الزمان).

ممر جانبي

إن الميل إلى التقمص الوجداني يبلغ أوج قوته في السن ما بين السابعة والثانية عشرة.

وتعتمد الدراسات الحديثة على ما يسمى الخلايا العصبية المرآتية الواقعة في الجزء الأمامي من القشرة المخية (insula). والأمر ببساطة هو أن لو شعر الإنسان بالألم، أو الحزن، أو السعادة، أو شاهد إنسانًا آخر يشعر بنفس الانفعالات، عندها تتنشط هذه الخلايا، بحيث تنقل الأحاسيس من عقل إنسان إلى آخر. وهذه القدرة على التقمص الوجداني تملكها كذلك بعض الحيوانات. إن علاقة الخلايا العصبية المرآتية بإمكانية الإحساس بما يحس به الآخرون أو تفهم مشاعرهم لم تناقشها البحوث بالتفاصيل بعد، لكنها قيد التجربة. ويؤكد الباحثون بأن تربية التقمص الوجداني الواعية بما فيها عن طريق قراءة الروايات (أُنظرْ S. Keen)، سيسهّل التخاطب بين الناس وينقذنا في المستقبل من النوازل في العالم.

من مجلة "المجتمع والقشرة المخية"

أخي المينوتور

ولكن لماذا يحوم أبي حول البيت الأصفر في تلك الليلة. الحقيقة أن هذا أمر يتطلبه عمله – وهو يذهب إلى حيث يستدعونه. فكل أهل المدينة تقريبًا يربون الحيوانات الداجنة في ساحات بيوتهم. ولكن عما يبحث طبيب بيطري في مستشفى المرضى النفسيين. لابد أنه أتى من هناك بالضبط، وإلا فمن أين يمكن أن يظهر في هذا الخلاء؟

فجأة رأيت في رأسي الصورة كلها بوضوح مذهل. أقول "فجأة"، على

الرغم من أنني، على مدى ليالٍ، قمت بتركيب القطع الصغيرة من أحجية الصورة المقطوعة هذه، مستعملاً دقة الأطفال وتعنت خيالهم. والآن يتم تجميع كل القطع في داخلي بتلك الدرجة من السهولة التي تخوفني.

هذا العواء اللاإنساني كان فعلاً عواءً يأتي من غير إنسان، ولم يكن عُووو، بل مُوووو. ويخرج من أحشاء شبه إنسان - شبه ثور، تم سجنه في المستشفى. (قد رأيت مثل ذلك الفتى في ذكرى جدي السرية). فشل الطبيب الإنساني في علاج الإنسان، لذلك قرروا علاج الثور. وبالطبع استدعوا أبي وهو أفضل بيطري في المدينة (وكذلك الوحيد).

كما واخترعتُ نظرية ثانية أكثر سوداويةً، فكرت فيها بالتفاصيل في وحدة أوقات العصر الطفولية. وهي تعتمد على الفكرة، أن هذا الولد شبه الإنسان - شبه الثور ليس فتى غريبًا، بل هو "أخي الذي ولد ميتًا"، والذي تنتشر الإشاعات عنه. في الحقيقة هو وُلد حيًا ولكن برأس ثور، فوضعوه في المصح. تبرؤوا منه. عن حسن نية. كي لا يعيق أخاه السليم. أتذكر أنني سجلت كل هذا بخطي الخفي (أي السري المجمجم) وطويت الورقة من الدفتر في لفة ودسستها في علبتي السرية تحت السرير.

ولعلني لست من صلبهما، وفي الحقيقة أنهما تبنياني يائسين من إنجاب أولادٍ لهم رؤوس الثيران؟ إذا كان الأمر هكذا، فليس من الصعب أن يتبرؤوا مني من جديد. أن يتبرؤوا مني ومن أخي المينوتور من جديد.

أتذكر أنني في الأيام التالية كرست وقتي لإيجاد فتحة ما، باب مفتوح قليلاً، كي أدخل مغارة هذا السر. كنت أسأل أبي بحذر عن الأمراض التي تصيب البقر وأتجاهل أنها أسئلة غير إرادية. سألته إذا كان رأى التوائم

السيامية بين العجول وما هو القرار في هذه الحال. هل يتم قتل أحد العجلين من أجل إنقاذ الآخر؟ جاوبني والدي وهو شارد البال. رغم أنه مرةً بدأ يروي لي حكاية بقرة وضعت عجلاً في ذروة عيد رأس السنة، واستمرت آلام الولادة أربع عشرة ساعة، وكان في طفولته و... لم أسمع بقية القصة، تسللت إلى الدهليز الذي فتحته الحكاية. وقفت في بدايتها، فالدخول في أسرار الآباء ليس من بين الأمور المسموحة بها. كان هناك شيء قبيح وغير طبيعي، فيمكنك رؤية أشياء لا تريدها. ظللت أسمع صوت أبي، الذي يروي الحكاية غارقًا فيها، وكان لدي فرصة العودة إلى الوراء. لكن قلت في نفسي إني أقوم بذلك للمرة الأولى والأخيرة. وواصلت الطريق، وانعطفت بسرعة إلى دهليز جانبي من حكايته، التي لم تعد تهمني، وهمد صوته ورائي. كنت أمشي دون اتجاه في طفولة أبي، يا له من طفل يشبهني، ضعيف، ملابسه فضفاضة لا تناسب حجمه، لعلها مستعملة، ها هنا أبي يسرق بيضات من تحت الدجاجة، بيضات أحسها ما زالت دافئة، جدتي وهي أمه (والآن أمي أنا كذلك) تراني، فأركض مع البيضات نحو المحل، لو تمكنت من بيعها لصاحب المحل الجد أنغيل، لحصلت على حلوى مقابل كل بيضة. أركض، وأركض، وأدخل المحل، والحمد لله، ليس هناك زبائن آخرون. وأكاد ألفظ لاهثًا: "يا جدي أنغيل، خذ ثلاث بيضات مقابل الحلوى"، ينظر إلي، "أتدري أمك؟"، "نعم، هي التي أرسلتني"، يأخذ البيضات، يرفعها تجاه ضوء الشمس، "أووو، هذه البيضات مسروقة!"، آآآ، كيف عرف هذا؟ يعيدها، إذ ذاك أرى أمي في نهاية الشارع وهي تقترب، أقبض على البيضات، أضعها في جيبي وأركض مهرولاً من جديد، لكنني أنزلق في الدرج المهدم وأسقط. ويضحك الجد أنغيل قائلاً: "انتبه للبيض". وأحس الصفار يغمر أربيتي.

أهجر هذا الحدث قبل أن أتلقى العقوبة، أنعطف صوب دهليز آخر، مغيرًا الاتجاه. أقول في نفسي، إنني لن أدير بالاً لأشياء لا تهمني. في اللحظة الأخيرة أبتعد عن فتاة يقبّلها أبي، أقبّلها أنا، وراء السياج الحجري للبيت. الفتاة جميلة، لكنها لن تصبح أمي. وهو جميل أيضًا. وأنا أيضًا جميل، طالما أنا أبي. طويل القامة، أجعد الشعر، أحس بنظرات النساء اللواتي يمررن إلى جانبي. تلك تشبه امرأة أجنبية. تلك أعرفها من مكان ما. تلك ... ها هي أمي. هنا يكمن حل اللغز الذي دخلت من أجله. يجب الانعطاف نحو أحد الدهاليز والمشاهدة منه، لكنني أبقى مجمدًا في مكاني لا أستطيع التحرك. أمي تشعر بآلام. إنه ألم عنيف ولا أستطيع أن أبقى مكتوف الأيدي، ويمتصني الألم. شيء حي يتمزق... أنا أمزّقها... وأخيرًا صوت بكاء طفل، صوت البكاء هذا يخرج من أحشائي، أنا هو أنا، أنا الآن قطعة اللحم المتجعد المبلل المزرقّ تلك. أنا مرمي، أغص بالماء، ويرتجف كل جسدي.

هناك شيء يزلزلني بعنف ويقتادني إلى الوراء نحو الدهاليز المظلمة نور، وجه أبي... ماذا يجري ... ماذا يجري... أحاول إيقاظك منذ عشر دقائق...

أحس نفسي منهكًا كأنني عائد من سفر طويل... بابا، كل شيء على ما يرام، أنا هنا... أمي هي التي ولدتني، يا لها من أعجوبة.

أخرجني أبي قبل أن أرى إن كان هناك آخر، إن كان آخر قدم بعد قدومي. وقد بقي لدي الارتياب في أنني لم أكن وحيدًا هناك في تلك المغارة.

إني من صلب أبي ودمه، وولدتني أمي بنفسها، ولكن ذلك لا يقلل الشعور بأنني مينوتور. ظللت أقضي الأيام الطويلة في الوحدة، جالسًا على

النافذة، متصفحًا أحد الكتب.

صفار

في عهد الاشتراكية، كان الأطفال غير مرئين مثل أطفال العصر الكلاسيكي القديم. كان صغارًا يعيقون كبارًا. تم إعدادهم لمواجهة صعوبات الحياة، التي لم يكونوا جزءًا منها.

اذهب إلى القبو لتجلب الخيار المخلل! هيا في الغرفة الأخرى لتلعبوا، لأننا نتكلم مع الضيوف! اخرج من هنا، لأنني مشغولة الآن! وإلا ستدخل "مصنع الصفعات"...

الأبوية والتصنيع.

في شهور الصيف الثلاثة بين أيدي الجدات في القرية تحت الشمس والهواء النقي، لتقوية الجسم، لشرب حليب الغنم، لأكل البيض النيء. تأخذ البيضة وهي ما زالت دافئة من تحت الدجاجة، تنشفها جدتك بالمنديل، تثقب ثقبًا صغيرًا بإبرة كبيرة، تنثر رشّة من الملح وأنت تمص بقوة من ثقب البيضة أمام عيني الجدة الحنون. وهي تقول: اشرب، اشرب، بيضة واحدة تعادل حقنة واحدة. هذا ما قاله قبل ثلاثين عامًا أحد الأطباء الكبار الذي مر على القرية ومكث هنا ليلة واحدة. وقال: اعلموا مني أن بيضة واحدة تعادل حقنة واحدة.

بعد سنوات سأعرف أن هذه النظرية المتعلقة "بالهواء النقي والشمس"، اعتمدوا عليها في تربية الأطفال الألمان أثناء فترة الثلاثينيات، كي يترعرعوا أصحاء ومقاتلين أشداء. هل أطعموهم البيض النيء؟

في قيلولة الأيام الصيفية، بينما أعيد قراءة الأساطير الإغريقية القديمة في ذلك الكتاب المهترئ، اكتشفت التالي. تبين أن الإله زيوس يشبهنا تمامًا كما

كنا في أواخر السبعينيات. فهو طفل تم إرساله إلى أعماق الريف، لتربيه جدته جايا (وليكون بعيدًا عن أبيه)، ليشرب حليب الماعز (طبعا ماعزته كانت من أصل الآلهة)، ولكي ينمو سليمًا.

لن أنسَ أبدًا الحليب الدافئ، الحليب المحلوب توّا من النعجة البسيطة الزائلة، وفيه بعض البعر اللامع الذي أبعده إلى جانب رغوة الحليب. لا يمكن الوصول إلى الخلود إلا في الطفولة. ربما بسبب ذاك الحليب وذاك البيض النيء.

ومع هذا فهناك علامات خوف بطيء جدًا. أنا طفل التبرؤ. تركوني، رجعوا إلى المدينة، غابوا.

أم الفاصوليا

كانت أم الفاصوليا ذات جسم أخضر، وحبتَي فاصوليا مكان عينيها. كنا نخاف منها كثيرًا. ولو رأتنا جدتي بين نباتات الحديقة، نادتنا صائحةً: لا تدخلوا أحواض الفاصوليا، وإلا طاردتكم أم الفاصوليا. وعلى الرغم من أننا لم نرها قط، إلا أننا كنا على حذر منها، وتحاشينا الاقتراب من أحواض الفاصوليا.

أما حقل العنب، فسكنته أم الكروم لتحمي أولادها. لذلك لم نجرؤ على دك أقدامنا بين صفوف الكروم وقطف العنب بعشوائية.

مرةً رأتنا جدتي ونحن نرتكب إبادة جماعية حقيقية على نملات حمراء تعبر البلاط الإسمنتي في حوش الدار، حيث سمعنا لأول مرة عن وجود أم النمل التي كانت كبيرة بقوارصها الحادة.

كلٍ كان له أمه، إلا نحن، لم يكن لدينا سوى جداتنا.

في السبعينيات. كانت أمهاتنا شابات، يدرسن في الجامعة ▯ العام الأول، الثاني، الثالث، يعملن في المصانع ▯ الوردية الأولى، الثانية، الثالثة. ونحن في الشقق الفارغة، والطوابق السفلية، والأقبية، تائهين ما بين الملل والخوف، هائمين في القلق الغامض، متروكين وشأننا. هل توجد متلازمة المينوتور؟

لم أملك سمكة، ولا قطة، ولا سلحفاة أو ببغاء، لأنه "هذا ما ينقصنا فقط"، كما تقول أمي بمنطقية. فضلاً عن ذلك، كنا نتنقل من شقة لأخرى في انتظار اليوم العظيم الذي نحصل فيه على مفتاح شقتنا الخاصة. إذ لم يكن لدي إلا الكلبة لايكا التي تعوي روحها الشاردة في الفضاء حول الأرض، وكذلك أخي المينوتور. كانا يعيشان سرًا إلى جانبي، في مساحة سكني، التي تعادل 5 أمتار مربعة، غائبين عن عيون أمي، وأبي، وأصحاب شقتنا.

تأريخ الثمانينيات الخاص

وثم...

يجب كتابة تأريخ الملل في الثمانينيات. إنه العقد الذي أنتج أكبر كمية من الملل. والديسكو. إنه وقت عصر القرن.

كنت في السادسة، عندما سمعت كلمة "ملل" لأول مرة، وشعرت بحيرة، إذ لم أعرف معناها. لعلك تملّ وحيدًا كل النهار؟ سألتني إحدى جارتنا، العمة بيبا. تخيلتُ الملل مثل ما يشبه المرض الخفيف، والرشح، والزكام، والشعور بالضعف، أو الحساسية من زغب شجر الحور. لذا

جاوبتها بشكل غامض: لا، كل شيء على ما يرام، أنا بخير. فالمكان الذي جئت منه، لم يعرف أهله الملل، لم يستخدموه. كانوا دائمًا مشغولين، وكذلك الحيوانات الأليفة لم تسمح بتسلل الملل، فما أن تنمو أعشاب الملل، حتى ترعاها. لكن هنا، في مدينة ت.، كان الملل ينبت في كل مكان. كان يعلو مثل عكة راعشة فوق الأسفلت المحرق، ويهرف جدران البيوت الباهتة المغطاة بحجر المُغْرَة، وينوّم بائع بزر دوار الشمس تحت ظلال الحديقة، ويهر مثل القطة، أو يثير عطاس العم كوستا المدوّي من البيت المقابل.

كتالوج المجموعات

مناديل ورقية

علب سجائر فارغة

علب كبريت

شارات وطوابع

روزنامات جيب

بطاقات "غمازة"

أغلفة من ورق عادي ومفضض لسكاكر الشوكولاتة المستوردة

أغلفة من ورق عادي ومفضض للشوكولاتة

صور من أغلفة العلكة (بدون العلكة)

علب فارغة من البراندي اليونانية "ميتاكسا"

قنينات فارغة من الويسكي، والكونياك، والكامباري...

يتبين بوضوح أن عناصر هذه المجموعة مهجورة، وفارغة، ومستعملة. هناك من دخن السجائر من علبة المارلبورو الحمراء وعلبة الروثمان الزرقاء، بعدها أكل سكاكر الشوكولاتة المستوردة، وعلك العلكة، وشرب البراندي ميتاكسا. ولم يبقَ لدينا إلا عدة قنينات، وعلب، وأغلفة. إننا جمّاعو الخلاءات والمهجورات.

ها هو جهازي الأول هيتاشي لتسجيل الكاسيت الصوتي، الذي اشتريناه من رجل فيتنامي مقابل الحمار القديم الذي ملكه جدي. كان جدي مؤمنًا حتى النهاية أن هذه المقايضة تشبه مقايضة الحصان بالدجاجة. مقايضة حصان الحمار بدجاجة جهاز التسجيل.

كُتُبُنا في التأريخ والأدب ▯ كنا نستمتع بزخرفة الصور المعروفة فيها. شوارب وعين القراصنة على رأس الأمين العام للحزب الشيوعي العاري المستدير مثل بيضة. أما على وجه البطل والشاعر بوتيف، اغفر لنا يا رب الأدب، كنت أرسم نظارة مستديرة، كنظارة جون لينون، فتحول بوتيف المخيف إلى هيبي حائر مُلتحٍ، هيبي الثورات البلغارية التي بالمبدأ كانت دائما غير ناجحة.

كان العالم بسيطًا ومنظمًا، كان منظمًا ببساطة. في الأربعاء – سمك، في الجمعة – تلفزيون روسي.

في أفلام الويسترن المنتجة في ألمانيا الشرقية كان الهنود الحمر من بين

جماعة الأخيار، وبالأحرى كانوا البروليتاريا، أو "الحمر".

دليل التلفزيون ليوم الإثنين، 18 نوفمبر، 1973 أو 1983 (لا أرى السنة بوضوح في قصاصة الجريدة):

17.30 – مناقشة حول قرارات الاجتماع العام الذي تم إجراؤه في يوليه للجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري. 18.00 - أخبار، 18.10 - لطلائع الأطفال: "الطبلة"، 18.30 – فيلم "أولاد السيرك"، 19.00 – "جميل ومريح" - برنامج اقتصادي، 19.20– للجيش الشعبي: "الأغنية في المسير العسكري" - حفلة موسيقية، 19.40 – إعلانات، 19.45 – أغنية الشهر، 19.50 – تصبحون على خير يا أطفال!، 20.00 - في بلادنا والعالم - حلقة الأخبار، 20.20 – الرياضة، 20.30 – مسرح تلفزيوني: "ذكرى عيد الزواج" – تأليف "بيجي كراسيتسكي"، 21.40 – الفائزون بجوائز المسابقات الموسيقية العالمية. 22.00 - أخبار.

لا أعرف لماذا، ولكن هذا البرنامج يغمرني دائما بالحزن. الأخبار الأخيرة في العاشرة، ثم لا شيء. لا يُسمع إلا ... ش ش ش ش ش ش ش ش وندف الثلج على الشاشة بعد النشيد الوطني.

ها هو الكيس الأخضر من قماش الشراع لقناع مضاد للغاز، مملوء بالخوف المنهك من القنبلة النووية والقنبلة النيوترونية، بالخوف من صافرات الإنذار من الغارات الجوية عندما اختبروها. أتذكر مخبأ الحماية من القنابل تحت صالة الرياضة بالمدرسة، حيث كنا نختفي مرة في الشهر بعد إطلاق

صافرات الإنذار. أتذكر كيف نتنفس لاهثين في الظلام، المولِّد الكهربائي لم ينطلق قط، أتذكر الفوضى، ورائحة العرق والخوف، وبعدها تباهي أحد زملائي أنه "قَنْبَلَ" (وهذا بلغة ذاك الزمن، رحم الإله غبارها) في الظلام، أي مسك معلمة الكيمياء من نهديها – عن طريق الخطأ طبعًا، كان هدفه فتاة أخرى.

أثناء تدريبات التعليم العسكري، عندما كنتُ ألبس القناع المضاد للغاز لمدة 17 ثانية، كان الضابط يصرخ: "انتهى، انتهى! أنت ميت..." ويدفع الكرونومتر إلى عيني.

ليس من السهل أن تعيش ثلاثين عامًا بعد موتك...

نهاية تدريبنا تزامنت مع نهاية ما تدربنا من أجله.

المسألة الجنسية

هل كان الجنس موجودًا في عصر الاشتراكية؟ وهل كانت الاشتراكية موجودة في الجنس؟ في بداية مؤلفات النضج الإيروتيكي، كان لدينا كتاب عنوانه "علاقات جنسية بين الذكر والأنثى"، مترجم من الألمانية، وكان هو الكتاب الأكثر انتشارًا خفيةً بين الناس في ذاك الوقت، وكان دائمًا مخبأ بعناية في الرف الخلفي الأعلى من المكتبة. وذات مرة، اختفى.

من أخذ ذاك الكتاب؟

أي كتاب؟

تعرف أي كتاب.

كلنا قرأناه سرًا خفية عن بعضنا البعض. وبالنسبة لنا، كان في آن واحد دليلاً عمليًا، وطبيبًا نفسيًا جنسيًا، وأدبًا إيروتيكيًا.

وهكذا اكتشفنا الجنس أولاً من باب الخطاب الطبي. إن ممارسة العادة السرية (قرأنا هناك) تضر الصحة، كما وتضرها ممارسة الجنس بدون حب... لكن الحقيقة هي أن الحب بدون جنس لم يقلّ عنه عذابًا.

من كتالوج المشاهد الإيروتيكية المهمة

"وها هي الآن تصعد السلم جريًا لتلتقي بسوني. انتشرت الشهوة فجأة في جسدها بعنف. وحتى قبل أن تصل إلى فسحة السلم، قبض سوني على يدها وقادها إلى غرفة خالية كانت تفضي إلى طرف الرواق. وحين انغلق الباب خلفهما أحست لوسي بساقيها تخوران. والتصقت شفتا سوني بشفتيها، وكان لهما مذاق مر كطعم التبغ المحروق. وفتحت لوسي فمها، وإذ ذاك أحست بيد سوني تصعد بين ساقيها تحت ثوبها الوردي، ثوب وصيفة الشرف، وسمعت حفيف الحرير المدعوك. وكانت يد سوني تنتزع سروالها، يد سوني الضخمة الملتهبة تداعبها. وعقدت ذراعيها حول عنق سوني وظلت متعلقة به بينما كان يفك أزراره. وضع كلتا يديه تحت فخذي لوسي العاريين ورفعها عن الأرض. رفعت ساقيها إلى الأمام فانغلق فخذاها على فخذي سوني. واندس لسان سوني في فم لوسي التي مصته. ونفض سوني صلبه نفضة وحشية، فصدم رأس لوسي الباب بعنف. وإذ ذاك أحست شيئًا محرقًا ينزلق بين فخذيها. وانفصلت يدها اليمنى عن عنق سوني وهبطت على جسمه لترشده، ثم انغلقت على عمود اللحم الهائل المفعم بالدم. وكان

ذلك يتحرك، يخفق في يدها كأنه حيوان. وكان العرفان والنشوة ينتزعان منها الدموع تقريبا..."

تلك هي الصفحة الأسطورية من كتاب "العراب" لماريو بوزو، والتي مثلت وحي جيل كامل وتعميده في نيران الجنس. نسختُها باليد مثل معظم أقراني، وكان من بينهم شجعان قطعوها بشفرة حلاقة مباشرة من الكتاب.

كان الجنس يشبه الأكروباتات المعقدة. تشمل حركات القفز، والالتقاط، والرفع، والنفض بإحدى اليدين، وباللسان، ثم باليد الأخرى... لن أتعلمها أبدًا. على الرغم من أن معرفة حركات الجسم هذه، منحتنا الاعتزاز بذاتنا، فكنا مثل من أودعه السر. وعلى الأقل عرفت من الناحية النظرية ما يجب القيام به، للوصول إلى تلك «النشوة»...

أما الكتاب الآخر فكان رواية فرنسية. وبعكس المشهد الصامت من العراب، عثرنا هنا على المزيد من الكلمات، والآهات، والحروف المتقطّعة... مما عرفنا، أنه يمكن الكلام خلال ممارسة الجنس. "Bel Ami" للكاتب الفرنسي غي دي موباسان. "أهيم بك عشقًا، يا صغيرتي ماد... لا، لا، أرجوك ... رعشة سريعة ... جماع عنيف وسريع..."

وهنا يمكننا إضافة القصص الجنسية السرية، التي تم طبعها بآلة سيكلوستيل، والتي انتشرت الإشاعات أنها من بين أعمال أونوريه دي بلزاك، ويدور الحديث فيها حول السفد (كانت هذه هي الكلمة بالضبط) بين امرأة وحيوان (ما يشبه علاقة باسيفاي بالثور)، لم أعد أتذكر جيدًا، لكن

العلاقة هنا كانت علاقة امرأة بكلب أو دب.

...

ورغم ندرة المصادر، كنا نكشف منابع الشهوانية في الأماكن غير المتوقعة. فن الرسم الكلاسيكي مثلاً. كانت موارده من الأجسام النسائية العارية لا تنفد، حقيقة أنها أجسام خاصة لعصر الباروك وكانت أسمن مما فضلناها، ولكنه يكفي. كنا نتأمل النسخ الرخيصة عن اللوحات ... "ماخا العارية" لغويا، "الزُهَرة" لبوتيتشيلي، "ربّات الحسن الثلاث" لروبنز، "امرأة بين الأمواج" لكوربيه... أما لوحة "الحرية تقود الشعب" لديلاكروا من كتابنا في التأريخ، فأصبحت جزءًا من ثورتنا الجنسية الخاصة مع كل الحماس الثوري في نهدها العاري.

إعلانات الملابس الداخلية النسائية في عدد قديم من مجلة "نيكيرمان".

فتات بلغاريا "الذهبيات" في الجمباز الإيقاعي.

كل المباريات في التزلج الفني على الجليد.

تماثيل الإلهة ديانا العارية مع القوس، والتي كانت متناثرة في مدينة د. المسماة في الماضي "ديانوبوليس". مرة بعد الظهر، رأيت لمحةً، عبر نافذة البيت المقابل، إحدى زميلاتي من المدرسة، التي كان اسمها ديانا أيضًا، وكانت أيضا عارية. قد عرفت الأسطورة وارتعبت، ستصيبني اللعنة، والآن ...

الآن أتحول إلى أيل، وبدا لي أن قدميّ تنقلبان إلى حافرين، والآن سيبرز من رأسي قرنان ضخمان. لحظتها نبح كلب في فناء البيت المجاور، وكانت إشارة لا مِراء فيها أن الكلب شم الأيل في داخلي...

علب الجوارب الطويلة وعليها صور سيقان نساء طويلة.

فيما بعد وصلتنا الإشاعة أن مني الرجل مفيد جدًا لبشرة المرأة، وكان أحد شبان حارتنا يتبجح بأنه كثيرًا ما تم طلبه ليورِّد. ويقول: هذا هو كريم "نيفيا" البلغاري.

أحتفظ بكيس ممتلئ بالرسائل الغرامية منذ ذلك الوقت. هل أضيفها إلى هذا الكتالوج؟ من المدهش كم من الرسائل تُكتب تلك الأيام. حاولت أن أتخيل ماذا يحصل إذا أرسلتها من جديد لمؤلِّفاتها. إذا وجدت عناوينهن وأرسلت الرسائل لهن واحدة واحدة؟ أعتقد أن "ف."، صاحبة الرسائل الغرامية الأطول، سعيدة الآن في حياتها الزوجية في المكسيك.

كتبت ف. رسالتها على وجهيّ الورقة، ولم يكفها المكان أبدًا، فتستمر تكتب في الطرف الداخلي من الظرف. مرة استلمت منها سبع رسائل في يوم واحد. أرسلتْ إحداها، بعد ذلك أرادت الإضافة إلى شيء آخر، ثم شيء آخر مرة أخرى. وهكذا ذهبتْ إلى مكتب البريد كل ثلاثين دقيقة. يومها كنت في الخدمة الإلزامية. الجندي الذي جلب الرسائل من بريد القرية القريبة لوح من بعيد بالرسائل السبع. وخرج الكل من وحدتنا العسكرية، والكل كان في انتظار رسالته من بين تلك الوفرة من الرسائل. وأخذ الموزع يقرأ الأسماء على الأظرف، وفي الحقيقة لم يكن سوى اسم وحيد، قرأه سبع

مرات. وشعرت بذنب عظيم، بينما أشاهد الآخرين، وإثر كل رسالة كانت علامات الحزن على وجوههم تتغير بحقد هادئ. من أجل كل الظلم في العالم. مستحيل أن تكون هناك سبع رسائل وتذهب كلها إلى شخص واحد.

ألاحظ الآن أن بعضها تبدأ باقتباسات من مجلد "رسائل العظماء إلى حبيباتهم". إنه خداع ساذج لم أكتشفه إلا الآن. إذًا هذا هو سبب ذاك الأسلوب الرفيع: "حبيب قلبي، إني متأكدة من أن القدر يحمينا..." وثم بدون مقدمة تم الدخول المباشر في الحياة اليومية: "معظم المحاضرات سخيفة، وبعض المدرسين لا يبذلون جهدًا..."، "هل تتذكر زميلتي بيتيا، التي عرفتُك عليها؟ ... تصورْ أنها خطفت إيطاليًا..."

أو هذه الجملة: "كنت أود أن نكون سعداء كما كنا في الثامن والتاسع من مارس!!!" مع ثلاث علامات التعجب.

سأضحي بكل ما أملك من أجل أن أتذكر ماذا حصل في الثامن والتاسع من مارس.

جملة سمعتها في أحد القطارات: "في زمن الاشتراكية كنا منشغلين بممارسة الحب، لأنه لم يكن هناك ما نفعله".

كتاب طهو الصمت

إلى قائمة الحكايات غير المكتوبة (والمستحيلة) من فترة الثمانينيات، سأضيف حكاية أخرى: تأريخ قصير للصمت.

كانت أمي تطبخ من صمتها الكوسا المقلية الرائعة، لحم الخروف المشوي بالفرن، فطيرة الجبنة...

كل شيء يمكن لفظه من خلال عدة أطباق. عرفت الآن لماذا كانت أمي وجدتي طباختين ماهرتين. لم يكن هذا طبخًا، وإنما حكاية.

متاهات الفطيرة الملفوفة والشترودل كانت لذيذة ومتداخلة مثل حكايات شهرزاد. ها هي الملحمة البلغارية الغائبة، ملحمة فطيرة الجبنة.

...

كان جيراننا في تلك الأيام يعيشون حياة زوجية أليفة، بل غريبة بعض الشيء. يتشاجرون دومًا في ظهر يوم السبت. وقد أصبحت المشاجرة ما يشبه طقسًا، أو فصلاً من مسرحية يومي السبت والأحد. أتذكر مرة لم تحصل مشاجرة السبت، الأمر الذي أثار قلقنا. نظرت أمي إلى ذلك بعين الجد وطلبت من أبي الذهاب إليهم كي يستفسر إن كان قد حدث لهم سوء. فأجاب أبي أنه لا يستطيع أن يذهب ويسألهم "لماذا لا تتشاجرون؟"، بينما لم يسألهم أحد قط لماذا تتشاجرون. وطبعًا في النهاية ذهب. فأمي دائمًا تنتصر في المعارك. لم يفتح أحد باب بيت الجيران. وقد تبين فيما بعد أنهم كانوا خارج المدينة.

الحقيقة أن في كل هذه المشاجرات كان يحدث الشيء نفسه. يأخذ الرجل حقيبته، وهي حقيبة بنية جلدية جميلة، ويصرخ أنه هذه المرة يهجرها دون رجعة، يصل إلى باب المدخل، يضع الحقيبة على الأرض، يجلس عليها ويشعل سيجارة. تبدأ المرأة بالطهو وبعد ساعة تتطاير رائحة فوّاحة لطعام يوم السبت، الدجاج بالبطاطس، يخنة الخضار مع اللحم، أو لحم الخروف مع البصل الأخضر حسب الموسم، وتفوح من المنزل رائحة الأكل البيتي اللذيذ، فإذا بالرجل يرفع حقيبته ببطء ويتخطى عتبة البيت، عائدًا من عتبة فراره السَّبْتي المتلاحق متواضعًا وقد أنهكه الجوع.

العودة إلى مدينة ت.

ميتافيزيقيا جزيئات الغبار

غفوت على حافة النافذة. وتوقظني الشمس التي تسخن الزجاج العكر، شمس دافئة في عصر اليوم. ما زلت أسكن أرض العدم بين الحلم ووقت العصر. وقبل أن أعود إلى نفسي، أحس ذاك الحومان والخفة، وانعدام الجسم كله في جسم طفل. وعندما أستيقظ، أشيخ في لحظات. ألم حاد أسفل ظهري، شُلّت ساقي. أضواء سبتمبر الباكر، الأوراق المتساقطة في الخارج، الخجل ممن مرّ في الشارع ورآني.

أنزل من النافذة ببطء باسطًا جسدي، أتذكر أنني من قبل كنت أنزل من حافة الشباك قافزًا. وقد انتعشت الغرفة من أشعة الشمس الخريفية. شعاع ينفذ عبر منفضة السجائر الزجاجية الكبيرة على الطاولة، فيتحلل ضوء الشمس إلى ألوانه الأساسية. وحتى الذبابة الميتة المحنّطة منذ زمن إلى جانب المنفضة، تبدو أنيقة، تلمع مثل قرط منسيّ. الحركة البروانية للجزيئات الميكرونية في شعاع الشمس... إنه البرهان اليومي الأول من فيزياء الكم والذرية، الذي يشير إلى أننا مصنوعون من الجزيئات الميكرونية. ولعل الغرفة كلها، ووقت العصر وأنا بنفسي واقفًا في شكلي الثلاثي الأبعاد الحائر، كأننا قد عرضنا كفيلم. والشعاع في الغرفة يشبه شعاع جهاز عرض الأفلام الضجوج القديم في سينما مدينتي.

.

تذكرت الظلام، ورائحة الأرضية الخشبية، وضجيج الجهاز. كل شيء في السينما كان مصنوعًا من شعاع واحد، وذاك الظلام. وفي طريق الشعاع

كان يجيء إلينا الفارس بدون رأس، الجبال الصخرية الكبيرة، الأخدود العظيم، والأحصنة، والهنود الحمر، الذين يثيرون غبارًا عليه، وقبائل السايوكس الصارخة، والفيالق الرومانية المنظمة في أشكال هندسية، ومخيمات الغجر المتناثرة التي ترحل إلى السماء، كان ينزل من هذا الشعاع كل من جينا لولوبريجيدا، وصوفيا لورين، وبريجيت باردو، وآلان ديلون، وخصمه الدائم بيلموندو، أووو كم هو قبيح... تذكرت أنني عندما أجد الفيلم مملاً، يعني فيه قليل من الضرب وكثير من الكلام، كنت أدير ظهري إلى الشاشة، وأحدّج بالنظر إلى الشعاع الآتي من خلال فتحة شباك العرض. وعلى ضوء امتداده تنتغش جزيئات الغبار في رقصة مخلّطة. ولكنه لم يكن ذاك الغبار العادي الذي يغطي أثاث كل بيت، بل غبار سحري صُنعت منه وجوه وأجسام أجمل الرجال والنساء، والأحصنة، والسيوف، والأقواس، والنُشاب، والقبلات، والعشق، وكل شيء، كل شيء... كنت أشاهد جزيئات الغبار، أحاول الحدس أية منها ستتحول إلى شفاه، عين، حافر حصان، نهديّ لولوبريجيدا اللذين رأيتهما لبرهة وجيزة في أحد المشاهد السينمائية...

أمر بيدي عبر الشعاع في الغرفة، أخلخل جزيئات الغبار، أقبض أصابعي بسرعة، كأنني أحاول التقاطها، كما فعلت في طفولتي... كنت ألوح بيدي، وأدخل في المعركة معها... اليوم أرى أن هذه المعركة مكتوب لها الفشل، فالجزيئات تنتصر عليّ. وثمة عزاء صغير إذ إني قريبًا سأكون من بينها. غبار في الغبار...

البيت

مكثت في هذه المدينة خفية. والسخرية هنا أنني لا أبذل المزيد من الجهد في تنكري. إذا أردتَ أن تبقى مختفيًا، عليك أن تعود إلى مدينتك، إذ إنها

الملجأ الآمن. ومع هذا فأنا أستزيد من الحرص بالخروج من البيت نادرًا. قبل ذلك كنت قد أخبرت بعض أصدقائي عرضًا أني سأغادر البلاد لفترة طويلة، واخترعت حكاية حصولي على منحة للكتاب في أمريكا اللاتينية. وتلقيت جرعة من المشاكسات الصغيرة من عدة مواقع أدبية في الإنترنت، حيث تم التلميح إلى أن عدد رحلاتي يتجاوز إلى حد كبير عدد الجمل التي نشرتها في السنوات الأخيرة. إنها تهم عادلة تمامًا. أخذت حقيبتي ورحلت. أو عدت. لا أدري أي فعل هنا أدقّ.

البيت الذي عشنا فيه بالإيجار من قبل كان فارغًا منذ سنوات. أصحابه ماتوا، والورثاء تطايروا في أنحاء العالم. تمكنت من الاتصال بالرجل الذي يهتم بالبيت. استأجرته ودفعت الإيجار لثلاثة شهور، مع أنني لم أنوِ المكوث فيه أكثر من أسبوعين أو ثلاثة. بعدها سأعود سرًا إلى صوفيا حيث تنتظرني كل تلك العلب الكرتونية وموطني الحنون في القبو.

لم يستطع الرجل أن يضبط نفسه فسألني ما عملي هنا ولماذا أستأجر هذا البيت لا غيره. طبعًا، كانت لدي حكاية جاهزة. بفضل مهنتي هذه أستطيع دائمًا تقديم قصة تبدو حقيقية. حكيت له الرواية المجرّبة عن المثقف الذي يفضل العزلة، كي يُكمل كتابة عمله المهم.

ولكن كيف اخترتَ مدينتنا لا غيرها، من هنا يهرب الجميع؟

لذلك بالضبط، لأني أبحث عن الهدوء. نزلت هناك في منطقة الحمامات المعدنية قبل سنوات، لمعالجة رجلي المكسورة. عجيب هذا المكان، عجيب، قلت مرددًا. وتبدد ارتيابه كفقاعات الهواء على سطح الماء. لو عبّرتَ أمام شخص عن إعجابك بالمكان الذي يعيش فيه، لسمح لك بدخولك في دائرة أصدقائه وكأنه صاحب الفضل في جمال المكان. ولكني أكّدت أمامه أنني مشغول جدًا ولا أريد أن يزعجني أحد. فطمأنني قائلاً إني اخترت المكان

المناسب. وأخبرني بأنه في الجانب الأيسر من البيت تعيش جدة طرشاء، وفي الجانب الأيمن يقع بيت خالٍ منذ زمن، حيث تتبارى في داخله الجرذان والجن فقط. واستمر في الكلام قائلاً: يُحكى أنه من حين لآخر يلمع ضوء شاحب في الغرف. إنه شبح ماريكا العمياء، كانت آخر من عاش هناك. صمت الرجل، كأنه خشي أن أتراجع، ثم أضاف إلى أنه طبعًا لا يصدق مثل هذه الحماقة. أتذكر جيدًا هذا البيت المجاور. وقتئذ كانت ماريكا العمياء على قيد الحياة، ولا أدري لماذا كنا نخاف منها. نهارًا كانت تختفي في غرفتها، وتخرج إلى فناء الدار في المساء، وتمضي وسط الأشجار بذراعين مفرودتين. يقول البعض إن قدرتها على الرؤية ليلاً كانت أفضل منها نهارًا، لأن الظلام فيها وظلام الليل يتفاهمان جيدًا. كما هو الشأن في حياة الخلد. نحن البلغار ليس في لغتنا رحمة.

رغم أن المكان لم يتغير شيء فيه. ما زال الشارع يحمل اسمه القديم، اسم قائد سوفيتي، والغرفة هي نفس تلك الغرفة، مع الطاولة والسرير والمدفأة القديمة فيها. وحتى السحلبية التي قد ذبلت في ورق الجدران، بقيت كما كانت.

تحت سقف البيت، بَنَت عائلة السنونو عشًا. ولديها ثلاثة فروخ. ليلاً أترك المصباح ينير عمدًا الخارج. فضوؤه يجذب ذبابًا وفراشات يلتقطها السنونو. سرعان ما بدأت أتردد في صحة أفعالي. إذ إنني أساعد مخلوقًا على أن يقتل آخر بشكل أسهل. نعم، عائلة السنونو لديها صغار بحاجة إلى مزيد من الطعام. الأولاد هم دائما تبرير راسخ لا يقهر. ولكن هذه الفراشات والذبابات، التي أحوّلها إلى ضحايا لديها صغار أيضًا. وهل ثمن حياة صغار السنونو أغلى من حياة يرقة الذباب؟ قتل ذبابة أو قتل فيل. أليس هذا محض قتل؟

عدت إلى هذا البيت في مدينة ت. باحثًا عن شيء معين. فلقت أحد ألواح الأرضية الخشبية في الجانب الأيمن من النافذة، حيث كان يقف من قبل سريري. في طفولتي حفرت هناك مطمورة وخبّأت بها علبةً. ثم هجرنا البيت بسرعة ولم أستطع أخذها. وقلت في نفسي إنني ذات يوم سأرجع لأخْذها. إن هذه العلبة هي أصل كل الصناديق والعلب الكرتونية التالية، هي التي أنجبتها، بحيث في نهاية المطاف لن تكون مجموعتي كاملة بدونها.

نهاية الهنود الحمر

والآن علينا أن نرفع القبعات، إكرامًا للهنود الحمر الراحلين، إكرامًا لنا جميعنا الذين كنا ننتمي إلى قبيلتهم. يجب أن أضيفهم إلى ذاك الكتالوج للأشياء المختفية، إلى مجموعة أجهزة البيجر، والفيديو كاسيت، والتماغوتشي وكل الأشياء الميتة. عندما كنا نشاهد فيلم "فينيتو"، نتحول كلنا إلى فينيتو. وبعد "أوسيولا" تكتظ الحارة بعدد كبير من الأوسيولات. ويحدث الشيء ذاته مع "تيكومزي"، و"توكايتو"، و"سيفيرينو"، و"تشينغاتشوك – الأفعى الكبيرة"... أعرف أن هذه الأسماء لا تعني شيئًا بالنسبة للأجيال من بعدنا. كل من باتمان، وسبايدرمان، وسلاحف النينجا سددوا ضربة نجلاء في صفوف الهنود الحمر وكل الميثولوجيا لديهم، وفعلوا ذلك بطريقة غير عادلة، إذ لم يدخلوا ولو لمرة واحدة في معركة مباشرة معهم. فهم مَن أنهى ما بدأه المستوطنون البيض قبل قرنين.

وهنا حكاية عما حدث مرة بعد عرض فيلم من تلك الأفلام. أتذكر أننا دائمًا كنا نخرج منَ السينما منهوكي القوى، كما لو أننا قد خرجنا من معركة مع البيض. وحتى بعد مرور ساعة على الأقل، نظل نعيش الفيلم، نحن، أنصاف الهنود الحمر، أنصاف طلاب الصف الثالث الابتدائي. يكاد

ذلك الشعور أن يكون شعورًا بدنيًا. وهكذا بعد عرض أحد الأفلام، دخلنا مخبزًا قريبًا من السينما، لنشتري تولومبا وشراب البوزا، كما كانت عادتنا. كنا بحاجة إلى بعض الوقت كي نخرج من جو المعارك، ونترجل عن الأحصنة، وندخل العالم البلغاري الممل. وقفنا في الطابور. جاء دور الأول من شلتنا، وهنا عليّ أن أقول إنه كان قائدنا، وطلب بوقار كأس بوزا وتولومبة. كانت البائعة تهذر مع شخص ولم تسمعه. وقف القائد أمام واجهة الحلويات بوجهه المتحجر الملامح، رغم سنواته العشر. وفي النهاية عندما نظرت البائعة إليه قالت بشيء من الوقاحة: ‏هيا، أيها الصغير، قل ماذا ستشرب، لن أنتظرك‏، رد ببرودة: تشينغاتشوك لا يحب أن يكرر. فاجأتنا كلماته. لا ريب أن إطلاق مثل هذه الكلمات يتطلب شجاعة، والصمت الطويل الذي لم نسمع فيه إلا ضجيج المروحة، كان يؤكد جلالة تلك اللحظة. ولكن لم تمر دقيقة حتى انفجرت البائعة وبعض الزبائن ضحكًا، كأن هناك من أومأ لهم ليضحكوا. كانت هذه سفالة (أو رذالة كما كنا نقول ذاك الزمن)، كان من الأفضل أن يضربونا أو يطردونا. تشينغاتشوك لم يتحمل ذلك واندفع إلى الخارج. ونحن كذلك "ركبنا الأحصنة".

بعدها لم يتهكم عليه أحد، بالعكس، قدرنا شجاعته في عالم لا تساوي أنت فيه قرشين. ولا سيما لو كنت صبيًا في الصف الثالث الابتدائي.

ختام هذه القصة مظلم جدًا. بعد ذلك بسنوات طويلة، بينما كنت أتجول في مدينة ت. وجدت نفسي في ساحة ألعاب الرماية للأطفال. يمكنني أن أحلف بأنها كانت نفس العربة الشاحبة اللون المغطاة بالصدأ منذ طفولتي. والبنادق كذلك هي نفس البنادق، غير أنّ قبضتها أصبحت بالية من كثرة الاستعمال. كان هذا المكان في طفولتنا أكثر الأماكن سحرًا،

حيث كان من الممكن هنا فقط رؤية كل كنوز البلاد الغريبة والبعيدة (الآن أعرف طبعًا أنها وصلت إلينا من يوغوسلافيا). كانت كمغارة علي بابا، فيها علكات على شكل سيجارة، بطاقات ملونة عليها صور غويكو ميتيش، وكلاوديا كاردينالي، وبريجيت باردو، روزنامات جيب تحمل صور نساء بثياب مفتوحة، شدة ورق لعب، صورة امرأة غمازة، حسب الزاوية التي تشاهدها منها، قلم حبر فيه قارب يطفو، ممحاة صينية عبقة، ولاعة على شكل مسدس، مسدس مع خراطيش، حزام جلد مع مشبك معدني ضخم، شارة عليها صورة إلفيس بريسلي، سلسلة مفاتيح مع برج أيفل، روزنامة قديمة بصورة فريق كرة القدم البلغاري "ليفسكي" كله، قصب زجاجي مليء بسكاكر ملونة، شرار النار البنغالي، قبعة رعاة البقر المصنوعة من الجلد، قراب مسدس من البلاستيك، كرات زجاجية في كل الألوان والأحجام، راقصات باليه من الباكليت، ليلى (ذات الرداء الأحمر) وذئب من الخزف... كل هذه الإمبراطورية البلاستيكية الخزفية من أعلام الفن الهابط، التي كانت لا تُثمّن في طفولتنا، تبدو الآن بالية ومنكسرة. اليوم يمكننا رؤية كنوز أكبر بكثير (وفن أكثر هبوطًا) في كل محل. في الأمام كان تقف تماثيل صغيرة بنية لهنود حمر مع توماهوكات، أقواس، وسهام، ورماح، وأحصنة، وإلخ... كنا نعشقها ذاك الوقت. اقتربت من العربة وإذا بي عرفت فجأة في ملامح وجه الرجل وراء الطاولة صديقي تشينغاتشوك، لقد شاخ قليلاً، سمن قليلاً، رأيته يصرخ هاتفًا في ثلة من الأولاد الذين يمرون عليه بلامبالاة.

لقد انتهى ذاك الفيلم.

لم أناديه عليه، بل انسحبت في فيء أشجار الكستناء في الجانب المواجه كي أشاهده. بعد قليل، ظهر ولد في حوالي الخامسة عشرة، لعله كان ابنه، تبادلا بعض الكلمات ومضى تشينغاتشوك. انتظرت بعض الوقت ثم ذهبت

إلى الولد. دفعت ثمن عشر طلقات، اخترت إحدى البندقيتين وبدأت أطلق الرصاص تجاه الجوز على اللوحة. وتبين منذ الطلقة الأولى أن البندقية تضرب عدة سنتمترات في الجانب الأيسر. إنها الحيلة القديمة التي يستعملونها في كل ساحات الرماية، مما شعرت بالحنين إلى الماضي.

قلت: تصويب البندقية منحرف.

-آآآآ، لا، ليس ممكنًا. جَرِّبِ البندقية الأخرى. احمر وجه الولد.

-لا، شكرًا، أعرف جيدًا انحراف طلقات هذه البندقية – قلت ضاحكًا. أصبت عدة جوزات، ثم صوّبت إلى الذئب الذي بدأ يطارد الأرنب، ثم إلى الأمير، الذي أحنى رأسه وقبّل الأميرة...

-اختر ماذا ستأخذ – قال الولد، بعد أن تركت البندقية في مكانها.

سألته كم سعر تماثيل الهنود الحمر، أخذت أحدها في يدي، ثم أخرى، لمست أطرافها، نظرت إليها مثل خبير. كان الولد يقف ولم يصدق عينيه. لعلني كنت أول المهتمين بالهنود الحمر. عندما قلت إنني أريد شراءها كلها، كأن الولد خاف. قال إنه لا يعرف ماذا سيقول لأبيه الذي يحبها كثيرًا. فقلت بصرامة: ولكنها للبيع، أليس كذلك؟ نعم، نعم، للبيع - أجابني الفتى وهو يتلفت من حوله، آملا أن يرى أبيه. كم سعرها؟

طبعا كان السعر مضحكًا. قلت: سأدفع كل الثمن، لكن سآخذ نصفها. فليبقَ النصف الآخر لأبيك. وقل له ألا يبيعها بهذا السعر الضئيل. لأن هناك فائض القيمة من الماضي. لست متأكدًا من أنه فهم كلامي.

-هل أنت جامع تحف؟ – سألني الولد، وهو يقدم لي كيس البلاستيك الرخيص مع الهنود الحمر فيه.

-يمكن القول إني جامع.

-أعطيني من فضلك اسمك أو تفضل لدينا مرة أخرى، أبي سيسعده أن يتعرف عليك. هنا لا يهتم أحد بالهنود الحمر.

- تحياتي إلى أبيك أجبت تاركًا المكان.

- ما اسمك؟ صاح الولد من ورائي.

ابتعدت بضع خطوات أخرى، لم يكن من واجبي أن أرد، يمكنني أن أتظاهر أنني لم أسمعه. على الرغم من أنني التفت.

- اسمي بين الهنود الحمر "الأيل سريع الركض". قلت ملوحًا بيدي واختفيت وراء المنعطف.

ممر جانبي

لعبة "الجدة العمياء" . إنها أسهل طريقة لتَصْنَعَ متاهة - يعصبون عينيك بالمنديل وتبدأ. وفجأة ينقلب العالم، والغرفة التي تعرفها تلك المعرفة الجيدة، تصير غرفة أخرى. إنها متاهة واقعية، ترتطم بها، وتصطدم، وتسير بتأوهات. أعتقد الآن أن هذه اللعبة يمكن أن تكون المفضلة لدى المينوتور.

أيام طفولتنا اتفقت مع بنات أعمامي على أننا مهما يحدث معنا، ونشيخ، ونتغير، وننجب أولادًا، ونصبح ذوي الشأن، أو نصل إلى القاع، سنظل نجتمع يومًا محددًا كل سنة، سنلعب فيه "الجدة العمياء" . ويضحكن قائلات: حتى نتحول إلى جدات عمياوات فعلاً. اللمسات الخاطفة بينها تحاول أن تقبض على أحد في الظلام، والتعرف المطوّل على شخصيته باللمس، كل هذا كان جزءًا من شهوانية هذه اللعبة البريئة. لعبناها للمرة الأخيرة ونحن طلاب في الجامعة. أتذكر كيف اصطدمت بالصبار الضخم في غرفة الضيوف، وثم

على مدى يومين كنت أحاول تخليص جسمي من الأشواك.

جولييت أمام السينما

ربما كانت تلك هي المرة الثالثة التي أخرج فيها من البيت منذ إقامتي في المدينة.

أمشي ببطء في الشوارع، التي يلفها غسق الليل، ألتقي بناس ذوي وجوه غير معروفة. وجوه معتمة، تعبة، جامدة الملامح. يهبط غسق أكتوبر الباكر ببطء، تفوح رائحة فلفل مشوي، كل الناس قد رجعوا إلى البيت للعشاء، تعلو عبارات من نفس المسلسل. أمر على سينما المدينة التي نسيت منذ زمن رائحة الشريط السينمائي. وإذا بصوت امرأة من خلف ظهري ينطلق دفعة واحدة:

- مرحبًا، مرحباً... كيف حالك؟ سوف أغادر... هيا، وداعًا... لن أعود قريبًا...

إنه كلام سريع، يلاحقه ضحك صامت غريب. كان مفاجئًا إلى حد أنني فعلاً خفت. وبينما أنا أفكر في إجابة ما، مع أنه لا حاجة إلى ذلك، كانت المرأة قد مضت. إنها جولييت، جولييت المجنونة! عرفتها من ظهرها، محدودبة قليلاً، ودائمًا تمشي مهرولة، مرتدية نفس البدلة الوردية اللون من الطراز العتيق ذات أزرار من القماش كما أتذكرها منذ زمن، وعلى رأسها قبعة ذابلة تشبه قبعة الملكة البريطانية. إنها جولييت أيام طفولتي، خطيبة آلان ديلون، التي دائمًا ما تلازم السينما، ويسمحون لها بمشاهدة الأفلام مجانًا، وتحفظ كل الأفلام عن ظهر قلب.

مرة وأنا طفل، بينما كنت لا أزال أملك وفرة من قدرتي تلك، أحسست

بتنافر الأصوات كله في جولييت. وكأنها هي نفسها كانت مصنوعة من مشاهد سينمائية غامضة قليلاً، متعاقبة بسرعة جنونية. وتطير فيها قطارات بدون مكابح، أحصنة، رجفة أشواق، بعض الضربات العنيفة في بطنها، وجوه، كلام، لكمة في الوجه، طائرات تطير على علو منخفض، عبارات عرضية، حزن ونشوة... خرجت منهك القوى، مصابًا بدوار الجو.

كانت تنغمس في "علاقتها العاطفية" مع آلان ديلون، ودائمًا تشرح كيف سيأخذها من مدينة ت. ويقتادها مباشرة، "par avion"، إلى باريس. لم تعرف الكتابة والقراءة، فتظلّ أبدًا تبحث عمن يكتب رسائلها إلى حبيبها. ولأنني كثيرًا ما أتجول حول السينما وكنت من بين الأقلية التي لا تضحك عليها، ففي أغلب الأحيان أتحول أنا إلى كاتب رسائلها، أنا، "سيرانو دي برجراك" المحلي. كانت كل رسائلها تبدأ بهذه العبارة: "يا آلان حبيب قلبي..."، ثم يأتي دائمًا تعليق موجز عن فيلمه الأخير، الذي يلعب فيه حبيبها، وتشرح بالتفاصيل كيف فكت طلاسم الرموز التي أرسلها لها من الشاشة. وفي بعض الأحيان تحذّره بغيرة من آن باريو الشابة مثلًا، أو تلك الدجاجة م. د. (كنت أبدل كلمة الدجاجة بالغناجة خلسةً)... وتنتهي الرسالة دائمًا وجولييت تؤكد له بأنها على استعداد، وليس لديها الكثير من أمتعة السفر وأنها تنتظره، وتطلب منه أن يكتب لها بعض الكلمات ويخبرها متى سيأتي إليها ويأخذها. سيجدها كل يوم بعد الظهر أمام السينما. كنت أضع الرسالة في الظرف، أكتب "باريس، آلان ديلون" وهي بنفسها تضعها في صندوق البريد الأصفر. وعلى مكان المرسل دائمًا كان مكتوبًا "مدينة ت.، جولييت، أمام السينما". وكما نرى لا يُشيد هذان العنوانان إلا بشهرة المرسِل والمرسَل إليه، في العالم وفي تلك المدينة.

لكن ذات يوم حدثت المعجزة، وتلقت جولييت رسالة من آلان

ديلون. لقد تركها امرؤ ما في شباك سينما فابتساروف. صحيح أن ختم الظرف يتضمن اسم المدينة المجاورة وأن الرسالة كانت بالبلغارية، إلا أنها تفاصيل يمكن تجاهلها. تشرفت بأن أكون القارئ الأول للرسالة، إذ لم تعد جولييت تثق بغيري. كتب النكاتون المحليون بكل قسوتهم في الرسالة: "عزيزتي جولييت، أتلقى رسائلكِ بانتظام، فتعلمت اللغة البلغارية، كي أستطيع الكتابة إليك. لا يمكنني أن أجيبكِ دائمًا، لأنني غارق حتى الأذقان في العمل والنساء، على الرغم من أنني لا أعيرهن أي انتباه، فَلَكِ وحدك قلبي ينبض، يا صغيرتي العزيزة، يا خطيبتي. لا تتوقفي عن انتظاري، اجمعي جهاز العرس، ضعي ملابس السباحة في الحقيبة، وسآتي إليك لآخذك من مدينة ت. ونسافر مباشرة إلى جزر كنارية. حبيبك المخلص، ديلون".

تمسخروا عليها، لكن قلبها رفرف فرحًا إلى درجة أن قلبي لم يسمح لي بإخبارها أن الرسالة مزيفة. قبضت على الظرف من يدي، دست أنفها فيه، كأنها تستطيع شم رائحة عطر ديلون، ثم احتضنتني، خبأت الرسالة في صدرها، وطار عقلها من السعادة. انطلقت تتجول، فاتشة عن سر البشارة، مودّعة المدينة.

منذ ذلك الحين لم يبقَ هناك شيء يمكن هزم ثقتها الوطيدة بأن ديلون سيأتي، إذ كانت تقضي كل يوم أمام السينما وبين يديها حقيبة رثة صغيرة فيها جهاز العروس وملابسها للسباحة. مرت سنوات، وقد تم إغلاق السينما في التسعينيات، وديلون نفسه بلغته الشيخوخة، لكن جولييت ظلت تنوس في المكان المعين ولم تتغيب ولو يومًا واحدًا. أفتّش محفوظاتي والصحف القديمة من ذاك الزمن، ولا أعثر على أي صورة، على أي إشارة مرتبطة بجولييت، تلك الأرستقراطية الوحيدة في مدينتنا. أخوها، الذي كان اسمه غوشو تسينْتارا اغتصب لقبها الفخري "مجنون المدينة"، يا له من عدم المساواة وفي

الجنون أيضًا. كان حليمًا لا ضرر منه، وجدوه غريقًا وقد تشابكت جثته في قصب نهر توندجا. أُرفق هنا صورته، التي نستطيع من خلالها استرجاع بعض ملامح وجه أخته جولييت المشرق.



أضيف حكاية جولييت إلى كبسولة هذا الكتاب. ذات يوم، عندما يكون آلان ديلون عجوزًا منسيًا سيعرف أنه في مدينة ت.، أمام السينما القديمة كل يوم بعد الظهر، على مدى أربعين سنة (وهنا تتصغّر بينيلوبي ويلفها الحياء) انتظرته امرأة مع حقيبة صغيرة.

تأريخ الثمانينيات الرسمي

في عام 1981، بلغت بلغاريا 1300 عامًا من عمرها. على مدى سنتين نشاهد في السينما قطعان البلغار القدماء فوق خيولهم القامصة، وجحافل السلاف المختفين في المستنقعات حيث يتنفسون من خلال سوق القصب المجوفة وكأنها سنوركل. كان لدى كل واحد منا صديق أو قريب يشترك في مشاهد الجماهير والحشود في الملاحم السينمائية التأريخية. فتُحكي أساطير عن «بلغار قدماء» وعلى أيديهم ساعات إلكترونية ظهرت بلا حيطة في

بعض لقطات الفيلم. في ذاك الوقت، كانت الساعات الإلكترونية من آخر صيحات التقنية، لحسن حظ الفيتناميين، الذين عملوا في السوق السوداء من حيث اشتريناها، إذ أنك لا تستطيع نزع ساعتك بدون سبب وتركها في أي مكان. وإلى حد ما يمكننا القول، إن الذكرى الـ1300 لإنشاء الدولة البلغارية جرت مثل العرض الافتتاحي السينمائي. أما تلك الأحداث الواقعية، التي لم نستعدّ من أجلها، فكانت مختلفة في عام 1981.

في ذاك العام، أطلق محمد علي أغجا النار على البابا يوحنا بولس الثاني. تورّطت بلغاريا في تلك القضية على نحو ما، فتابعنا الأخبار أمام التلفاز بلا كلل. لا شيء يوحّد أمة صغيرة قدر ما يوحّده الشعور بأن الجميع يقفون في مواجهتها.

أما الحدث المهم الآخر فلم تشارك بلغاريا مباشرة فيه. في ديسمبر، لأول مرة تم الإعلان عن الإيدز. الأمر الذي أدى إلى نهاية الستينيات الرسمية عام 1981. وقد انقطعت كل الثورات الجنسية لأسباب صحية. ولأن تلك الثورات لم تبدأ في بلادنا قط، فلم ندرك نهايتها إلى هذا الحد المأسوي.

في أعقاب هذا، في السنة التالية، توفي ليونيد بريجنيف. هل كان لموته علاقة بوباء الإيدز؟ لست متأكدًا. حصل في نوفمبر، في يوم كئيب مظلم، وكان المطر يهطل. أخبرونا بوفاته ونحن في المدرسة، حيث يبدو المعلمون خائفين إلى درجة أكبر مما كانوا حزناء. نعم، كان الخوف أقوى من الحزن. من يحمينا الآن؟ ذاك اليوم لم ندرس. في اليوم التالي أخرجوا جهاز التلفزيون من غرفة المعلمين، وضعوه في الدهليز، صفّونا وكان علينا أن نشاهد الجنازة في التلفزيون بكل تفاصيلها الكميدة، التابوت الضخم المغطى بالأزهار، والموسيقى الجنائزية البطيئة التي تدوي بكل زاويا المدرسة. رفعوا صوت التلفزيون إلى أقصى الحد. كان تلاميذ الصفوف الابتدائية واقفين في الصف

الأول مباشرة أمام التلفزيون، يشاهدون في ارتباك، ولعلهم رأوا إنسانًا ميتًا لأول مرة. هكذا اصطدمنا بالموت في دهليز مدرسي بارد، باكين بكاءً خافتًا متكلفًا بعض الشيء على رجلٍ ليس لنا أي علاقة به. وقد كنت في الثانية عشرة وقبل الجنازة بيوم، قبلت فتاة لأول مرة، رغم أنه حدث في الظلام بينما نلعب لعبة "القنينة" في حفلة عيد الميلاد. قبلة أولى، موت أول.

تلك كانت بداية النهاية. الأمناء العامون للحزب الشيوعي السوفييتي ماتوا بالتتابع كل سنة أو سنتين، كأنهم مصابون بالوباء. لقد أتقنّا طقوس الموت. تُلغى الدراسة ليوم واحد، وفي اليوم التالي نشاهد الجنازة في الدهليز المدرسي ويبكي رؤساء فرق الطلائع. أما نحن، في الصفوف الخلفية، فنرمي بعضنا البعض بحبات أرز عبر أنابيب أقلام حبر جافة. بعد التكرار كثيرًا، لم يعد الموت يؤثر أثرًا بليغًا في أنفسنا.

في الحقيقة يمكنني وصف مرحلة البلوغ جملةً من باب الوضع السياسي المعقد في الثمانينيات.

القبلة الأولى (مع فتاة).

مات بريجنيف.

القبلة الثانية (مع فتاة أخرى).

مات تشيرنينكو.

القبلة الثالثة...

مات أندروبوف.

هل أنا من يقتلهم؟

أول جنس عشوائي في الحديقة العامة.

كارثة تشيرنوبيل.

تتبع ذلك مرحلة طويلة من الانهيار.

الغواصة الصفراء

إذا استمعت بتمعن مرات إلى أغنية "الغواصة الصفراء"، المسجلة عام 1968، يمكنك كشف إشارة مشفرة للثورة، أي رسالة سرية من فرقة البيتلز إلى الشباب البلغار. في وسط الأغنية (بعد دقيقة و35 ثانية منذ بدايتها تمامًا) في الضوضاء الخلفية تسمع بوضوح عبارة: "بوسني مي فيريغاتا"، أي "فك قيدي"، حيث تقع النبرة على حرف "و" ويتم لفظها بسرعة كبيرة وباللغة البلغارية الصافية. ها هي هكذا: "بوسْنيميفيريغاتا". وللأسف فككنا طلاسم رموزها بتأخر كبير، في أواسط الثمانينيات، عندما كانت الأمور قد ضاعت.

All we live in a...

تَمْ - تَ - دَمْ - تَ - داام... تَم - تَ - دَمْ - تَ - داام... تَمْ - تَ - دَمْ - تَ - داام...

All we live in a...

تَمْ - تَ - دَمْ - تَ - داام... تَم - تَ - دَمْ - تَ - داام... تَمْ - تَ - دَمْ - تَ - داام...

أما البيت الأصفر، فلم تكن تمر عليه أي غواصة صفراء.

أربع ثوان من التسعينيات

رأيت نفسي في فيديو استغرق ثلاث دقائق، تم تسجيله في الثالث من نوفمبر، عام 1989، ولعله التسجيل الوحيد، رغم الوفرة في أجهزة فيديو الكاميرا ذاك الوقت. كنت في العشرين لمدة أربع ثوانٍ. أربع ثوان طويلة، فيها وقت كاف لأتذكر كل شيء. إلهي، كم كنتُ مضحكًا، نحيلاً، ذا تفاحة آدم بارزة، شعري ينسدل على العينين، جاكيتي رخيص منذ أيام الجامعة. وها هو غاوستين، إنها اللقطات الوحيدة معه، فلم يصور نفسه أبدًا. نتفحص باستمرار، فضولية وخوف. لفترة أربعين سنة من الزمن، كان هو الاحتجاج الأول في بلغاريا. إذا رأيناه من وجهة نظر اليوم، وجدناه بريئًا في متطلباته، من بينها إيقاف عمل محطة كهرمائية، لأنها تلوث جبل ريلا. ولكن في ذاك الوقت لم يكن جدار برلين قد سقط بعد، وكذلك النظام السياسي في بلغاريا. لاحظت المواطنين الذين يحملون فيديو الكاميرا وهم بالتأكيد ليسوا موظفي قناة التلفزيون. فرجال المخابرات يستعملون كيفية تصوير مختلفة، مركزين على الوجوه، ليسهلوا عملية التشخيص فيما بعد. بفضل ذلك أستطيع رؤية نفسي في هذا الفيديو عن قرب لأربع ثوان كاملة. مشغل الكاميرا اجتهد أكثر مما يجب. تظهر هنا وهناك وجوه معروفة، بعض الأشخاص من الجامعة، أحد الشعراء. الوجوه متوترة، الأجسام متجمدة، مرتبكة، ارتدينا نفس الملابس تقريبًا، تصميمها سيء من مجموعة الملابس الجاهزة. نعم، خلافًا للستينيات التي كانت فعلاً مثيرة وملونة، ولديها ذوق رفيع في اختيار الملابس، فإن الثمانينيات وكذلك كل الشيوعية تنتهي بشكل قبيح.

ها أنا الآن أرى في الفيديو كيف يقتحم رجال الأمن موتّدين في حشد الاحتجاج كي يثيروا الفوضى. نلاحظهم ونتبادل بعض الكلمات أنا وصديقي، ثم أدير رأسي إلى اليمين نحو الكاميرا التي تصورني. هذا في الثانية

الثالثة. أحاول أن أكبر حجم الصورة، لكن جودة التسجيل ليست عالية. في الثانية الرابعة قد اختفيتُ.

كيلا أنسى...

سرقت من إحدى المكتبات في شارع فيتوشكا كتابًا بعنوان "الطبخ في وقت الأزمة"، كي أهديه للفتاة التي عشت معها تلك الأيام. ففي شقتنا المكترية لم يكن لدينا للأكل سوى علبتين من معلبات الفاصوليا، التي انتهت صلاحيتها، من مخلّفات المساعدات الغذائية المقدمة من الجيش السويسري. كنا نجلس مساءً وبين أيدينا الكتاب المسروق.

ماذا سنعدّ للحلويات؟

أأأأ....، ما رأيك بالكيك مع الإجاص؟

نفتح الكتاب في الصفحة الـ146، حيث كانت وصفة طريقة عمل الكيك، ونبدأ نقرأ ببطء كي نحس طعم كل كلمة. نضيف نصف كأس من العسل إلى الزبدة الذائبة في إناء. ونفصل صفار البيض عن بياضه. ثم نخلط الصفار ونصف الكمية من السكر، والزيت النباتي، والحليب، والطحين، والبكنغ بودر. نخفق المكونات جيدًا بمضرب يدوي ونصبها في الصينية المدهونة مسبقًا. نضعها في الفرن حتى تتحمر قليلاً. ومما ذكرناه لم نملك إلا الصينية، والفرن، والمضرب اليدوي. لكننا مثلنا دورنا إلى درجة تجعل من الممكن رؤية آثار الطحين على أيدينا.

العمة فاني، في السبعين من عمرها، من حي ملادوست 1، طلبت في المستشفى عمل صورة الأشعة السينية لبطنها، لمجرد أنهم يقدمون عصيدة مجانًا قبل التصوير.

البرد وانقطاع الكهرباء المنتظم عام 1990. البهو المظلم في سينما غلوبوس، وظهور أناس غير معروفين يتنفسون وسط العمى.

لقاءات ليلية في صوفيا المظلمة، بينما أتجولها بصفتي مراسل إحدى الصحف. صاحب دُب يجول طرقات المدينة بدون دبه. أوقف المبتزون سيارتهم الجيب، سألوه كم سعر الدب، فرفض قائلاً إنه لا يباع، ضربوا عنقه، قبضوا على السلسلة وربطوها مع الدب من مؤخرة الجيب. كانوا في حاجة إلى دب كي يدربوا كلابهم البيتبول. رموا لصاحب الدب خمسين ليفا، أما الدب فيعدو وراء الجيب ويبكي. لكن مثل هذه التفاصيل الضئيلة لا تدخل في التأريخ الأسود للتسعينيات.

قصة توني الأعمى الذي يبحث عن زوجة في الباص في الطريق إلى المدينة الطلابية مرددًا إلقاءً غنائيًا لا نهاية له:

أنا اسمي توني

شاب واحد في المليونِ

أبحث عن فتاة

لكل الحياة

بعدها تأتي قصة ملحمية، وكل ما فيها من الخواطر في بحر الحياة، يروي فيها من هو ومن أين يأتي، وكيف يواجه سبل العيش في المدينة الكبيرة، حكاية عن تكوين العائلة في المستقبل، خطط الأطفال والشيخوخة المريحة الهادئة... في النهاية، يقدم توني الأعمى عنوانه ورقم هاتفه، متمسكًا بنفس الوزن والقافية.

حكاية زميلتي من الجامعة، التي كانت تقضي عدة ساعات في كل يوم في أكثر المقاهي ضجة بالقرب من الجامعة، وهي يائسة تريد أن تجد رجلاً تتزوجه، قبل أن تعود إلى مدينتها ت.، حيث أبوها سينهرها: "هل تزوجت؟ لماذا صرفنا النقود خمس سنوات؟ كي تعودي وأنتِ عانس! مدينتنا ليس فيها زوج لك".

كانت تجلس، وترتشف ببطء أكبر فنجان قهوة، وتنتظر. ونيتها السرية قد أصبحت جلية للغاية. يتجنب كل الرجال طاولتها. مرة اتصلت بي، كانت على نار وقالت، إن المسألة جد خطيرة، فقد ساءت حالة أبيها وأرادت أن تقدّم إليه رجلاً قبل أن يرحل عن هذا العالم. ورددتُ: أرجوك، هذه المرة فقط. وافقت، وغادرنا إلى المدينة. قد فرشوا طاولة الطعام الضخمة بالحديقة تحت كروم العنب، ويجلس حولها بصمت كئيب أقرب أقربائها من العمات والأعمام وبعض الجيران. يُخرجون أباها من البيت حاملينه بأيديهم، كان يشبه "دون فيتو كورليوني" المحلي. اقتربت منه، فحدق النظر إليّ مدة دقيقة كاملة، حاول أن يقول شيئًا، أخذه السعال، فأدخلوه إلى البيت.

بعدها بسنوات وجدت نفسي صدفة في محطة الحافلات في ذات المدينة. وإذا بعجوز تحدجني ببصرها صائحة: أقسم أنه هو الشاب. الشاب نفسه الذي خدع بنتنا ولم يتزوجها، لماذا لم تتزوجها يا بني...

كتب بأسعار قديمة رخيصة من المكتبات التي كانت على وشك الإغلاق. نبيعها في ساحة الجامعة وكانت كلها طبعة الجيب، منها "رسائل غير غرامية أو إيلويزا الثالثة" لشكلوفسكي، "ولدت كي أعيش في الوحدة" لكافكا، وكتاب "صورة الفنان في شبابه" ذو الغلاف الصلب لجيمس جويس، بسعر 4.18 ليفًا كاملاً، الذي لم يشتره أحد. "في يوم من الأيام وكان يومًا جميلاً جدًا، كانت هناك بقرة قادمة عبر الطريق، وقابلت هذه

البقرة القادمة عبر الطريق ..."

لكن كل ذلك ليس إلا تفاصيل الحياة التافهة التي ستختفي، أما البقية فهي موجودة في صحف ذاك الوقت. على الرغم من أن فترة التسعينيات كانت أقصى العقد الجميل الحي، الذي يمكن حدوث كل شيء فيه. وقتها كنا شبانًا لآخر مرة. وقتها ظهر غاوستين، وهو طالب الفلسفة الذي توقف عن دراسته بالجامعة، غاوستين بمشاريعه العبقرية (وإخفاقاته)، التي امتلأت بها مفكرة كاملة.

لماذا أظل أهتم بغاوستين؟ نادرًا ما كان لدي أصدقاء.

إن التقمص الوجداني يستميل إلى تقارب البشر، ولكن هذا لا يخص حالتي إذ إن أثقال هموم الآخرين تصيبني مثل المرض. لا إناث، لا علاقات، لا صداقات. ولكن غاوستين كأنه كان مصنوعًا من مادة مختلفة وزمن مختلف. لا أعرف شخصًا مثله - غبش لا ينفذه شيء، وشفاف في آن واحد. كنت أمر عبره كأنه هواء أو أصطدم بجدار من الزجاج. وعلى الرغم من ذلك أو لذلك بالضبط، كان الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أسميه "صديقًا".

مشاريع غاوستين

كل الطرق لكسب الأموال بنزاهة كانت تتبخر ببطء. ذات يوم كنا في السينما نطّلع على برنامج الأفلام الحديثة. كانت أسعار التذاكر غالية لا تطاق، نشاهد أفيشات الأفلام والصور على الواجهة. لحظتها خطرت لغاوستين هذه الفكرة العبقرية: سنروي أفلامًا على شكل قصة مفصّلة تستغرق ثلاثين دقيقة، مقابل سعر ضئيل. إنه مشروع "السينما للفقراء". إستراتيجية السعر

الافتراسي. وتَحَمَّسَ. هل تتصور كم هي عظيمة هذه الخطوة؟ كم هو عظيم هذا الانقلاب التأريخي، أي عودة المرئيات إلى المرويات؟ تَقِفُ أمام السينما بين أولئك الذين ينتظرون أمامها وتبدأ كلامًا طبيعيًا، قائلاً إن الفيلم عظيم، ولكن أهل السينما، كيف يمكن أن يحددوا مثل هذه الأسعار العالية، يا لهم من حيوانات، لكنكَ قد شاهدتَه وتقدم لهم حكايته بكل التفاصيل مقابل 700 ليف فقط. وهو سعر ضئيل، بالمقارنة مع التذكرة، التي يتجاوز ثمنها ثمن حكايتك بعشر مرات. تجمع 15 شخصًا حولك، وانتهى.

انتظر، انتظر - أقطع كلامه - ونحن متى سنشاهد الفيلم؟ فيرد غاوستين: سنشاهده بعد ذلك، بعد أن نحصل على النقود.

وماذا سنحكي؟

ويأتي الرد البريء: سنخترعه. فأنتَ كاتب أليس كذلك؟ تملك العنوان، وعدة جمل من إعلان عرض الفيلم، وثلاث أو أربع صور على الواجهة. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ غاوستين، ليس هناك رجل مثله. لم يكن يمزح. فلم يمتلك أي حس نكتة. مثل كل الناس المهووسين. مثل الذين خرجوا عن الطريق، حسب ما تقول جدتي. مثل الثوريين والإناث، حسب ما يقول نيتشه.

السينما للفقراء. مثل ذلك التاماغوتشي للفقراء الذي تتحدث عنه إحدى النكات القديمة. التاماغوتشي، إذا ما زال يتذكره أحد، هو لعبة يشبه شكلها شكل جهاز المناداة أو البيجر (هل يجب أن أشرح ما هو البيجر أيضًا؟) وأنت تعتني بحيوانك الأليف الإلكتروني، وتطعمه في ساعة معينة، وتُشربه، وإذا بدأ بالتذمر، يجب أن تلعب معه. وإن ضقتَ به ذرعًا تهجره أيامًا دون طعام حتى يموت. أين اختفت ألعاب التاماغوتشي هذه؟ لعلها ذهبت إلى أجهزة المناداة القديمة. لا يعرف الإنسان قدرته على إنتاج مثل

هذه الكمية الكبيرة من الموت.

أعرف أنني أنحرف عن الموضوع، ولكن لنقف دقيقة صمت على أرواح كل من:

أجهزة البيجر من ذاك الزمن

ألعاب التاماغوتشي

أجهزة الفيديو وأشرطة الفيديو

التي دفنت آلات التسجيل الصوتي

التي دفنت أجهزة الغراموفون

الأشرطة السمعية

البرقيات مع كل طقوسها

الآلات الكاتبة (وهنا اسمحوا لي أن أقول "وداعًا" لآلتي الكاتبة "ماريتسا"، المملؤة برماد السجائر والقهوة من أيام التسعينيات). هل تتذكرون أن الطباعة على الآلة الكاتبة كانت تتطلب بذل جهد بدني، ونوعًا آخر من الحركة؟

انتهى، مضت الدقيقة. عما كنا نتحدث؟ السينما للفقراء، نعم، ولكن أولاً يجب أن أخبركم النكتة. لم يستطع كل شخص دفع ثمن التاماغوتشي، فظهر التاماغوتشي للفقراء. وهل تعرفون ما كان؟ كان صرصورًا محبوسًا في علبة كبريت. إنه هكذا بالضبط. لعله الآن لم يعد يثير الضحك، لكني مصرّ على جمع هذه الخردوات، كل الأشياء التي قد ذهبت، وليست موجودة، وماتت. كل هذا لعله يُسمع بعكس العبارة: "ليحملها الطوفان ولتبقَ على قيد الحياة، ولتتوالد وتثمر وتكثر على الأرض"... ارتبكتُ تمامًا. فلا

أدري إذا كانت الأشياء التي أخرجها الآن بدون ترتيب وبشيء من الذعر من طوفاني الخاص، لا أدري هل تستطيع العيش والتوالد أيضًا؟ أعرف أن الماضي جديب مثل بقرة عقيمة، مما يزداد حنيني إليه.

لم تثمر تلك الفكرة بشأن سينما الفقراء. ولن أقول إلا إننا لم نكد ننجو بجلدنا بعد أن حاولت إخبار المجموعة الأولى من المستمعين حكاية فيلم لم أشاهده.

وبنفس الطريقة تقريبًا انتهى مشروع 〖قصيدة شخصية〗.

لا عملَ مخجلَ – قال غاوستين ذات صباح. تَقِفُ مثل الرسامين في الشارع، الذين يريدون رسمك مقابل ثمن معين، تَمْسَكُ ورقة وقلم رصاص وتقول: هل تحبين أن أكرس لك قصيدة؟ فكل فتاة جميلة تملك الحق في قصيدتها. (أعتقد أن هذه اقتباسة). لن يأخذ من وقتك سوى عشر دقائق.

وها أنا جالس على أحد المقاعد في الحديقة أمام مقهى كريستال، بين يدي قلم وبعض الورقات، وأمامي لوحة تشير بحذر إلى تقديم خدمة "قصيدة شخصية". ومع نهاية الساعة الثانية من جلوسي بلا عمل اقتربت مني امرأة في الخمسين من عمرها تقريبًا. لم نحسب حساب هذا الأمر. لا أدري لماذا كنت أتخيل أن الزبائن سيكونون من بين البنات في سن العشرين فقط. كانت سمينة بعض الشيء وتشبه شخصية شريرة من فيلم رسوم متحركة سوفيتي. كانت تريد قصيدتها الشخصية. مضت الدقائق العشر المعينة. ولا شيء. كان رأسي فارغًا ومجوفًا، كأنه قبو لا يُسمع فيه سوى سيل الدقائق وقطرها واحدة بعد الأخرى. ويزداد حزني على كلينا. بدأتْ تعرق، أخرجت منديلاً، "هل أستطيع التحرك؟"، "نعم، طبعًا، فأنا لا أرسمك". "إلى أين يجب النظر"، "لا بأس، يمكنكِ النظر إلى الجانب قليلاً، ليس لأَزما أن تنظري إلي، أشعر بالخجل قليلاً". كانت إما امرأة رومانسية أو أنها كسبت

فجأة ثروة. ويتعرى إخفاقي بكل دقيقة تدوي في اللا شيء. في النهاية قررت قطع العِرق وتسييح الدم. رفعت رأسي، نظرت إلى عينيها مباشرة وقلت: "في الحقيقة... اليوم لديك هالة تعرقل قدرتي على التركيز. هل تستطعين المرور علي مرة أخرى؟"

تلك الأيام كانت كل الصحف تتناول موضوع الهالات والمخلوقات الفضائية. وأثّرت كلماتي عليها، والمرأة بدلاً من تصفعني، أشرق وجهها. وقالت إني شاعر حقيقي وهي فورًا فهمت هذا. لا يقدر على التقاط الهالات سوى الشاعر ذي الموهوبة الفطرية. (كأن الهالات أسماك). أخبرتني بأنها تعيش بالقرب من هذا المكان ودعتني إلى بيتها لنشرب كأس نبيذ. وافقت وخاصة لأنني أحس بالذنب. وقد تبين أنها تعيش وحيدة، أخرجت قنينة نبيذ، وبالرغم من وفرة المقاعد الفارغة، جلستْ قريبًا جدًا مني على الأريكة، وضغطتني بجسمها. "أأأ...، أرجوك، فأنا شاعر" قلت ونهضت بسرعة. كأنني أردت أن أنبهها إلى أن شغلي مرتبط بالهالات فقط ولا علاقة للأجسام باختصاصي.

رررَنْ نْ نْ نْ – رنت صفعتها، وألقت هذا المشروع هو الآخر على كومة أفكار غاوستين العظيمة وغير المفهومة من الناس.

أما مشروع "بريتا بورتيه للعوازل الذكرية" فاعتنى به غاوستين نفسه.

كان عليه أن يذهب إلى أهل الثراء ويوضح أنه يقدم لهم كنزًا. عاد كسير القلب. جلسنا، سكبنا كأسًا من كوكتيل "البقرة الخضراء" (حليب وليكيور بالنعناع) وأخبرني بالتفاصيل أنه ما أن دخل تلك الشركة الغنية غاية الغنى، حتى فهم أنهم لن يقدروا أهمية الفكرة.

عرضُ عوازل ذكرية. إنها ثورة – كان يردد متحمسًا.

عرضُ الثورة - قلت.

احفظْ هذه العبارة غيبًا، إنها جيدة جدًا - أشار عرضًا ثم تابع. هل تفهم، لم ينظم أحد مثل هذا "بريتا بورتيه". في مجال البيزنس يحدث كل شيء، ولكن لم يصل أحد إلى عرض هذا الأكسسوار، يتحمس غاوستين. إنها تقليلية تامة. منتجو العوازل الذكرية يستثمرون الأموال بجنون. أما أولئك، فقد سألوني: لكن كيف سيمشي العارضون على ممر عرض الأزياء وعليهم العوازل الذكرية؟ أولاً، ستقوم الدولة بضربنا من خلال قانون البورنوغرافيا، ثانيًا، لن تبث أي قناة تلفزيونية مثل هذا الـ"بريتا بورتيه". أو إذا بثته، فستلصق مستطيلاً أسود في ذاك المكان تمامًا حيث مركز العرض.

وأخيرًا، ها ها هههه، قعقع أولئك بضحكة، من يضمن الانتصاب المستمر خلف ستائر المسرح؟ من؟ هل تتخيل كم من الجهد يجب بذله. كما هو الأمر عند تغيير الإطارات في "فورمولا 1". ها ها ههههههه... سيحتاج العارضون إلى نفخ مستمر.

انتظر غاوستين حتى تنتهي مزاحاتهم وقال ببرودة. هيا الآن أُخرجوا ببطء القضيب من أفواهكم. في الحقيقة لن يحتاج العرض إلى العارضين.

كيف هكذا؟ اندهش أصحاب الشركة.

كي نتجنب كل هذه المشاكل، قال غاوستين، سنستخدم تماثيل إفريقية شعبية، فلكل واحد منها فالوس كبير.

ماذا؟ لها ماذا؟ سألوا، إذ أنهم لم يفهموا معنى الكلمة.

وردد غاوستين بهدوء: ذات فالوس كبير منتصب.

"أير"، أوضح لهم رئيس الشركة.

وفي الختام قال غاوستين: هكذا سنُدخل الفن في البزنس، لأن في الفن فقط لا يعد الفالوس المنتصب جزءًا من البورنوغرافيا.

جعلوه ينتظر في الخارج، حتى اتخذوا قرارًا. استدعوه ساعة بعد ذلك ورفضوا عرضه. بسبب الفن. قالوا: من يريد رؤية تماثيل إفريقية ذات قضبان منتصبة؟ قالوا أيضًا إنهم ليسوا ضد الفن (ولا ضد الإباحية، بالتأكيد)، ولكن في هذا الحال، فإنهما ليسا مربحين.

فدخلت هذه الفكرة هي الأخرى مستودع الإخفاقات. جيد، أُدخلْها في المفكرة – قال غاوستين. يبدو أننا سبقنا اللحظة التأريخية. ذات يوم سيناضلون من أجلها. هكذا كان غاوستين يذخر كنوزه في مخزن المستقبل، حيث كنت أنا الخازن فقط. فالكتابة في آخر الأمر هي تخزين للفشل. لو سمع غاوستين هذا الكلام، لغضب فعلاً. أكاد أسمعه يصيح: ليس بفشل ما لم يحدث بعد.

إني متأكد من أنه الآن في مكان ما، غير هذا المكان والزمان، إني متأكد من أنه مخترع عبقري حقق نفسه، أو مخادع عظيم.

هنا في مفكرة الإخفاقات البنية تنام أيضًا مشاريع غاوستين المخفقة التالية:

"خزنة الحكايات الشخصية". الاستماع إلى الحكايات وتخزينها وحفظها بسرية تامة لمدة معينة من الوقت. وفقا لإرادة الزبون، يمكن نقل حكايته إلى ورثته بعد وفاته.

"عرض الصور علي شاشة السينما" (أحد مشروعاته العظمى). جهاز فائق القدرة يعرض الصور على شاشة السماء كلها. في البداية لم يكن لغاوستين تصورًا واضحًا عن الصور التي سيتم عرضها على الشاشة، لكن

الفكرة بإنشاء هذه السينما السماوية الصيفية كان تملأ قلبه بخلجات. مثل هذه المساحة المترامية لا يجوز أن تبقى فارغة وغير مستخدمة. هل تتصور كيف يمد أهل نصف الكرة الأرضية أعناقهم إلى الأعلى ويشاهد الجميع صور شاشة السماء في آن واحد؟

بعد شهر أخذ المشروع شكلاً أكثر تحديدًا. سيتم عرض الصور على الغيوم مباشرة، ومن الأفضل إذا جرى العرض في ظروف تشكل سحب منخفضة كثيفة.

وماذا ستعرض؟

بدايةً، الغيوم مثلاً.

الغيوم؟

الغيوم فوق الغيوم. هيا نرى كيف تستجيب الطبيعة لمثل هذه المضاعفة، للطوطولوجيا. ومن الأجمل، لو عرضنا المطر. تخيلْ فقط: المطر السينمائي من الغيوم الحقيقية. في اللحظة الأولى يهرب المتفرجون من الخوف. كما هو الشأن في فيلم "وصول القطار إلى محطة لاسوت" عام 1898. في أوائل السينما وأواخرها يوجد رعب طبيعي.

بالإضافة إلى ... "حديقة الروايات". نزرع الروايات الكلاسيكية في تربة خصبة، نرويها ونسمّدها، وننتظر أيًا منها تعقد الثمار. إنه مشروع استئناف التوازن – ما صُنع من خشب يعود إلى الأرض من جديد.

هنا كذلك مشروع "تشكيلة دقيقة". وهي مجسّمات صغيرة مصنوعة من السلك مشكّلة بحسب المسار الذي طارت به ذبابة المنزل العادية لبعض ثوانٍ أو لدقيقة، حيث يصور السلك بدقة كل خطوط منحنيات الطيران.

بالإضافة إلى "عرض الصور الفوتوغرافية للسماوات فوق المدن

المختلفة التي تم تصويرها في الثالثة بعد الظهر". وماذا لا يوجد بعد...







غاوستين. مشروعه الوحيد الذي تكلل بنجاح كان اختفاؤه. ذات ليلة أتى إليّ للوداع، سألته إلى أين يسافر، وكنت متأكدًا من أن فكرة جديدة خطرت له. أسافر إلى سنة 1937، قال ببساطة. ظننته مازحًا. قلت: لا تنساني. كانت التسعينيات تصخب ولم تكن هناك فترة أكثر إمتاعًا منها، ومع هذا قرر أن يغادر. لم أخمن (حتى الآن) ماذا يدور في رأسه. ولكنني عندما تلقيت رسالته الأولى وبعدها بطاقتين أو ثلاثًا، كتب فيها بالخط القديم الخاص بالثلاثينيات – نعم، أعتقد أن كل عقد له خط خاص به – أدركت أنه هذه المرة بالمقارنة مع محاولاته الأخرى، هذه المرة انتهى الأمر بنجاح.

(لقد رويت المزيد عنه في قصص أخرى).

بعد ذلك بسنوات عديدة، بعد ظهر يوم شتائي، رأيته في مقهى مطار لندن. كان منشغل البال، كما بدا لي عن بعد وهو يتصفح مجلة. كنت مستعجلاً، لأن طائرتي ستقلع بعد دقائق، واندفعت إليه بقوة، كي أرحب به فقط، حتى كدت ارتمي على طاولته. نظر إلي نظرة باردة، لاحظت أنه يلبس قميص بولو ذا ياقة عالية من طراز قديم لا يرتديه أحد الآن، هل تعرفتُ عليك من قبل، يا سيدي؟ وقفت في انصعاق عدة ثوان، ثم سمعت اسمي مع النداء الأخير لركاب الطائرة، واندفعت أعدو في اتجاه عكسي. لاحظت قبل ذلك، أن المجلة التي يقرأها غاوستين، كانت من أعداد مجلة "تايم" سنة 1968، وكانت مفتوحة على صفحة المقالة المكرسة لحرب فيتنام. حدث هذا في شهر يناير عام 2007.

بعد ذلك بسنوات، وصلتني رسالة هاتفية في الثالثة ليلاً:

عرفت أن بول القطط يشعّ في الظلام. ربما تثير هذه المعلومة اهتمامك.

كانت بدون أي اسم تحتها، ولكن لم يكن هناك سوى مرسل وحيد ممكن. على الأقل انتقل إلى سنة أقرب من سنتنا (إلا إذا كان قد تحول إلى قطة).

ذكرت صحيفة "تايمز" البريطانية مؤخرًا اختراعًا جديدًا وهو شركة سياحية لسياحة افتراضية، حيث يتمتع بهذه الخدمة رجال أعمال أغنياء، مشغولون جدًا ومائلون إلى ادّخار الأموال (أو إلى التمتع بحياة مزدوجة).

تقدم الشركة هدايا تذكارية من رحلات سفرية لم تقع في الحقيقة. فأنتَ تحصل على كل الأدلة المادية للرحلة، بما فيها الختم في جواز السفر، والصور، ومثلاً تذكرة متحف اللوفر، أو صدف من الريفييرا الفرنسية. (وربما يمكنك الحصول على ساندويتشات من جزر ساندويتش). يخبرونك كيف جرت رحلتك الخاصة، يجهزونك بطقم الذكريات. بحيث تستطيع أن تصدق أنك فعلاً قمت برحلة. ظننتُ للحظة أن غاوستين كان يلمّح لي بهذه الفكرة.

الفصل الرابع

قنبلة زمنية
(تُفتح بعد نهاية العالم)

شيخوخة متقمص وجداني

في زمن ما، كنت أستطيع أن أكون في كل شيء، أن أكون كل شيء. والآن، في كهولتي ومع انعدام الموهبة، أردت أن أجمع كل شيء، تعويضًا صغيرًا عما فقدته.

شيخوخة المتقمص عملية غريبة ومُوجعة. فالدهاليز المؤدية إلى الآخرين وحكاياتهم، التي كانت مفتوحة من قبل، أجدها الآن دهاليز مسدودة. إنه حبس إجباري في بيتك/ جسمك.

في الماضي، بين حين وحين، كنت بحاجة إلى أن أنغلق في الظلام، حيث لا شيء أريده أن يوقظ تقمصي الوجداني، أن أبقى في اللاشيء وظلامه العلاجي، أن أملك زمام بعثرتي الذاتية، أن أسدّ الطريق على فيض أشجان الآخرين وقصصهم.

كل ما أريده الآن هو تذكر بعض الأيام بتلك بحدّة ذاكرة الطفولة، التي دخلتُ من بابها كل حكاية غريبة كما لو كانت حكايتي. ما اسم ذاك التشخيص؟ ... المتلازمة البدنية التقمصية الراديكالية... لم أعد قادرًا على الشعور بما يشعر به الآخرون، وليس لدي إلا ذكريات تلك الحالة، ولكن يا لها من الذكريات، تطير مثل النيازك في الظلام. أحيانًا (من جديد) أنا مينوتور، وأحيانًا أخرى أنا الكلبة لايكا، أهجر امرأة خلال زمن الحرب، وأرى أبي ذا التسعة أشهر وأنا سعيد، ويتركونني في الثالثة من عمري

بساحة مطحنة في أوائل القرن، يقتلونني قرنًا بعد ذلك بصفتي ثور في ساحة الكوريدا بمدينة ت. ...

عندما أحسست بأن تلك القدرة تبدأ تتلاشى، أي أنني بدأت أتجرد من التقمص الوجداني، كما سيقول طبيبي مازحًا، لجأتُ إلى هذا البديل الخفيف وهو رغبتي في التجميع. شعرت بحاجة ملحة إلى أن أوفر الأشياء وأرتبها في علب كرتونية ودفاتر، في قوائم وتصنيفات. أن أنقذ الأشياء من باب الكلمات. ودائمًا إذا تخلت فكرة وسواسية عن مكانها، تحتله فكرة أخرى. في الماضي كنت قادرًا على أن أسكن كل أجسام العالم، أما الآن، فأشعر بسعادة إذا استطعت الانتقال من غرفة إلى غرفة أخرى في بيت جسمي. لا أعرف إن كنت قد قلت لكم، لكنني أقضي أطول فترة من الزمن في الغرفة الأطفال.

مَن أنا. رجل في الرابعة والأربعين، ساكن قبوًا ذا جدران خرسانية سميكة، كان من قبل ملجأ للحماية من القنابل. أقول إني في الرابعة والأربعين، لكن أضيفوا إليه عمر جدي، الذي ولد عام 1913، وأضيفوا عمر أبي، الذي ولد في نهاية الحرب العالمية الثانية، وعمر جولييت أمام السينما، وغاوستين المائل إلى الغياب، أضيفوا سن المزيد من الناس الذين سكنتُ أجسامهم فترة قصيرة أو طويلة، سن قطتين، وكلب، وبعض البزاق، و ديناصورين – هيكلاهما العَظْميان في متحف التأريخ الطبيعي في برلين. أضيفوا إلى كل ذلك أحد المينوتورات، الذي لم يخرج أبدًا من بيت جسمه وسنه لا تُعدّ.

أحيانًا أنا في الرابعة والأربعين، وأحيانًا أخرى في الواحدة والتسعين، أحيانًا أسكن متاهة مغارة أو متاهة قبو في ليل الزمن، وأحيانًا أخرى أسكن ظلام رحم وأنا لم أبصر النور بعد.

وفي أغلب الأحيان أنا في العاشرة.

هل سأموت مثل كل هذه الأشياء في آن واحد؟ "وقال لهم: انقراضي سيكون شاملاً، انقراضي سيكون شاملًا، قال لهم ..." مثلما تقول أغنية الأطفال عن الديناصورات، من أين أعرفها؟

عدّة الإسعاف لِما بعد نهاية العالم

ها هي المفكرة الأولى التي تتضمن بعض التعليمات، والتي بدأت أدوّنها في أواخر السبعينيات، عندما تبين بها لا يدع مجالاً للشك أن الحرب العالمية الثالثة لا مفر منها، وبالتالي لا مفر من نهاية العالم.

أفتح صفحتها الأولى المكتوبة بخط غامض.

"الكائنات البشرية تحب التعانق. لو التقيتَ صدفة بكائن بشري ناجٍ فيجب أن تَفْتَحَ طرفيك العلويين وتمدّهما واسعًا وتحيطه بهما، ثم تشدّه إلى جسدك بخفّة. وللحصول على أفضل النتائج، من الأفضل أن تبقي ذراعيك في هذا الوضع أطول وقت ممكن".

(يليه رسم تخطيطي يدوي لناس متعانقين).

"سيحمل هذا للكائن البشري راحة كبيرة. ومن الممكن أن يبكي وتذرف عيناه مادة سائلة شفافة. الكائنات البشرية تحب البكاء. هذا ليس أمرًا مرعبًا، ولا يسبب الموت. هناك شيء أخطر منه وهو إذا تدفق من مكان ما مادة سائلة حمراء وأظن أنها لزجة بسبب خلايا الدم الحمراء. ويجب إيقاف النزيف فورًا، وإلا فَقد حان الموت. والموت هو ..."

وهنا توقفت عن الكتابة. ليس لأنني لا أستطيع شرح حالة الموت. لقد بلغت الثانية عشرة وأدركت معنى الموت، وأستطع أن أنسخ تعريف الموت

من كتاب علم الأحياء: "حالة توقف الكائنات الحية عن القيام بالنشاطات الوظيفية الحيوية تسمى ...". ولكن هل ستكون لغة هؤلاء الذين سيجدون المفكرة قد تطورت في اتجاه المنطق نفسه؟ وهل تتبع المفردات هذا المنطق أو هل يستعمل أولئك لغةً إطلاقًا؟ وهل يعرف هؤلاء الذين يأتون وراءنا ما معنى كلمة "أحمر" مثلاً. فيمكن أن يسموا الأحمر بكلمة أخرى، مثل "أزرق". أو "طماطم". أو "كترنط". أو قد لا يستعملون مفردات يسمون بها الألوان:

أ) لأن عيونهم ستكون من بين الأعضاء الأثارية لديهم منذ زمن، بحيث يعتمدون على أعضاء حسية أكثر تقدمًا.

ب) لأنهم لا يستطيعون قراءة الأحرف، فهذه عادة مندثرة بالنسبة لهم. إنهم أُمِّيون، ربما هو نوع آخر من معرفة فوق المعرفة...

ومن أجل ضمان أكثر، أضفت في الأسفل:

"إذا وجدتم هذه المفكرة، سيكون من الأفضل أن تبحثوا عني، فسأشرح كل شيء لكم وجهًا لوجه، عندما نتقابل في الحياة (لو كنت على قيد الحياة). سأكون في قبو المدرسة (مدخله تحت الدرج)، أو في ملجأ الحماية من القنابل تحت مصنع التبغ، الذي يبعد ثلاث أزقة عن المدرسة".

ويأتي توقيعي. بعد ذلك قررت أنه لا يكفي، فأضفت اسمي الأول، واسم أبي، واسم العائلة، وكذلك وصفًا مختصرًا. "لون العينين أزرق يميل إلى أخضر، وفي الصيف أكثر خضرة، الشعر – أشقر، الطول – طويل القامة، الأنف – ذو شكل عادي، بدون علامة مميزة". تمامًا كما في جواز سفر جدي.

ولكن عبارة "بدون علامة مميزة" لا تساعد كثيرًا في عملية تشخيصي، فأضفت: "ذو جبين عريض مع نتوء فوق العينين (هذا ما سمعته مرةً عندما

فحصني طبيب المدرسة) وشامة تحت الشفة السفلى في اليسار. لقد عرفت أن الناس الذين لم يروا بعضهم البعض منذ زمن، يتم تشخيصهم من خلال الشامات. أضفت كذلك، أنني في عام 2000 سأكون في الثالثة والثلاثين، الآن هذه الإضافة تبدو لي أمرًا ذكيًا. ولأن متوسط العمر المأمول عند الكائنات البشرية يتراوح ما بين خمسة وسبعين عامًا، حيث يعيش الذكور عادة فترة أقصر من العمر، فلعلني بعد سنة 2050، لن أستطيع مساعدتهم. لكنني حتى ذلك الحين سأكون في خدمتهم. ويأتي من جديد توقيعي في الأسفل.

يضع الولد (أراه بوضوح في ذكرياتي) مفكرة التعليمات في علبة معدنية مستديرة "Singer" ، وهي الشيء الأثمن الذي يملكه. كان جده يقول إن هذه العلبة يعود تأريخها إلى ما قبل التاسع من سبتمبر . ودائمًا إذا أرادوا القول إن هناك شيء قديم جدًا، يقولون إنه "منذ ما قبل التاسع من سبتمبر". يُسمع كأنه "منذ ما قبل الميلاد". وأغرب شيء هناك أن جدته وجده هما أيضًا "منذ ما قبل التاسع من سبتمبر"، إنه شيء لا يصدّق. العلبة مزخرفة بأحرف أجنبية، على غطائها حرف كبير أحمر S، وتلفّ الغطاء زخارف ذهبية. سنوات عديدة بعد ذلك، أثناء كل رحلته، بينما يتأمل تفاصيل البيوت واللوحات الفنية منذ فترة بداية القرن، سيعرف أن طراز "أرت نوفو" كان جزءًا من طفولته بفضل تلك العلبة. علبة خياطة عادية مع بكرات الخيط فيها، يقدمونها هدية لك عند شراء ماكينة الخياطة "سينجر".

من يدري لماذا، لكن ماكينة "Singer" نفسها اختفت "بعد التاسع من سبتمبر". إنه التأريخ الغامض المظلم الثاني. ما يوجد "قبل التاسع"، يختفي "بعد التاسع". على الرغم من أن علبة الخياطة ما زالت موجودة، واستطاعت بطريقة ما أن تتوغل سرًا من النظام السياسي إلى الآخر، بحيث يمكنه أن

يحفظ فيها كل كنوزه. والمعدن الذي صُنعت منه العلبة متين إلى حد احتمال نهاية العالم، لذلك سيضع في داخلها مفكرة التعليمات أيضًا. ولضمان أكثر، يضع علبة "سينجر" في علبة للطحينية وهي مستديرة وأكبر منها. صحيح أنها ليست جميلة مثلها، وأنها كذلك تصدأ بسهولة، لكنها بهذا ستكون أكثر أمانًا، وذات درع مزدوج. فهل هناك مَن تجذبه علبة قديمة للطحينية فيسرقها؟ ثم قطع ورقة من المفكرة، وضع عليها من أنبوب اللاصق شبه الجاف، وألصقها على الغلاف المكتوب عليه "طحينية". ثم كتب عليها بحروف مطبعية متمهلاً في الكتابة:

"تُفتح بعد نهاية العالم!"

لا يعرف من أين، لكنه يعرف، أن نهاية العالم ليست هي النهاية. فبعدها يجب العودة إلى الحياة، وبدايتها من جديد.

قرأ في إحدى الموسوعات أن أهم اختراعين في تأريخ البشر هما النار والعجلة. لذلك فإنّ أول شيء وضعه في العلبة هو علبة كبريت. وبعد قليل من التردد أضاف لعبة سيارته المفضلة. إذ إنهم أولاً سيفهمون ما هي العجلة وكيفية استعمالها، ثم سينتجون سيارة حقيقية وفقًا للطراز الأولي المرفق. هكذا بالكبريت والسيارة الصغيرة الحمراء يبدأ بتحضير عدّة النجاة هذه في حالة الأبوكاليبس. ثم أضاف قارورة اليود، بعض الضمادة، نصف علبة أقراص الأسبرين، وذاك المرهم المسمى "أعجوبة فيتنامية" الذي يحتوي على المادة الرهيبة "شحم النمر" وله رائحة حادة وحامة، والقدرة على علاج كل شيء – من أمراض البرد إلى لدغات البعوض. إنها الصيدلية المنزلية المخصصة لفترة ما بعد نهاية العالم. وهذه بدايةً جيدة سوف تخدمه.

أخرج من الشخص المتكلم وأعدو نحو مخبأ الغائب، وأُرسل شخصًا آخر إلى حقول قنابل الماضي. نفس الشخص، الذي كان من قبل المتكلم، كان هو أنا، وأخاف أن أسأل هل هو على قيد الحياة. هل الأشخاص الذين كنا نحن من قبل، هل هم على قيد الحياة؟

استعداد مزدوج

1980. من جانب كان الأبوكاليبس، الطوفان، نهاية العالم، حسب ما قالته جدته والقديس يوحنا. ومن جانب آخر يتربص "جيمي كارتر"، مبتسمًا مكشرًا عن أسنانه (ومدججًا بأسنانه)، على رأسه قبعة راعي البقر، راكبًا صاروخ "بيرشينج" كما يرسمونه في الصحيفة التي يقرؤها أبوه. في المدرسة كانوا يبثون باستمرار تلك الصور المشهورة لإسقاط القنبلة النووية وانفجارها على شكل فطر، والذي جعله يتجنب بحذر كل فطر نبت صدفة في الحديقة، كأنه يمكن الانفجار من تحت صندله.

الأبوكاليبسان - أبوكاليبس جدته والأبوكاليبس المدرسي الرسمي لم يتزامنا تمامًا، مما جعل الحالة تتعقد. ويبدو أن الأمر كان مرتبطًا بنهايتين مختلفتين في العالم، كأن نهاية واحدة لم تكن كافية. وإذا أراد شخص النجاة، فعليه أن يستعد لكل منهما.

كما وتختلف طرق الوقاية بعضها عن البعض. توقفت جدته عن ذبح الدجاج وتركت اقتراف هذه الخطيئة لجده. تعتقد جدته أن الإنسان يجب أن يتوب، ويصلي، ويتجنب ارتكاب كل الآثام باستمرار. كي يقلل حصة ذنوبه، توقف هو بنفسه لفترة من الزمن عن إجراء تجاربه مع النمل، وحاول ألا يكره كرهًا شديدًا تلك المخلوقة البشعة المسماة ستيفكا الجالسة خلفه في

المدرسة، والتي لا تتوانى عن السخرية منه بسبب احمرار وجهه خجلاً. لا يتذكر آثامًا أخرى.

أما الوقاية من السلاح الكيميائي والنووي، فكان أمرًا أكثر تعقيدًا. وعليك أن تلبس قناع الغاز بسرعة البرق. "بسرعة البرق" كانت العبارة المفضلة لدى معلمنا في التربية العسكرية الابتدائية. وفورًا بعدها – معطف مشمع، قفازات مشمعة، أحذية مطاطية، وتعدو نحو أقرب مخبأ. وإذا كان المخبأ بعيدًا، فيجب أن تسقط أرضًا على الوجه في عكس اتجاه الانفجار الذري وألا تنظر إلى فطر القنبلة النووية، حتى لا يصيب بصرك.

كان يعرف، مثل بقية أقرانه، كل شيء عن المواد السمية الكيميائية منها سارين، وسومان، وغاز الخردل، وتأثيراتها الخطرة في الجسم البشري. أصبحوا خبراء في الغازات السمية، والسلاح الكيميائي والبيولوجي، والقنبلة النووية والنيوترونية، وصواريخ "بارشينغ" و"كروز".

كي لا يتفاجأ، كان يدرّب نفسه من أجل السيناريوين المباغتين. ومهما يحدث، فعليك أن تلبس القناع المضاد للغاز وتستهل بالصلاة. في أحد التدريبات حاول لفظ الصلاة وعلى رأسه القناع، لكن لم يُسمع إلا خرخرة في الخرطوم، وحلّ الغبش على زجاج القناع الضيق.

"ما لك تهلوس يا غُر؟" نهره معلم التربية العسكرية، الذي كان ضابطًا يرتدي بذلة عسكرية والكلّ يخاف منه. "إذا تحدثتَ، ستهدر الأكسجين بسرعة".

مَن يستطع لبس القناع في الوقت المحدد، (نسيتُ مدته)، فسوف ينجو. مَن لم يستطع، فسوف يذوب مثل العرجاء "جيفكا" ذات اليد اليسرى الضامرة.

في الاستراحة بين الدروس، كان يجلس وحيدًا على المقعد، مفكرًا ما إذا كان والداه يستطيعان لبس القناع في الوقت المعين. إن لم يستطيعا، فلما كان هو بحاجة إلى النجاة؟ أما جدته وجده، فكانا يتحركان ببطء، إذًا ليس لديهما أي أمل في النجاة. أولاً يجب على جدته أن تأخذ نظاراتها، وهي لا تعرف أبدًا أين هي، ثم عليها أن تجد كيس القناع المضاد للغاز، وتنادي جده، الذي سيكون في مكان ما عند البقر... وهذا بالتأكيد يتعدى الثواني المحددة لارتداء القناع.

مر جانبي

إن أي شخص يرتدي القناع المضاد للغاز يشبه المينوتور.



الموت شجرة كرزٍ تنضجُ دون حضورنا

"إن هذه القنبلة لن تدمر شيئًا. ستبقى البيوت بكاملها، ستبقى المدرسة بكاملها، ستبقى الشوارع والأشجار، وثمار شجرة الكرز في الفناء ستنضج،

نحن وحدنا لن نكون. هكذا أوضحوا لنا اليوم في المدرسة عواقب القنبلة النيوترونية".

من مفكرة التعليمات، عام 1980

لم أفهم دقة هذا الوصف إلا الآن. فالشارع موجود، والأشجار موجودة، وها هي شجرة الكرز، نحن وحدنا موتى. لم يبق شيء منّي، المُنقذ السابق للعالم. يعني أن هناك مَن ألقى القنبلة النيوترونية. وهو أمر يؤكده غياب جدتي، وجدي، وأبي، وأمي، وذاك الولد الذي من الصعب علي أن أتحدث عنه بصفتي الشخص المتكلم.

لم يخترع أحد بعدُ قناعًا مضادًا للزمن وملجأ للحماية من الزمن.

ملجأ للحماية من الزمن

في اليوم التالي بعد الأبوكاليبس لن تصدر أي صحف. يا لها من سخرية. أهم حدث في تأريخ العالم، ولن تتناول موضوعه أي جريدة.

لكن وقت الآن هو وقت من قبل. وعلي أن أسرع ... كي أُكمل عملي.

امرأة إيرانية حُكم عليها بالرجم حتى الموت بتهمة الزنا. وتقول المرأة في مقابلة أمام صحيفة أوروبية: "كلّ ما أريده هو ألا يرجمونني أمام ابني". صورة فتاة أفغانية على غلاف مجلة "تايم"، مقطوعة الأنف والأذنين. إنها صورة صادمة، ففي مكان الأنف ثقب أسود كبير.

اندلاع حريق كبير بالقرب من موسكو، يغطي دخان خانق المدينة، ويزداد عدد الضحايا كل يوم. فيضانات في أوروبا. طوفان في باكستان...

أنسخ عناوين المقالات من الصحف. حيث تشير تواريخها إلى شهر أغسطس، عام 2010. قد قرأت مثل هذه الأخبار في العهد القديم وبعض أخبار القرون الوسطى. سيكون من الطريف، لو تم كتابة يوميات مؤلفة من عناوين الجرائد فقط. طوفان... حريق... انفصال... أطوي الصحيفة بعناية، ثم مرة أخرى، ومرة أخرى، حتى تتخذ حجم منديل ورقي، بحيث لا يُقرأ إلا بعض مقاطع المفردات... فان... حر... نف. أدسها في علبة كرتون مكتوب عليها "سهل الكسر" (Fragile).

أحاول أن أسجل كل شيء بدقة في كتالوج. من أجل الوقت، حيث "الآن" سيكون "فيما سلف"، كما كنا نكتب في ألبومات أيام المدرسة، التي نسقيها بغزارة دموع الشباب الرخيصة. حمدًا لله أن القبو في الحقيقة ملجأ كبير للحماية من القنابل، ورغم كل الأشياء التي راكمتها في السنوات، ما زال فيه مكان فارغ كافٍ. كنت مصرًا على ذلك عند شراء المنزل. إنه قبو جميل وواسع، شقة تحت الأرض بكاملها، فيها دهليزان، وحيطان تشكل تجاويف وتقاطعات. أستفسر من المالك مطوّلاً عن سمك الجدران، وسنة بناء المنزل، وما إذا كانت هناك فيضانات في الماضي، وإلخ. كان مندهشًا جدًا. ربما ندم على أنه لم يرفع السعر قليلاً. "هل تنوي العيش في القبو؟" قلت: "لا". وفي اليوم التالي نقلت إلى القبو أهم حاجات العيش. أقضي فيه أغلب وقتي. أشعر براحة كما لو كنت في بيتي. والطابق فوقه أستخدمه أكثر بكونه إثبات الغيبة. لو بذل شخص جهودًا معينة كي يبدو شخصًا عاديًا، لكسب المزيد من الوقت، الذي يمكن أن يكون فيه كما يريد أن يكون.

نشرت الصحف مؤخرًا خبر اكتشاف يوميات الدكتور جوزف منجيل، الذي عاش أيام شيخوخته مختفيًا في أميركا اللاتينية. كان منجيل كتبها في

الفترة ما بين 1960 و1975، في دفاتر سلك عادية. وهي مملوءة بالكتابات عن الوقت الذي عاش فيه، وبعض الأشعار والأفكار الفلسفية، وكذلك التفاصيل المتعلقة بسيرته الذاتية. إنه إثبات غيبة الحياة بكل تفاصيلها البريئة.

1 يناير

لست ناسكًا، لدي في القبو جهاز تلفزيون (لا أشاهد إلا أخبار المساء)، أنا مشترك في ثلاثين مجلة وجريدة تقريبًا، إذ أنني لست بأي ناسك. فعلي أن أتابع تطورات العالم عن قرب، وأجمع الإشارات.

أقرأ " الخطابة والشعر" لأرسطو وأستمع إلى أسطوانة قديمة نجت. حسب أحد التقاويم، اليوم هو اليوم الأول من يناير للسنة الأخيرة في حياتنا. الهدوء غير عادي حتى لو كان الوقت ظهرًا مثل الآن. لا رنين الهاتف، لا رسائل التهنئة الهاتفية، كما هو عادة في هذا اليوم. أقفل الهاتف كي أضمن إثبات غيبة هذا الصمت.

تقول الصحف التي جمعت منها المعلومات من قبل أن unfriend هي كلمة سنة 2009. أتجرد من الصداقة. يبدو لي أنني في السنوات العشرة الأخيرة لم أفعل سوى هذا. على مدى السنين يختفي الأصدقاء عن طريق مختلف. يغيب بعضهم فجأة كأنهم لم يكونوا أبدًا. وبعضهم الآخرون يختفون تدريجيًا بشكل حائر معتذر... يتوقفون عن الاتصال بالهاتف. أولاً أنتَ لا تفهم. ثم تبدأ ترى ما إذا قد فرغت بطارية هاتفك. في الخامسة بعد الظهر تشعر بحاجة ملحة، بداية تستغرق ساعة تقريبًا، ثم أقل من ساعة. ولكن لا تتلاشى أبدًا. مثل السجائر التي أقلعت عن تدخينها منذ زمن، لكن تظل تحلم بها.

مع أول خيوط الغسق أحس من جديد بفيضان الحزن الغامض والخوف، الخوف الوحشي الحقيقي، الذي لا اسم له. أرتدي المعطف على عجل، ألبس قبعة "أوشانكا"، بحيث أشبه إما شخصًا "ترندي" أو متشردًا، يعجبني هذا، فمهما يكون الأمر، أنا غير مرئي.

إذا أراد أحد أن يرى كيف تبدو حارته بعد نهاية العالم، عليه أن يخرج في الأول من يناير بعد الظهر. هدوء لا يمكن وصفه. صُرفت الكميات المتوفرة من الفرح مساء أمس. وقد لمع القعر جافًا وباردًا. قعر ميتافيزيقي. دائمًا أسأل نفسي بما يحتفل الناس نهاية السنة أو بدايتها. لعله الاحتفال بالنهاية. فلو تم الاحتفال بالبداية، لكان الأول من يناير أسعد يوم.

أمشي في الأزقة المتجمدة الضيقة بين البنايات، حيث تتدحرج بين قدمي من حولي بعض قناني النبيذ الفارغة، وبقايا الألعاب النارية من جميع الأحجام... ولا إنسانَ في الخارج. هذا الهدوء يثير شكي. كأن هناك من قتل الجميع تحت ستار الألعاب النارية في ليلة رأس السنة. ألقوا تلك القنبلة النيوترونية. وحدي أنا نجوت وراء حيطان المخبأ السميكة. أشك في وجود شخص آخر محاذر قضى ليلة رأس السنة في ملجأ للحماية من القنابل. أسأل نفسي ما هي الأخبار التي تبثها قناة "سي إن إن" بعد نهاية العالم. أعود إلى الوراء كي أشاهدها ويظهر أمامي من اللاشيء كلبان ومتشرد. أول الكائنات الحية... في هذه السنة. كم أبتهج بهم. الحقيقة أن هذا اليوم هو يومهم، هو احتفالهم بعيد رأس السنة يومًا بعد العيد. حين تفيض حاويات الزبالة عن جوانبها من بقايا طعام كأنها أسواق حزينة بعد ليلة رأس السنة.

تُفتح بعد...

منبه، دبوس أمان، فرشاة أسنان، دمية، لعبة سيارة، قبعة نسائية، طقم مكياج، ماكينة حلاقة كهربائية، علبة نشوق، علبة سجائر، غليون تدخين،

أقمشة وأنسجة، دولار واحد من السينتات، بذور ذرة، وتبغ، وأرز، وفاصوليا، وجزر...

ما الذي يمكن أن يتسع لمثل هذه المجموعة من الأشياء غير القابلة للجمع؟

حقيبة سفر ربما؟ ولكن من هو صاحبها؟ القبعة النسائية تشير إلى أنها امرأة، غليون التدخين وماكينة الحلاقة يشيران إلى أنه رجل، على الرغم من أنه أمر غير مؤكد في وقتنا الحاضر. أو صاحب الحقيبة هو فتاة بسبب الدمية، ولعله ولد بسبب لعبة السيارة وكل الأشياء الصغيرة التي يحب الأولاد الصغار جمعها.

وتستمر القائمة.

روايات، مقالات موسوعة بريتانيكا، لوحات بيكاسو وأوتو ديكس، Time، Vogue، Saturday Evening Post، Women's Home Companion، وغيرها من المجلات والجرائد منذ نهاية صيف عام 1938. كل هذه مسجلة في بكرات الميكروفيلم. النسخة الورقية من الكتاب المقدس. رسائل قصيرة من ألبرت أينشتاين وتوماس مان. "الصلاة الربيّة" بـ300 لغة (!) وقاموسان في اللغة الإنجليزية...

مخزن أحد المتاحف؟ غرفة كاتب؟

وللحديث بقية...

استعراض سينمائي لأحداث عالمية يستغرق خمس عشرة دقيقة، يحتوي

على: سينما صوتية مع خطاب روزفلت وقضايا الساعة (إنها ما زالت سنة 1938)، رحلة الطيران البانورامية فوق نيويورك، البطل من الألعاب الأولمبية الأخيرة في برلين جيسي أوينز، عرض عسكري بمناسبة عيد العمال في الساحة الحمراء في موسكو، مشاهد الحرب اليابانية الصينية التي لم يتم إعلانها بعد، عرض أزياء في ميامي- فلوريدا من شهر أبريل، فتاتان مرتديتان ملابس السباحة، رجال "جنتل مان" لابسين ملابس مناسبة لوقت العصر... ورسم تخطيطي يشير إلى موضع الكبسولة، بخطوط الطول والعرض الجغرافية بحسب بعدها عن خط الاستواء وخط غرينيتش.

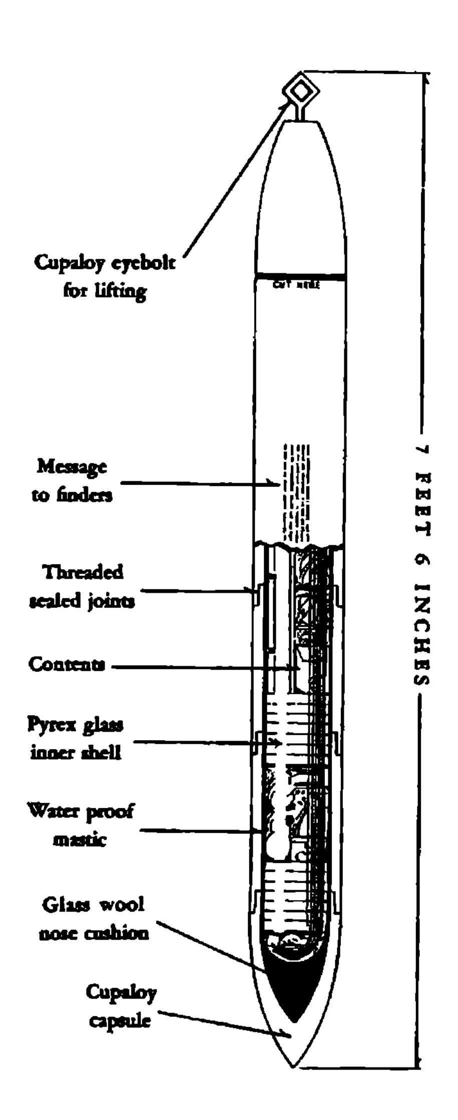
كبسولة الزمن، نعم. مع كل فيها من فُصام العالم الفرح القلق، العالم الذي تم التقاطه في لحظة معينة، على وشك الحرب.

كل هذا العالم دفنوه في التراب على عمق خمسين خطوة تحت الأرض، في الثالث والعشرين من سبتمبر، عام 1938، في أشهر كبسولة مصنوعة على أيدي مهندسي شركة Westinghouse Electric & Manufacturing مخصصة للعرض العالمي في نيويورك. ويجب فتحها بعد 5000 سنة. رغم أنهم، بعد سنة من ذلك تمامًا، دفنوا (حرفيًا) هذا العالم نفسه من جديد. حيث لا مراسيم، ولا كبسولة، ولا رسم تخطيطي مشير إلى الوضع الجغرافي.

في البداية كان المهندسون يسمونها رسميًا -قنبلة زمنية- وكانت فعلاً تشبه القنبلة أو القذيفة بجسمها الطويل والمدور من طرف رأسها، وطولها 228 سم. بعد ذلك ظنوها فأل شر، فغيّروا اسمها رسميًا، لكن الفتيل قد تم إشعاله.

في عام 1945 أرادوا فتح الكبسولة. حنينًا إلى العالم الضائع الموجود

قبل فترة الحرب؟ لا. أرادوا إضافة أعظم اختراع إليها: الرسم التخطيطي للقنبلة النووية. ثم تخلّوا عن الفرة. لكنهم بعد عشرين عامًا لم يضبطوا أنفسهم ودفنوا في نفس المكان كبسولة ثانية، وإلى جانب معلومات القنبلة النووية وبعض القنابل الحديثة فيها، أضافوا أيضًا أسطوانة فرقة "البيتلز"، وحبوب منع الحمل، وبطاقة ائتمان.



(قنبلة زمنية، 1938)

فوياجر

تظل محاولات تعليب الزمن مستمرة. إنها سنة 1977. بإطلاق المكوك الفضائي «فوياجر» تغير التكتيك، وأصبح من الممكن دفن الكبسولة في

الفضاء الخارجي. حتى ذلك الحين كان الدفن في أعماق الفضاء، والآن أصبح الدفن في أعماق الفضاء. إذ يبعد أقصى البعد عن كوكب الأرض، هذا المكان غير المستقر.

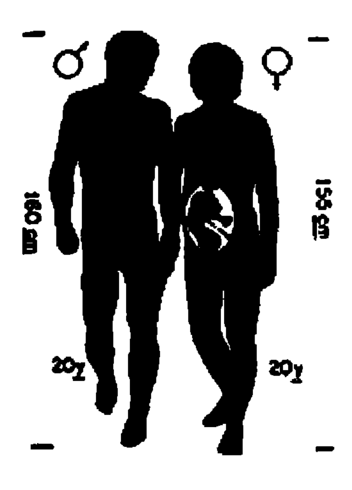
الأسطوانة الذهبية تتضمن صورة جنين طوله خمسة سم، وأم مرضعة، ورائد فضاء في الفضاء الخارجي (يشبه الجنين كثيرًا)، وبيتا، وسوبر ماركت، وخيال ذكر وأنثى (الأنثى حامل ويُرى الطفل في بطنها). ولكن أجمل شيء هناك هي الأصوات أصوات مطر، وريح، وشمبانزي، وقبلة، وضفدع، وهدهدة رضيع باكٍ، وجرار زراعي، وحصان رامح، وكلام حول النار.

المكوك الفضائي أمريكي، وتم إطلاقه في وطيس الحرب الباردة (يا لها من مفارقة لغوية). لم نعرف -فوياجر- إلا لسبب واحد، وهو أن الأسطوانة الذهبية كانت تتضمن أغنية بلغارية فلكلورية. ولكن إلى جانبها يطير أيضًا خطاب الرئيس الأمريكي (هذا لم نعرفه)، نفس الرئيس، جيمي كارتر المبتسم ابتسامة تكشف عن أنيابه، والذي تريد إحدى جاراتنا أن تقطعه بالساطور كما لو كان دجاجة. إذ أن جيمي كارتر والأغنية البلغارية الفلكلورية عن -الثائر ديليو- يحومان معًا بين النجوم. كنا فخورين بأنهم اختاروا أغنية بلغارية. ثم عرفنا أنها ليست وحيدة في الفضاء، فإلى جانبها تعلو موسيقى مزمار القربة من أذربيجان، جوقة جورجية من اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، أغنيات أبوريجين، آلات إيقاعية سنغالية، موسيقى موتسارت، باخ، بيتهوفن... وهو أمر جعلنا خائبي الأمل قليلاً. من يدري لماذا، لكننا تخيلنا أن جميع المخلوقات الفضائية، عندما تخرج إلى شرفاتها السماوية وسط برودة الليل، ستفضل الاستماع في الجراموفون إلى الأغنية البلغارية الشعبية المكرسة لثائر مخيف. (الشعوب الصغيرة تحب أن تكون مخيفة). لم أفهم شيئًا

من كلمات العامية البلغارية في تلك الأغنية. إذ أنني قلقت غاية القلق إن كانت المخلوقات الفضائية تفهمها.

آمل أنها لم تفهمها بعدُ، وإلا سنفقدها إلى الأبد. أو لعلها قد فهمتها ولذلك تتمهل. ها هو نص الأغنية باختصار: يَعِدُ ديليو أنه إذا أجبر الأتراك عماته إكراهًا على اعتناق الإسلام، فسيدخل القرية ويجعل "أمهات كثيرات يبكين، وعرائس يبكين، والأطفال يبكون في الرحم..."

وليرتجف خوفًا ذاك الطفل في بطن أمه، الذي يطير مع ديليو على الأسطوانة فى الفضاء.



كبسولات أخرى، عهد آخر

العام ما زال 1977.

"في أسس بناية متحف بانوراما الحرب الروسية العثمانية بمدينة بليفين البلغارية، في أرضية البهو، وُضعت كبسولة تحمل رسالة سيتم فتحها بعد 100 سنة تمامًا، عندما سنعيش جميعنا العهد الشيوعي". هذا ما أكده رئيس

مجلس الحكومة البلغارية الرفيق -تودور جيفكوف- أثناء وضع الكبسولة في المتحف.

"لن نعيش كلنا جميعًا في العهد الشيوعي"، يقول أبي ويقفل التلفاز، "ذاك الرفيق يعتقد أنه سيعيش كالنسور". أتخيل كيف بعد 100 سنة الإنسان الجديد "هومو شيوعيكوس" يفتح ويقرأ تعليمات أسلافه "هومو اشتراكيكوس".

ماذا كتبوا في داخلها؟ شعارات مثل "قبضة قوية"، "خيرات الشيوعية"... "لكل واحد على قدر حاجاته"... وغيرها من الكلام الفارغ...

أصبح هوس الكبسولات هوسًا معديًا. كان الكل يتسابق في دفن الرسائل إلى المستقبل. جاء دور مدرستنا. كانت الكبسولة تشبه أنبوب الاختبار الزجاجي الكبير. بدا لي أنني قد رأيته في غرفة الكيمياء المدرسية. قرأ مدير المدرسة الرسالة إلى طلائع المستقبل الذين سيعيشون في عهد الشيوعية، ودسها في الكبسولة. أضافوا ثلاثة رسومات وثلاثة من إنشاءات التلاميذ. كانوا قد أجروا مسابقة موضوعها "كيف أرى نفسي في عام 2000؟". باختصار كنا نرى أنفسنا مثل شيوعيين محلقين في الفضاء. فقد انتصرت الشيوعية على كل الكرة الأرضية ويتم تصديرها في الكواكب المجاورة. رسمنا رواد الفضاء المرتدين بذلات الفضاء فوقها نجمة حمراء، المربوطين من "السفينة الأم" بشيء يشبه حبلاً أو حبلاً سريًا، الحاملين في إحدى أيديهم باقة زهور البليس. وفي أغلب الأحيان باقة الخشخاش الأحمر. فضلنا الخشخاش على البليس، لأنه "نبت من دم الأبطال القتلى". وسأعرف فيما بعد أن الخشخاش سيكون دائمًا من بين الزهور الرائجة لأسباب أخرى أكثر تنويمًا.

وقتها وضعوا مثل هذه الأشياء في تلك الكبسولة، أما رئيسة منظمة

الطلائع بمدرستنا فاقترحت دس عَلَم المدرسة، لكن الأنبوب الزجاجي كان ضيقًا.

في مسابقة الإنشاء التي جرت تحت عنوان "كيف أرى نفسي في عام 2000؟" لم أكتب سوى جملتين: "لا أرى نفسي، لأن عام 2000، سينتهي فيه العالم. إنها حقيقة". لا أستطيع القول لماذا كتبت هذا. وفورًا استدعوني عند رئيسة منظمة الطلائع، التي وصفت إنشائي بأنه "مستفزّ". حيث كان السؤال الأساسي: "من يخبرني بتلك "الحقائق"؟ مما اشتد ريبي في أن الجميع يعرفون ماذا سيحدث، لكن يخبئونه مثل المعلومات السرية. كنت كبيرًا بما يكفي حتى أستّر على جدتي. كذبت أنني سمعت هذه الحقيقة من فتاة سمينة بولندية على البحر. كنت متعمدًا عندما قلت "سمينة"، لأعبر عن موقفي من "المستفزة". لم تكن الفتيات البولنديات مثلنا، فهن يستلقين عاريات الصدر على الشاطئ ويبعن كريم نيفيا بشكل غير قانوني. فليذهبوا للبحث عنها.

أنا في غنى عن القول إن إنذاري الباكر لم يدخل في الأنبوب.

مع أنني ظللت أبذل جهدًا مزدوجًا في ملء كبسولتي الخاصة، تحت طي التستر، متماشيًا مع روح العصر، كما يُقال في ذاك الوقت. مع روح...، يا للهول، من أين التصقت بي هذه العبارة؟ التذكر ليس بريئًا أبدًا، وعادت إلي عبارات منذ تلك الأيام. أحس بالطعم السيء في فمي. مع روح العصر. مع روح... سأرددها عدة مرات، حتى أجرّدها من المعنى.

علبة رقم 73

وهنا كبسولة أخرى من كبسولات الزمن الرسمية. إنها ظرف

ورقي عادي مكتوب عليه بحروف الطباعة الحمراء: "تفتح عندما تصبح كومسومولِيًا". في تلك الأيام كانوا يسلمون هذا الظرف إلى الطفل عند ولادته. لقد وضعتُ هذه الكبسولة الورقية الهشّة في علبة رقم 73 وبمخالفة صريحة للإرشادات، فُتح الظرف الآن، حيث رأيت في داخله مكتوبًا بآلة كاتبة ما يلي:

أيها الشاب العزيز،

في حياة الانسان لحظات لا يمكن نسيانها.
اليوم أنت تحل بخلجات عقدة منديل
الطلائع الأحمر، كي تبدله بالبطاقة
العضوية الكومسومولية الحمراء.
انها بطاقة ترمز الى الثقة الكبيرة
التي يوليك الحزب وشعبنا الكادح الجسور
اياها.
فلتكن أفكارك وأعمالك طاهرة وباسلة
كرس حماس شبابك وحكمة كهولتك للوطن
وهو أعز شيء لكل الأجيال.

نموذج مثالي آخر للغة ذاك الزمن. ألاحظ تلك المفردات الآن: عضوية، كومسومولية، ثقة، طاهرة، باسلة... ما هي هذه التاء المربوطة، هذه اللغة المربوطة، التي تربطك أنت... هل سلمت "الساحرات" المهندمات بالزي الظرفَ إلى أمي في المستشفى في أعقاب ولادتي؟ أتخيلها مرتبكة، لا تعرف أين هي، تطلب من العائلة تحضير أقمطة، حوض استحمام، تعقيم زجاجات الطفل، وفجأة يجيئها ممثل اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعي ويسلم الرسالة

إليها. "لا تقلقي على طفلك، لقد قدرنا مصيره، أولاً سيصبح عضوًا في منظمة طلائع الأطفال ويرتدي المنديل الأزرق، ثم المنديل الأحمر، ثم يبدله ببطاقة الكومسومول، هنا في الرسالة تقرر كل شيء. لا مفر. لا مَ▯فَر- رَ...

أولاً أردت أن أرمي الظرف في الزبالة، ثم قررت أن أعيده إلى مكانه في العلبة رقم 73. يجب أن تتضمن العلبة هذه الأشياء أيضًا.

أعتقد أنه ينبغي أن أدعّم العلبة بحماية إضافية تحفظها من مخلفات الماضي ذات الفاعلية الإشعاعية. وإذا لم تنجُ إلا هذه الكبسولة؟ إذا عثروا عليها وبدؤوا بعبادتها؟ لماذا جاءتني مثل هذه الفكرة؟ أراها بغاية الوضوح فكرة محققة.

مستقبل رقم 73

سنوات عديدة بعد الأبوكاليبس، تنشأ الحياة من جديد وبعد عدة آلاف سنة يتم مرة أخرى الوصول إلى الإنسان. يتطور البشر من فترة ما بعد الأبوكاليبس كما تطور الناس السابقون تقريبًا، ما عدا بعض الشذوذات الضئيلة (طفرات بيولوجية)، فهم مثلاً لا يملكون تفكيرًا تجريديًا. ومن البديهي، أن الطبيعة أو الرب قد استخلص درسًا من التجربة السابقة غير الناجحة تمامًا وقام ببعض التغيرات الصحية.

وفي مرةٍ، يعثر "الجدد" صدفةً على كبسولة مدفونة في الأرض، نجت بأعجوبة وفيها رسائل من الماضي. إنه حدث لا يمكن وصفه. أخيرًا يجدون أثرًا تركه الأسلاف. وأما نص الرسالة، فهو من بين النصوص الحمقاء والأكثر سخرية (لكنهم لا يفهمون). إنها كبسولة فيها وصية إلى الأخلاف ويجب فتحها بعد 200 سنة. لقد مُحي جزء منها، وبقيت عبارات منفردة

فقط. يقرؤونها بتأنٍ وبوفاء مثلما يقرؤون الوصايا.

وأذاعوا في كل مكان، كيف يجب الالتزام بها وتغيير حياتهم وفقًا لما كتب فيها. ولم يقاوم سوى إنسان واحد. يقول "بالعكس.. يجب أن نفعل عكس الوصايا، إذا أردنا تجنب ما حدث مع الأسلاف"، ولكن لم يسمعه أحد. لقد انتشرت الرسالة وفسروا كل كلمة فيها بمعناها الحرفي كإرشاد معين للعمل.

كل كليشه (وهو ليس إلا تجريدًا عض ذيله) أصبح خطرًا، عندما قرؤوه من باب معناه الحرفي. ثلاث عبارات تافهة من القرن العشرين البعيد قلبت رأسًا على عقب حياة مجتمع كان موحدًا وسعيدًا بالأمس القريب، والتجريدات فيه ليس لها وجود: "... متعلمون ومستعدون لمواجهة الصعوبات في بحر الحياة..."، "العائلة الاشتراكية هي خلية مجتمعنا الأساسية..."، "...أن تسفكوا دمكم في سبيل الوطن...".

البحر لم يقع بعيدًا. وتحول فورًا إلى أكاديمية حيث بدأ يتعلم فيها كل كبير وصغير. كان أمامهم يسبح المدرس وحوله طلاب ذوو أجسام هشة عطشى إلى العلم، يلوحون بأيدي وأقدام. الواهن منهم والضعيف غاص بصمت، متأخر ومتروك. وأما من نجا، فشعر براحة في الماء، وصار ظهره ضخمًا وصار يعرف كل شيء عن الحياة في البحر. "يا لها من معرفة قوية البدن، يا لها من عضلات علمية..."، يتناغم الشعراء النجاة. وفي البر بدأ أولئك يحسون أنفسهم مثل حيتان رماها البحر على الشاطئ. وعادت الحياة تدريجيًا إلى البحر مرة أخرى. (يا لها من خطوة التطور إلى الوراء).

ثم، متمسكين بالوصية الثانية، ملؤوا البحر بخلايا (نحل) خشبية كبيرة. كانت كل عائلة جديدة تستلم خلية واحدة كونها هدية عرس وتلزمها طوعيًا.

ثلاث مرات في السنة يحتفلون بيوم سفك الدم، الذي يجرحون فيه أنفسهم كي يسلموا دمهم إلى الوطن. ولأنهم لا يعرفون معنى الوصية الثالثة، يجمعون الدم في حاوية ضخمة، وقريبا أطلقوا عليها اسم «وطن».

ليس هناك معلومات أخرى عن هذه الحضارة.

نواقل

قبل عدة سنوات قررت عمل نسخ احتياطية من الأرشيف لأسباب أمنية. سجّلت أهم المعلومات في قرص مدمج وأخفيته في علبة صغيرة مصنوعة من خَشَبٍ جُفْرٍ، مَطْلية من الداخل والخارج بالقار. التزمت بإرشادات العهد القديم، رغم أن سفن نوح تغيرت كثيرًا نتيجة التكنولوجيات الحديثة. كان فلك نوح الأصلي مصنوعًا هكذا: طوله ثلاث مئة ذراع، عرضه خمسون ذراعًا، ارتفاعه ثلاثون ذراعًا، لديه مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية. أما الآن، فهو قرص واحد.

في البداية أردت أن أضع كل ذلك في خزنة حديدية مقاومة للحريق، ثم قررت أنه من الأفضل إذا كانت الأمور كما وصفها ذاك الكتاب. فخشب الجفر المغطى بالقار، لن ينفذ إليه الماء، ودائمًا سيطفو فوق الماء، خلافًا للخزنة الحديدية. لقد فكر الكتاب المقدس بكل شيء.

وطبعًا لا أعتمد على الأقراص وحدها. فهي ليست مضمونة وإذا عطل شيء صغير فيها، ذهب كل القرص. كلما ازدادت التكنولوجيا تطورًا، أصبحت الخسائر لا تعوض. قرأت في مكان ما، أن الورق ولا سيما acid-free paper، يتجاوز قدرة كل ناقل رقمي على تخزين المعلومات، حيث يضمن منتجو هذا الورق صلاحية تستمر 1000 سنة. وبالتأكيد إنها أطول

من مدة صلاحية هذا العالم. لذلك أظل أعتمد على العلبة الكرتونية المملوءة بالقُصاصات من الجرائد والمفكرات القديمة. إذ أنه من الممكن أن يستعيد العالم حالته التناظرية. واحتمال حدوث ذلك كبير جدًا.

كل الكبسولات تُظهر العالم في مظهر بطاقة بريدية، كعالم لطيف، جميل، راقص، مخترع خردوات مختلفة، وأما كبسولتي في القبو، فيجب أن تحتوي على الإشارات والإنذارات، والحكايات غير المكتوبة، مثل "تأريخ ملل الثمانينيات في القرن العشرين"، أو "تأريخ قصير لما هو غير الديمومي"، أو "مقدمة في الحزن الريفي للاشتراكية المتأخرة"، اكتالوج الإشارات التي لم نلاحظها أبدًا"، "قائمة غير كاملة لمخاوف عام 2010"، أو حكايات جولييت المجنونة، وملامكو، وتشينغاتشوك، والإنسان المضاد للتأريخ، وحكاية جدي، والولد المتروك، حكايات كل القادمين من اللاشيء والذاهبين إلى اللاشيء، الذين لا أسماء لهم، سراع الزوال، باقين خارج اللَقطة، صامتين دومًا، تأريخ عام لِما لم يحصل...

إذا كان ثمة شيء باقيًا وعظيمًا، فما معنى أن تضعه في الكبسولة؟ يجب ألا يُخزّن إلا الزائل، وسريع الهدم، وسهل الكسر، والباكي بصوت خافت والمشعل أعواد كبريت في الظلام... هذه هي الأشياء التي ستتضمنها كل العلب الكرتونية وقبو هذا الكتاب.

عقدة نوح

أتصور كتابًا يتضمن كل جنس ونوع أدبي. من المونولوج، ومرورًا بالحوارات السقراطية، إلى الملحمة المُصاغة على الوزن السداسي عشري،

ومن الحكاية ثم الرسالة إلى القائمة. من الكلاسيكية القديمة الرفيعة إلى تعليمات ذبح الحيوانات. كل شيء يمكن جمعه ونقله إلى مثل هذا الكتاب.

ليكتبْ، ليكتبْ، ليدونْ ويخزنْ، ليكن مثل فلك نوح، حيث من جميع البهائم، من البهائم الكبيرة والصغيرة، من البهائم الطاهرة والتي ليست بطاهرة. يجب الأخذ من كل جنس وكل حكاية. الأغراض الأدبية الطاهرة لا تهمني كثيرًا. فالرواية ليست آرية الأصل، كما يقول غاوستين.

لأكتب، لأكتب، لأدون وأخزن، لأكن مثل فلك نوح، لا أنا، وإنما هذا الكتاب. وحده الكتاب خالد، وحده غلافه سيطفو على سطح المياه، وحدها البهائم بين صفحاته، التي تعج بالحياة، ستنجو. وعندما ترى أرضًا جديدة، ستتوالد، وتثمر، وتكثر على الأرض.

وسيمتلئ المكتوب بدم ويُبعث حيًا كاملاً. والأسد سيتحول إلى أسد، والحصان سيصهل كحصان، والغراب سيطير من الورقة بنعيق رهيب... والمينوتور سيخرج من الظلام إلى النور.

واقعية جديدة

منذ زمن لم أخرج من "العالم السفلي"، فقررت هذه الأيام أن أتمشى. انتظرت حتى يهبط الغسق، في هذا الفصل من السنة بعد الساعة الخامسة مساء قد هل الظلام. هكذا أحتمل انتقالي من القبو إلى الخارج بشكل أسهل. لكن للأسف، قد أُنيرت أضواء عيد الميلاد في الشوارع والتصق الظلام بالزوايا. كنت أختار أزقة معتمة، وأتنفس الهواء البارد حتى وجدت نفسي أمام قاعة عرض كنت أحب زيارتها من قبل. كانت ما زالت مفتوحة في الأيام الأخيرة لعرض يقدم "الواقعية الجديدة". لم يكن هناك أي زائر في تلك

الساعة المتأخرة. قررت الدخول.

كنت أحدق في الحاويات الزجاجية الصغيرة المكتظة بأغطية قناني النبيذ، وخردوات لا جدوى منها، في البقايا من البوسترات المخدشة لرايموند هاينس، في الأشرطة الطويلة الملونة لآرمان، معصّرة من أنابيب الألوان، ممتدة كأفاع ملونة، محنطة في زجاج. أقف طويلاً أمام بقايا طعام العشاء لدانييل سبوايري، ملتصقة بالطاولة، معلقة على الحائط كلوحات ثلاثية الأبعاد - مقلاة عليها من الدهن المتجمد، طاولة تتسع لشخصين عليها فنجانا قهوة فارغان، راسب القهوة في القعر، كوبا زجاج وقنينة فارغة "مارتيني" منذ عام 1970، شمعة محروقة لم يبق منها في الصحن الصغير سوى شمع ذائب، قطعة ورق مجعدة... ثمة أحد كان هنا وذهب. ثمة حديث كان فيه كلام وصمت، وقف الاثنان طويلاً، والشمعة تحترق، وكان جميلاً، ونهضا، وذهبا. هل مارسا الجنس في الغرفة الأخرى؟ أشَرِبا القهوة قبل الجنس أم بعده؟ لعلني إذا اقتربت أكثر، رأيت آثار أحمر الشفاه على أحد الكأسين. منذ أربعين سنة.

ربما ليسا على قيد الحياة. وحده راسب القهوة بقي. الواقعية الجديدة. فلك نوح الجديد من القرن العشرين البائد.

كان هاجسٌ يحلق في الهواء. كلهم في نهاية الستينيات والسبعينيات كانوا يتنبأون بالأبوكاليبس، كل هؤلاء الواقعيين الجدد. في تلك الفترة تقريبًا بدأ كريستو بتغليف العالم. كما هو الشأن قبل هجر المكان. يجب رزم كل شيء. نلمّ الأمتعة، نرحل. من لعبة المهر الصغير (وبالنسبة لي هي أحزن أعماله) إلى جسر بون نيوف. هيا، نغادرُ و و و ... سيهدمون البيت.

ذكريات الهجر

بسبب كثرة انتقالنا من شقة إلى أخرى، أعرف منذ طفولتي ذاك الشعور الخاص، عندما تخرج الأشياء من استعمالها اليومي، والكرسي لم يعد كرسيًا، والطاولة لم تعد طاولةً، والسرير مفكك. ولم تكن الخزانة إلا أدراجًا ورفوفًا خشبية. والكتب موضوعة في أكياس نايلون بيضاء مأخوذة من مكان ما، مكتوب عليها "بلورات ملح البحر"، كأن الكتب سمكات يجب تمليحها. هل سأحس بطعمها المر فيها بعد، عندما أقلب صفحاتها؟

تقف وسط كل الفوضى، محتارًا، لا تعرف ماذا تفعل، والكبار أيضًا لا يعرفون، وهم متوترون، ينتظرون الشاحنة، ويدخنون. ثم كل الأمتعة مشحونة، لكنكم ما زلتم تدورون، لا تريدون إغلاق الباب، تذهب أمك إلى الداخل للمرة العشرين، كي ترى إذا كان هناك شيء منسي، أبوك ضائع وسط الحديقة كي يروي شجرتيّ الكرز وورد الكلاب، لأن المستأجر الجديد، من يدري إذا كان يعتني بها. أحتضن إحدى القطتين، اختفت الأخرى في مكان ما.

وداع

شقة أخرى

وداعات أخرى

انتقالات في أيام الجامعة

هجر بعد الطلاق

مغادرة إلى بلدان أخرى

عودة

شقة أخرى.

كل الحياة يمكن روايتها كما لو كانت كتالوج الهجر.

الكبسولة الأم

أعود بعد ذاك العرض إلى أكياسي وعلبي.

في كل لحظة (ومنها هذه اللحظة أيضًا)، يدفن شخص ما في مكان ما كبسولة زمنية. كان دفن الكبسولات أكثر انتشارًا في عام 1999. ثم تأتي مرحلة الجزر. لم يحدث الأبوكاليبس في سنة 2000. وخابت آمال الناس، وهو أمر مفهوم بعد هذه الفترة الطويلة من الانتظار. في غضون ذلك ظهر فيس بوك، وهو كبسولة الزمن الجديدة. الآن أنتَ شبه إنسان- شبه أفاتار، أنت نوع خاص من المينوتور، لا، أنتَ مينو- أفاتار. لقد شرد ذهني، هذا ما يقوم به الفيس بوك - يجعلك شارد الفكر.

أردت القول، إن 90 بالمئة بين عشرات الآلاف من الكبسولات التي يتم دفنها في الأرض سنويًا قد ضاعت إلى الأبد. فالناس الذين قاموا بدفنها ينسون، يموتون، ينتقلون. يجب صنع كبسولة أم يتم فيها حفظ كل معلومات الكبسولات المدفونة في أرجاء العالم وعناوينها. وكي لا يُنسى عنوان هذه

الكبسولة، يجب تعيين شخص خاص لا يشتغل إلا بحفظ معلوماتها غيبًا.

حزمة وقنينة

أشياء غير متوقعة يمكن أن تكون كبسولات زمنية. ولعل أكبرها هي مدينة بومبي، التي بقيت تحت الحمم البركانية. إني أُفضّل الكبسولات الصغيرة. مثل قنينة الراكيا التي خصصها جدي في يوم ولادتي. لابد أن عمر هذه القنينة الآن 44 عامًا. إذا وجدتها وفتحتها، سأملك عام 1968 كله في حالته المقطّرة، أو على الأقل عام 1968 في جنوب شرق بلغاريا. سأملك الأيام المشمسة في ذاك الصيف، والأمطار في الخريف المبكر، ورطوبة الهواء، وجودة التربة، وأمراض الكروم، وكل الحكاية المدونة في القنينة الزجاجية.

أو تلك الحزمة من ملابس جدتي التي خصصتها لجنازتها. غطاء رأس، مريلة، صدرة بلون أحمر غامق، جوارب من الصوف للشتاء وجوارب النايلون إذا حدث في الصيف، زوج أحذية جلدية لامعة... إنها حزمة يجب فتحها في يوم موت جدتي. على الرغم من أنها كانت تفتحها ما بين يوم وآخر، كي تتفقد إذا ما كانت العثة قد سوّست الملابس، أو لمجرد تأملها. وهذا شكل من أشكال التعود على الموت. ترتديها مرة في الشهر. تبدّل منديلها الأسود القديم بالجديد المورد بورد كبير باللون الأحمر الغامق، وصديري صوف البني، الذي تلبسه كل يوم تبدله بصدرة لم ترتدها أبدًا، وكانت هدية لها بمناسبة عيد ميلادها. تقف أمام المرآة المستطيلة الضيقة، تتذمر متأسفة على ما كانته في الماضي، من جمال وجهها ورشاقة جسمها. بأي هيئة سأكون "هناك"؟ تقول. وحده الموت يثير بَهْرَجَتها. كان عدد مَن ينتظرونها "هناك" قد تجاوز عددهم "هنا".

... والوزن السداسي عشري

أشياء غير متوقعة يمكن أن تكون ... بالوزن السداسي عشري مثلاً. إذا قيل شيء في الوزن السداسي عشري، فله فترة صلاحية أبدية من الناحية التأريخية والتطبيقية. حرب طروداة كلها محفوظة في كبسولة الوزن السداسي عشري. لو تم كبس هذه الحكاية في أي وعاء غير الكبسولة، لحمضت، وفسدت، وتمزقت، وتهدمت... ظهر أن مادة الوزن السداسي عشري هي الأشد متانة.

هسيود في كتابه "الأعمال والأيام" ترك لنا تعليمات للنجاة. إنها عدّة النجاة الحقيقية. إذا حدث شيء في العالم وجاء ناس لا يعرفون شيئًا، فسيتعلمون من خلاله أي من شهور السنة مناسب للزراعة، أي منها مناسب للحرث، متى يتم إخصاء الخنزير الذكر، ومتى الثور الخائر، ومتى البغل الدؤوب. بما فيها هذه الإرشادات المفضلة:

لا تنتصبْ مواجهًا للشمس وأنت تبول.

وتذكّر دائمًا أن تتبوّل عند مغيب الشمس وعند طلوعها.

ولا تبلْ على الطريق أو على جانب الطريق الذي تسير فيه.

ولا تعرّي نفسك عند قضاء حاجتك، إذ الليالي ملْك الآلهة المباركة.

الكتاب الجيد ينبغي أن يحتوي على إرشادات لكل شيء. أضيف هذا الكتاب أيضًا إلى العلبة.

نحل وخفافيش

في نهاية كل سنة أفتح العلب الكرتونية، وأطلع بتأنٍ على كل تيار

الصحف الصادرة في الفترة ما بين يناير حتى ديسمبر، وأحيانًا تمتلئ أيامي كلها بهذا الشغل إلى ليلة رأس السنة، ولا أخصّص بالتخزين إلا أهم الأشياء المستحقة...

وعندي نظام خاص للغربلة.

كثيرًا ما تبرز أهم الأخبار من النشرات الدورية الرقيقة المطبوعة على ورق منخفض الجودة، مثل "النحل اليومَ"، "وقت البستنة"، "أمراض النباتات المنزلية"، "العناية بالمزرعة الصغيرة"، "جريدة المزارع الناشئ: ثور وبقر"، "طبيب بيطري منزلي"، "كل شيء عن القطط"، وإلخ.

أحيانًا يظهر أن السطور الخمسة في بوابة "أخبار غريبة حول العالم" ذات أهمية خاصة وهي تصف التصرف الغريب لبعض عائلات النحل في مدينة صغيرة منسية في شمال أميركا. كان النحل يطير في الصباح من خليته ولا يعود إليها أبدًا. هذا ما أُسميه الفأل والوحي، على الرغم من أن وقتئذ لم يلاحظه أحد. فالإنسان لا يتعب نفسه بفك طلاسم الرموز. في ذاك الوقت ظنوا تلاشى النحل الغامض نتيجة مرض "الفاروا"، أو حشرة الفاروا على وجه التحديد، والذي يدعى كذلك "دودة مصاصة الدماء"، وهو قراد أحمر منمنم يغرز خطاطيفه في جسم النحلة. بعثتُ رسالة إلى الجريدة، وكتبت فيها أن المسألة متعلقة بموضوع آخر، أن هذه ليست إلا البداية، وحتى نقلت عن أينشتاين، فاسم أينشتاين يؤثر دائمًا أثرًا بليغًا في الناس: "عندما يختفي النحل عن وجه الأرض، فلن يتبقى للبشر إلا أربع سنوات للعيش".

ولكن لم يؤثر هذا الكلام فيهم.

يبدو لي أنها كانت سنة 2004، شتاء سنة 2004، نعم. مضت سنتان كاملتان قبل أن يتضح أن هذا الحدث ليس فريدًا في بابه، وأن شيئًا غريبًا

يحصل مع كل النحل في الأرض. إذ لن تتحول تلك السطور البسيطة من جريدتي عن النحل إلى عناوين أساسية في نيويورك تايمز، والغارديان وغيرهما إلا في عام 2006. عندها سمّوا هذا التلاشي الغريب لأكثر أفراد عائلتنا المقدسة هنا على الأرض مسؤوليةً وانضباطًا باضطراب خلاء الخلية (Colony Collapse Disorder CCD). النحل يخلّي الخلايا. فقد أحد أكثر الكائنات التصاقًا ببيته قدرته على العودة إلى البيت، فتضيع، ثم تموت. لا تنسوا هذا التشخيص. اضطراب خلاء الخلية. انهيار عائلة النحل، متلازمة المستعمرة المتهدمة... ولو تعرض النحل لذلك، فماذا عن البشر وعائلتهم غير المستقرة؟ إنه أمر يتضمن كميات أبوكاليبس أكثر مما تتضمنها كل "أبرا كدابرا" أخرى. النحل هو الإشارة الأولى. ملائكة الأبوكاليبس الطنانة. ننتظر سماع أبواق أريحا، لكننا لا نسمع إلا صوت بززززز ... بززززز ... بززززز ...، صوت يمحي وينطفئ. إنها الإشارة. ألا تسمعونها؟ إذن أخرجوا سماعات الآي بود من آذانكم.

وما الذي نعرفه عن "متلازمة الأنف الأبيض" التي تصيب الخفاش؟ لم نسمع عنها قط؟ لا أحد يحسب عدد الخفافيش الميتة. طبعًا لو كان الأمر متعلقًا بالخنزير أو البقر لقلق الجميع. في عام 2006، 90 بالمئة من عدد الخفافيش الساكنة في الكهوف في المناطق القريبة من نيويورك وسان فرانسيسكو انقرضت فجأة لأسباب غير واضحة... حيث توقفت الخفافيش عن الأكل، وتعلقت في غيبوبة، وفي النهاية طارت من الكهوف، وسقطت أرضًا أمامها وقد ابيضّت أنوفها... فئران صغيرة طائرة ذات أنوف بيضاء، نسخ مصغّرة وميتة من باتمان. أضيف هذه المعلومات هي الأخرى إلى العلبة، فيمكن أن تكون مهمة.

ألملم من أجل من الذي سيأتي. من أجل "قارئ ما بعد الأبوكاليبس"، لو اتفقنا على إطلاق هذا الاسم عليه. إن وجود الأرشيف الأولي للعصر السابق هو أمر جيد. فالصحف من وقتنا الحاضر ستتحول إلى مدونات تأريخية. وهو مستقبل جميل بالنسبة لها. ودليل على العهد الذي يصفرّ ويذبل بسرعة في أيامه الأخيرة.

الجريدة بتأريخ 4 يونيو، عام 2022. مكتوب في الأعلى بالأحرف العريضة: وباء اللاذاكرة الغريب. وتحته يقف العنوان الفرعي بحروف مطبعية صغيرة: هل أُصيب البشر باضطراب خلاء الخلية؟ وجاء في النص تقريبًا بما يلي:

قواعد وعادات مقررة منذ قرون تتوقف فجأة عن التطبيق. حيث يزداد عدد الحوادث مع أناس يخرجون في الصباح إلى الشغل، ولكن ليس في وسعهم أن يعودوا إلى بيوتهم في المساء.

كان صباح "ك. س." (العمر 39 عامًا) صباحًا عاديًا مثل آلاف الصباحات الأخرى قبل ذلك. شرائح الخبز المحمص، البيض ولحم الخنزير المقدد، كوب القهوة الكبير، اللعب مع الأولاد، القبلات على عتبة الباب، الوعد بلعب المونوبولي في المساء كما اعتادت الأسرة... ولكنه في المساء لم يرجع. ولم يصل إلى مكتبه قط. عثروا عليه صدفةً في الطرف الآخر من المدينة، وهو ضائع، بنطلونه مطوي من أسفل طرفيه وكأنه طفل، يمشي في الشارع ويركل الحصى بلا قصد. لا يتذكر إذا كان لديه زوجة وعائلة. لا يعرف عنوانه. يزعم أنه في الثانية عشرة من عمره.

وحكاية الأم الوحيدة "د. ر." (العمر 33 عامًا) هي أكثر غموضًا، إذ اقتادت أطفالها إلى الروضة كما تفعل دائمًا. أوصلتهم، وقبلتهم، ووعدتهم بأنها ستأخذهم مبكرًا قبل كل الأمهات. قبل نصف ساعة من موعد

حضورها، انتظرها الأطفال إلى جانب سياج الروضة لابسين وجاهزين، لكن الأم تأخرت. بدأ الآباء الآخرون بالتوافد. ولم يبق في النهاية إلا أطفالها والمعلمات. وأخذ الغسق يهبط، لكنها لم تأتِ. حاولوا الاتصال بالأم بالهاتف، ولم ترد. وكان على الأطفال أن يقضوا الليلة في الروضة. وجدوا الأم بعد ثلاثة أيام من الحادثة في إحدى المدن الشمالية النائية. وحسب ما تزعمه الشرطة، تنتهج الأم سلوكًا غير لائق، حيث قاومت، وخدشت وجه شرطي، وأهانته بكلمات مشهورة خاصة بالفترة ما قبل عشرين سنة، ولم يعد يستخدمها أحد. وآخر معلومة هذه مهمة جدًا، لأنهم عندما سألوها عن عمرها، أجابت المرأة التي تتجاوز الثلاثين، أنها في الصف السابع الإعدادي. وعند سؤالها "ماذا تفعلين هنا؟" ردت أنها في رحلة مع صفها. وطبعًا لم تتذكر شيئًا عن أطفالها وعائلتها. وحسب تحرٍ خاص قامت به الجريدة، نظمت المدرسة التي تخرجت منها الأم فعلاً رحلة إلى تلك المدينة قبل تسع وعشرين عامًا.

أعادوا المرأة بالإكراه، واقتادوها إلى بيتها، معتمدين على أن الجو المنزلي سيجعل ذاكرتها تثوب إليها. لكنها سلكت سلوك من وجد نفسه في أي بيت غير بيته. لم تمس شيئًا. وسألت أين يقع الحمام. ولم تتذكر ولو ثوبًا واحدًا في خزانتها. وأثناء المواجهة العينية مع أطفالها، تحت نظر الخبراء النفسانيون، لم تظهر عليها أي علامة تدل على تعرّفها عليهم.

ليس هناك حتى الآن أي تفسير واضح لما يحدث. ويعمل الخبراء على عدة فرضيات متوازية. حيث تنص إحداها الأكثر إمتاعًا أن الموضوع متعلق بالتنشيط المفاجئ للحوادث الماضية وانفتاح الممرات الزمنية الشخصية المتوازية لأسباب لا يمكن شرحها. إنه غزو الماضي العنيف. ويوجد شك في أن السبب هو إساءة استعمال "العلاج التراجعي" الحديث، الذي ذاع صيته

مؤخرًا، ويزداد عدد الأطباء الأدعياء الذين يمارسونه بشكل غير قانوني.

إشارات

في الأول من يناير عام 2011، فوق إحدى مدن ولاية أركنسا الأمريكية، يسقط من السماء أكثر من 2000 شحرور مَيِّت، وأسباب هذا الموت الغامض مجهولة. هذا ما يذكره خبر بتأريخ 3 يناير.

في الأيام التالية تبدأ أخبار موت الطيور الغامض بالتقاطر من مختلف أرجاء العالم، من أوروبا، وأستراليا، ونيوزلندا. ويفترض أن ما سبّبه هو طاعون يصيب ذوات الأجنحة، أو تجارب أمركية سرية على سلاح كيمياوي، أو غيرها من الفرضيات. الرجل الذي قال إنه سيكشف عن الحقيقة، وهو جنرال سابق في الجيش الأمريكي، وجدوه ميتًا في شاحنة زبالة. يزداد عدد الناس الذين يصدقون أن الطيور الميتة المتساقطة من السماء هي إشارة الأبوكاليبس البديهية.

أما على السواحل البريطانية، فعثروا هناك على 40.000 سرطان ميت.

الفصل الخامس

العلبة الخضراء

لم يحدث لي هذا منذ زمن... كنت أطلع على الصحف من عام 2010، وعثرت على تقرير صحفي قصير. أكيد أن الأخبار المتدفقة في تلك الأيام ضغطته فكان منسيًا فورًا في اليوم التالي. لكنني وجدته ذا أهميةً استثنائية، وقد رَمَاني من جديد في تلك الحالة المنسية...، التي لم أعشها منذ سنوات...

قتل ثور بعد مهاجمة المتفرجين في ساحة الكوريدا وإصابة 40 شخصًا

الخميس 19 أغسطس 2010، تافالا

أصيب أربعون شخصًا في إسبانيا في حادثة خارقة للعادة أثناء مهرجان الكوريدا. تلفت الثور الذي تم اقتداؤه إلى الساحة لمصارعة الثيران، وتجاوز بمهارة الحاجز المحيط بالحلبة وهاجم المتفرجين. وقع هذا الحادث المؤسف في بلدة تافالا، حيث أصيب الجمهور بحالة من الفزع وحاولوا الفرار، رغم أن الناس وجدوا صعوبات بسبب ترتيب المقاعد الخاص في المدرجات. كان الحيوان الهائج يندفع هاجمًا على مختلف المجموعات من المتفرجين المأخوذين بالذعر. وقد حاول أحد مصارعي الثيران القبض على الثور، بينما يشده ذيله. وبعد ربع ساعة، تم السيطرة على الوضع. في النهاية كان من الضروري قتل الثور.

المدرج، طبعًا، هو متاهة. من بين المتاهات المستديرة الأكثر انتشارًا، فيها دوائر متحدة المركز متقاطعة مع الممرات العرضية. رفع الثور نظره ورأى المتاهة – البيت العائلي لجد جده المينوتور. ولأن الحيوانات ليس لديها الإحساس بالزمن (كما هو الشأن لدى الأطفال)، رأى الثور بيته الأصلي وأحسّ في داخله بالمينوتور. وتذكر كل الأيام والليالي ... لا، هذه لغة بشرية،

لم تكن هناك أيام، إذ تذكر تلك الليلة اللانهائية، التي تجمع كل ليالي الدنيا. وتذكر من جديد الوجهين الوحيدين اللذين يعرفهما. وجه أمه بينما كان في حضنها. إنه أجمل وجه رآه. إنه الوجه الذي وصل إليه أقرب مسافة. والوجه الثاني لقاتله. وجه جميل أيضًا. إنهما وجها بشر.

القاتل الآن (ولعله من بين أقارب ثيسيوس البعيدين) يقف في حلبة مصارعة الثيران، في صدر المتاهة. ولكن ما جعل الثور يرتكب ما ارتكبه، هو لم يكن في الحقيقة أن المشهد التأريخي سيتكرر وسيشعر من جديد بتلك النعومة لجسمه وحساسيته، النعومة والحساسية المقدسة، التي تبرهن على هويته الإنسانية. لا، كان هناك شيء آخر. وهو صحو عقله المفاجئ، وإذا وقف قاتله أمامه، فيعني هذا أن وجه أمه هو أيضًا بالقرب منه. في المدرج بين المتفرجين. هذان الوجهان يقفان دائمًا واحدًا إلى جانب الآخر. ويتكرر المشهد. والمتاهة لا تعصف في استرجاع المكان فحسب، بل وتجعل الزمان ينعطف ويُعضّ ذيله، ولو كان من الممكن أن يحدث شيء، أن يُلغي شيئًا، فقد حان وقته الآن.

أدير ظهري إلى القاتل، أقلّص كل عضلاتي وأُسقط الحاجز. أرى أمي بين الجمهور وأهرول إليها مثل طفل ضائع، ولا شيء هناك يمكن إيقافي. لا أريد إلا أن ألمس وجهها من جديد. أن ألتصق بها. إني في الثالثة. وأبحث عن أمي. ناس غرباء يصرخون ويتساقطون تحت أقدامي، لكنهم ليسوا أمي. سأعرفها. أخاف ألا أضيّعها، أتمنى ألا تكون قد رحلت فعلاً. اركض قليلاً، ولو قليلاً. هنا امرأة تشبهها، وليست أمي. هذه؟ لا، لا. الصراخ الذي ينقصف من مغارة حلقي صراخ رهيب. وهو الكلمة الوحيدة، التي في كل اللغات ‍‍– لغة البشر، ولغة الحيوانات، ولغة الوحوش هي الكلمة نفسها:

ماما!!!!!!!...

وتلتقط متاهة المدرج هذا الصراخ، وترسله بين جدران دهاليزها، وتوجّهه إلى العطفات المسدودة، وتعكسه، وتعيده مشوّها قليلاً إلى متاهة أذن البشر حيث يصدح مثل صراخ لانهائي:

مووووووووووووو...

هذا هو التبديل. تبديل ضئيل جدًا. حولت المتاهة صوت "ا" إلى "و". لو عرف الإنسان أنها نفس الكلمة، نفس تلك كلمة "ماما اااا" ...، لكان تأريخ العالم وتأريخ الموت (وليس من الغريب إذا تعلق الأمر بنفس التأريخ) لكان تأريخًا مختلفًا.

مخلوق مرعوب يبحث عن أمه. سواء إنسان أم حيوان الكلمة هي نفس الكلمة.

لكن الأسطورة متكررة ويجب وقوع موت المينوتور من جديد. قبل أن يجد أمه، قبل أن يرتمي في حضنها، قبل أن يعود إلى رحمها، إلى تلك المغارة النابضة الناعمة الأولية. لأنها ستكون أسطورة أخرى (غير مقبولة).

يدركه الهلاك في اللحظة التي يبدو له أنه رأى الكتف الذي يعرفه وطرف الجديلة التي يألفها وهي تبتعد. ولأول مرة يقتلونه بهذه الطريقة.. عن بعد. بدون سيف، بدون رمح. بدون أن يرى وجه قاتله.

بدون وجه

بدون أن يرى وجه قاتله. لو كان هناك كتاب عنوانه "التأريخ الشامل للقتل"، ولا يحتوي على حوادث القتل التأريخية فحسب، بل على حوادث القتل في الميثولوجيا أيضًا، وكذلك في كل الأساطير، والشائعات، والروايات، لَتبين كم هي دافئة وإنسانية هذه العملية أن تكون وجهًا لوجه

مع من يقتلك. نعم، إنها عملية عنيفة، لكنها عنيفة ضمن مقياس الإنسان. حيث يأتي الموت من يد إنسان آخر ذي جسم معين، ويد، ووجه. إنها حقيقة لا يمكننا تقديرها إلا اليوم، عندما تجرد القتل من إنسانيته، لو سمحنا لنا باستعارة هذا المفهوم. إنها ظاهرة حديثة نسبيًا، ولعلها تعود إلى عدة قرون منذ اختراع البارود، فهي فترة وجيزة من الزمن.

وحتى اللغة لم تتعود بعد. نقول "في وجه الموت" رغم أنها عبارة خاصة بعهد آخر. فَقَدَ الموت وجهه وهذا هو الهول الجديد. لا وجهَ.

وهنا عدة أمثلة عشوائية. آخيل قتل هكتور، وكان هذا ملحمة وتأريخًا وحكاية، رقصة القاتل والضحية. كان طقسًا، حيث للضحية حق في خطواتها الخاصة، وإشاراتها، وإجاباتها. (لذلك هوميروس غير ممكن في ظل قتل وقتنا الحاضر). وحتى عندما خدع ليكوميد ثيسيوس وكاد يدفعه من فوق الجرف الصخري في جزيرة وَابِيَة، حتى في هذه الحال كان هناك مس يد الإنسان، وحضور الإنسان.

ماذا حدث بعد ذلك؟ الموضوع هنا لا يتعلق بمذبحة الحروب. كينيدي يركب سيارته الليموزين، يبتسم، ترتسم على وجهه علامات الألم، ثم يرخى رأسه فجأة. بانتوميم الموت هذا الذي شاهدناه في الشريط السينمائي، يخبرنا بكل شيء. آخيل صار غير مرئي. ثيسيوس، وهو السفاح الميثولوجي التالي، اختفى بين حشد الجمهور وأطلق الرصاص من هناك. ولم يتبق لديك وقت للاستعداد، لتوديع بعض الأشخاص ذهنيًا، للإرشادات، لترك الكلمات، للسخرية، للذع القاتل بعبارة، لتصفيف شَعرك. أتت نقطة الرصاص قبل أول كلمة في الجملة. قطعة رصاص مُغْفلة أطلقها قاتل مجهول الهوية. في هذا الأمر شيء من الإجحاف العميق. شيء مخالف راديكاليًا لكل طبيعة.

لا حيوانَ يفعل هكذا.

الحيوان في داخلي. ها هو القانون الأخلاقي الجديد" إلى جانب "السماء المليئة بالنجوم فوقي". ها هو السؤال الرئيسي، ها هو الاختبار، الليتموس، القاسم بين الخير والشر، أي: هذا الذي قرّرتَ أن تفعله، هل يمكن أن يفعله حيوان؟ تدثّر بجلد حيوانك المحبوب وافهمْ. إذا لم يفعله الحيوان، فلا تفعله أنتَ أيضًا، وإلا فستقع في الخطيئة المميتة. خطيئة ناتجة عن الطبيعة. كل الخطايا قد تم تجاوزها. ولكن على الأقل يتبقى هذا الحد لِما هو الطبيعي.

كان ثيسيوس ماتادورا. كلمة ماتادور تعني "قاتلاً" ويعود أصلها إلى اللغة اللاتينية. كل جزار في مسلخ يحمل من خطيئة ثيسيوس.

أضيفُ إلى العلبة هذا المرسوم أيضًا، الذي ما زال ساريًا:

مرسوم رقم. 2002/ 20

لتقليل أوجاع الحيوانات إلى الحد الأدنى أثناء عملية ذبحها...

الفصل الأول: الكرب والألم عند الحيوانات

إن البحوث العلمية تدل على أن الحيوانات ذات الدم الحار (بما فيها الحيوانات الداجنة) تشعر بألم وبإحساس الخوف... الخوف والألم من بين العوامل الرئيسية التي تسبب الكرب، وأما الكرب من جانبه، فينعكس على جودة لحم هذه الحيوانات. (طبعًا كل شيء هنا من أجل جودة اللحم. كلما خُفّف الوجع، أصبح اللحم ألذّ).

تخاف الحيوانات من الأشياء المتحركة، وكذلك من الظلام، ويمكن أن ترفض الدخول في مكان مظلم... (إني متأكد من ذلك، أعرفه من تجربتي).

تخاف الحيوانات من الصور المنعكسةاللامعة، والسلاسل المصلصلة، الوناس المتحركين، والأشياء المتحركة، والظلال أو الماء القاطر. (الظلال أو الماء القاطر... يُسمع مثل شعر، لا، هذا كهف).

الفصل السابع: ذبح الحيوانات الداجنة

تهيئة الحيوانات للذبح

الحيوانات التي جُرحت أثناء النقل أو الحيوانات الرضيعة يتم ذبحها فورًا (رحمةً بها)، وإذا كان ذلك مستحيلاً، يتم ذبحها بعد ساعتين من تفريغها كأقصى مدة. (لأن جودة اللحم تسوء، حسب المنطق المرتبط بالعلاقة بين الوجع والطعم السيء). الحيوانات التي لا تستطيع المشي، يتم ذبحها في المكان نفسه، أو يجب نقلها بعربة إلى مكان الذبح العاجل. عندما تكون الحيوانات جاهزة للذبح، يجب توجيهها بهدوء وسكون إلى مكان الصعق، بلا تعجل وضجة زائدة...

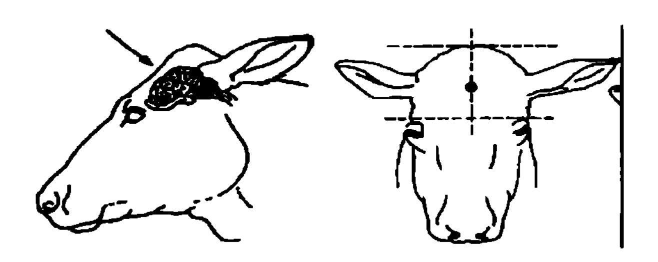
ويتم الصعق من خلال ثلاثة طرق هي: الضرب، الصعقة الكهربائية، الغاز...

الطريقة الأكثر استخدامًا لصعق المواشي، هي بواسطة مسدس ذي إبرة واقذة. حيث يتم إطلاق خرطوشة خلبية، تدفع إلى الخارج إبرة قصيرة من فوهة المسدس. تدخل الإبرة في عظم الجمجمة وتسبب ارتجاج الدماغ عن طريق إصابة الدماغ أو زيادة الضغط داخل الجمجمة والذي يؤدي إلى جرح الدماغ. لعل هذا النوع من المسدس هو أكثر آلات الصعق عمومية، إذ أنه مناسب لصعق البقر، الخنازير، الغنم، والماعز، وكذلك الخيل والجمال، بالإضافة إلى أنه يمكن استخدامه في كل أرجاء العالم...

الثيران: ضعْ المسدس قريبًا جدًا على سطح الجبين، على شكل زاوية

قائمة إلى جانب مركز الخط الوهمي، الذي يربط بين أعلى الرأس والخط المستقيم بين العينين. (يا لها من رياضيات الموت، من هندسة القتل...).

العجول: يجب تصويب المسدس إلى أسفل بقليل بالمقارنة مع البقر، لأن الجزء العالي من دماغ العجول ما زال قيد النمو. (لقد فكر الإنسان بكل شيء).



رسم 51. الوضع الصحيح لضربة الصعق

(من "دليل المعاملة الإنسانية للحيوانات" وفقًا للاتفاقية الأوروبية للدفاع عن حيوانات الذبح)

هذا ما يسمى نص بريء صحي، بارد ومعقم مثل بلاط المسلخ الذي تم غسله بعد العمل، ويلمع من النظافة.

لا حيوان يفعل هكذا.

حلم المينوتور

أحلم أنني جميل. لعل الكلمة ليست "جميلاً"، بل هي «غير متميز». مثل الآخرين. إنه هكذا، أن تكون جميلاً يعني أن تكون مثل الآخرين. رأسي

خفيف. عيناي واقعتان في الجانب الأمامي من وجهي. أملك أنفًا، لا خيشومين. أملك بشرة إنسان، بشرة إنسان رقيقة. أمشي في الشارع ولا أحد يلاحظني. هذه هي السعادة – ألّا يلاحظك أحد. المنام سعيد.

أمشي ببطء، في البداية أتجنب الناس الذين يسيرون في مواجهتي، أنسحب في حافة الرصيف ذاتها، إلى جانب جدران البيوت. لكن المعجزة قد حدثت. لا أحد يركض خوفًا مني، لا أحد يصرخ مرعوبًا أنه رأى وحشًا، لا يختفي الأطفال وراء أمهاتهم، لا ترسم العجوزات علامة الصليب على صدورهن، لا يُخرج الرجال السيوف. أمشي في الشارع. الدنيا نورت. لم أر مثل هذه الكمية الكبيرة من النور منذ أن أبصرت النور. امرأة اصطدمت بي ولم تتعمد. خفت من أنها ستصرخ. التفتت، نظرت إليّ عن قرب... لم تعرفني... لم تصرخ... ابتسمت واعتذرت. لم يعتذر مني أحد قط حتى الآن.

أرى مقاعد يجلس عليها ناس. وأنا كذلك أجلس. أنا وحدي. أشاهد ما يفعل الناس وأفعل مثلهم.

يجلسون ويشاهدون ناسًا آخرين.

أجلس وأشاهد ناسًا آخرين.

ثم يبدأ الغسق يهبط. أسمع صوت طفل يقول لأبيه "أبي، هيا نرجع إلى البيت، لقد حل الظلام". وكلمتي "الظلام" و"البيت" هما أول شيء مقلق في كل منامي إلى الآن. فالظلام دائمًا كان بيتي، والآن شعرت بأنني لا أملك بيتًا. ولأول مرة اعتراني خوف أنني ضائع. وهو أمر مضحك، لأنني لم أضع قط، أنا أعيش في متاهة. وكلما اشتد خوفي، تصغّرت قامتي. رجل طويل ينحني فوقي، يمسكني بيده الكبيرة (ألاحظ أنه لا يقبض على سيف)، يسألني إذا كنت ضائعًا وهل أعرف عنواني. وأنا أصمت. "أين ماما؟" يسألني الرجل،

"هل ستقول أين ذهبت ماما؟" ما كان يجب أن يطرح هذا السؤال. أحس بفكي يستطل، وتصبح جمجمتي ثقيلة وصلبة، لكني لا أريد أن أجرحه. لحسن الحظ يقترب حلمي من نهايته، لأن الحالة تصبح لا خلاص منها. هذه هي اللحظة التي تمزقت فيها الأحلام.

استيقظت وأنا في ظلام بيتي العادي. كان هو منامي الأسعد. الذي قضيت فيه يومًا واحدًا مع ناس لم أقتلهم، لم يقتلوني، وحتى لم يلاحظوني. ولم يحدث شيء سيء بيني وبينهم. أفترض أن الناس لا يحلمون مثل هذه الأشياء. إنهم في منامهم يتوهون متاهات مظلمة ويحاربون المينوتورات.

بلا رجعة

من حين إلى حين، أخرج من ملجئي وأذهب إلى سينما أوديون. لا أريد إلا مشاهدة أفلام قديمة بالأسود والأبيض. قرأت أنهم يعرضون أفلام دزيغا فيرتوف، ولا أريد أن أتغيب عنها. كان في يناير، في عصر اليوم البارد الغائم الممطر. قبل خمس دقائق من عرض الفيلم، رأيتُ أنني المتفرج الوحيد. شككت في أنهم سيعرضون الفيلم من أجلي فقط. لحظتها رأيت المتشردَيْن اللذين يدوران أمام السينما، يراوحان في المكان ويدخنان. سألتهما ما إذا كانا يحبان مشاهدة فيلم في الدفء. فنظرا إليّ نظرة غير واثقة، كأشخاص لم يعتادوا أن يتلقوا مثل هذه الاقتراحات. سألني أحدهما ما الفيلم. قلت إنه من الأفلام القديمة، فهز رأسه علامة الإيجاب، أطفأ السيجارة ودخل الاثنان السينما معي. اشتريت ثلاث تذاكر. نظرت الموظفة إلينا نظرة استياء آرية الأصل، رغم أنها لم تجرؤ على منعهما من مشاهدة الفيلم. عند دخولنا لاحظتُ كيف هندما المعاطف ونزعا القبعات. اختارا الجلوس في الصف الأخير، كان في القاعة دفءٌ، وبدا لي أنهما غفيا بسعادة بعد بداية الفيلم

بقليل. كان الفيلم صامتًا، فقد دعوا عازف البيانو ليرافق سير الفيلم، كما كان في العشرينيات.

كاميرا سينمائية متحمسة لم تعد تفرح بقدرتها الخاصة وتصعد سقوف البيوت، تُغير المنظور، تستلقي على السكك الحديدية. كل جنون روسيا في فترة العشرينيات، السكارى، أطفال الطلائع، المتشردون على المقاعد. وهنا سأقول سبب حكايتي هذه القصة- تقرير المسلخ. روتين ذبح البقرة، ثم "بعثها من الموت" عن طريق استعادة الشريط إلى الوراء. يظهر على الشاشة كلام: "قبل عشرين دقيقة كان هذا اللحم بقرة". كأن الكاميرا تصرخ "قمْ يا لعزار!" ووجبات اللحم المشرح تتحول إلى بقرة، ويصير لحم البقر بقرة. وتعود الأمعاء إلى الكرش، ويلتصق قطع اللحم بالفخذ... "ولنلبس الجلد الآن". وكأن سكاكين القصابين تصبح إبر خياطة كبيرة، ويصبحون هم خياطين يلبسون من جديد الجلد الذي نزعوه قبل قليل، متحمسين، مضحكين في سير الشريط العكسي. وحتى العازف يستعجل في عزفه وتعلو الموسيقى بشكل مهيب.

يظهر على الشاشة كلام "ولنبعث البقرة من الموت". وهنا حيث تنتظر الأوج، الأعجوبة، أنشودة الفرح (العازف يستعجل الرقص على المفاتيح)، هنا تأتي الصدمة. تشنجات الموت، التي تم إعادتها، تبقى تشنجات الموت. لحظة الموت، الصدمة الكهربائية، الجسم منزوع دوزانه، الهول، الأدرينالين، عينا البقرة اللتان ابيضّتا، كل ذلك لا يبعث البقرة من الموت، كما ينتظر مدير التصوير، بل يقوّي سكرات الموت. وغير أن البقرة، بعد لحظة، تلوح بذيلها بحماقة، إلا أنك تفهم بوضوح أنها ميتة بلا رجعة.

قبل خروجي من القاعة أعدتُ المتشردين السعيدين، اللذين فوّتا على نفسيهما حكاية الموت الذي لا رجعة فيه، من غيبوبة النوم.

كل سنة يُقتل 1.6 مليار من البقر، والغنم، والخنزير، و22.5 مليار من الطيور ليأكلها الناس. إننا جهنم الحيوانات، إننا أبوكاليبس الحيوانات.

حكاية رجل نباتي آكل لحوم البشر

"كان هناك في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، رجل آكل لحوم البشر وكان نباتيًا".

"وماذا يعني نباتيّ؟"

"يعني إنسانًا لا يأكل اللحم. مثلي ومثلك".

"وهل آكل لحوم البشر هو نفسه من البشر؟"

"أأأأ... نعم، يشبه الإنسان لكنه أكثر رعبًا منه".

"خلاص، لا تخوّفْ الولد بهذه السخافة" الصوت نسائي ويأتي من الغرفة المجاورة.

"ماما، أريد الاستماع إلى حكاية الرجل النباتي آكل لحوم البشر. هل أغلق الباب؟"

"اغلقه كيلا نخيف أمك".

"ولكن الناس مصنوعون من اللحم، أليس كذلك؟"

"نعم، من اللحم".

"ولعل النباتي آكل لحوم البشر المسكين كان يموت من الجوع".

"لا يموت من الجوع فحسب، بل ومن التهكم عليه أيضًا".

"وهل يسبب التهكم الموت؟"

"التهكم هو أكثر ما يسبب الموت. كان كل آكلي لحوم البشر يتهكمون عليه، ويدعونه بآكل الفواكه وآكل الأعشاب. ولا يريد أحد الكلام معه. لأنك إذا لم تأكل البشر، فلم تكن لديك شيء ترويه ضمن شلة آكلي لحوم البشر. أما هم، فيقصون حكايات مضحكة..."

"مخيفة...؟"

"ما يخوّف البشر هو ما يضحّك آكلي البشر. يسابقون في المخاتلة ويتمرغون ضحكًا... أما صاحبنا النباتي آكل لحوم البشر، فيقف إلى جانبهم ولم يكن لديه ما يرويه. وحتى إذا اقترب صدفة من زمرة آكلي البشر الحقيقين، فيتهكمون عليه تهكمًا عنيفًا: هيا إحكِ كيف تغلبتَ على ثلاث شجيرات القرانيا ورجعتَ إلى البيت ملطخًا بالدم؟ هكذا يقولون له. أو "قلْ كم رأس ملفوف تستطيع قطعه دفعة واحدة؟" والرجل المسكين يلوي ذيله كالكلب..."

"هل لديهم ذيول؟"

"إنها مجرد عبارة. عندها ذهبت إحدى آكلات لحوم البشر، التي أُغرمت سرًا بهذا الإنسان... بآكل الإنسان هذا، إليه وقالت له إنه يجب ولو لمرة واحدة في حياته أن يجرب لحم بشر، فيمكن أن يعجبه وأن يعود إلى رشده. والأفضل إذا جرّب بدايةً لحم إنسان نباتي..."

"المائدة جاهزة"، تقول أمي واقفةً على عتبة الباب.

أبي نباتي. وطبيب بيطري. إذ أنه لا يأكل مرضاه. أتذكر كيف ينظر إليه عاملو المطعم عندما يطلب طبقًا بدون لحم. مثلما ينظر آكلو لحوم البشر إلى آكل لحوم البشر النباتي. أتذكر أيضًا كيف يسأله دائمًا أحد الجيران لماذا يرفض أكل اللحم، وهل هناك من يحفزه على ذلك، هل انضمّ إلى جماعة دينية، أو قرأ شيئًا في الموضوع، وكيف هكذا الكل يأكل لحمًا، أما هو فيخرج من جماعتهم؟ هيا كنْ رجلاً، أطلبْ كبابا مع فاصوليا، أو كليتين بالفرن أو رأس خروف. أنا – يقول – عندما آخذ رأس الخروف، أشقّه جيدًا. أولاً أُخرج اللسان، ام م م... ثم أكسر الجمجمة بسكين.. الآن أشربْ مخ الخروف بالملعقة الكبيرة، والعيون ام م م... عند هذه الكلمات يقوم أبي فجأة قائلاً إنه ينبغي أن يخرج، أما أنا، فأندفع إلى الحمام لأتقيأ. "ها هو الخروف، فلا يأكل سوى عشب، إبدأ معه..." يهتف ذاك الجار وراء أبي.

من الغريب ألا تتناسب الاشتراكية والنباتية. كما هو الشأن مع اللبن والسمك.

نعرف أن هناك حيث يمر الجار، تأتي بعده الشرطة. كان أبي على استعداد لذلك وعندما استدعته الشرطة، استغرق في الكلام شارحًا لهم كيف أن جسم الإنسان يتطلب طعامًا نباتيًا، فله جهاز هضمي طويل، أطول من الجسد بست مرات بالمقارنة مع آكلي اللحم، حيث يتجاوز طول الجهاز الهضمي طول الجسد بثلاث مرات فقط، وله أيضًا أضراس مفلطحة، ولعاب قلوي وإلخ. ونقل أبي عن فلوطرخس وكتابه "في أكل اللحوم"، حيث قيل (كان أبي قد نسخ كلمات فلوطرخس في الدفتر) "إذا كنتم متأكدين غاية التأكد من أن الحيوانات مخصصة لتكون طعامًا لكم، فاقتلوا بأنفسكم هذا الكائن الذي تريدون أن تأكلوا لحمه. ولكن لا تقتلوه بعصا أو ساطور

أو فأس، بل اقتلوه بأيدٍ وأسنان".

أطلقوا سراحه.

كان أبي يفتخر بأنه نجح في إقناعهم من باب علم التشريح وفلوطرخس. على الرغم من أنهم، على الأرجح ظنوه مجنونًا قليلاً، بل لا ضرر منه أو من فكره الإيديولوجي.

ملاحظات مضادة للتفوق البشري

أثناء الحرب العالمية الثانية، في الفترة الممتدة ما بين عامي 1940 – 1944، تم تحطيم 17 هيكلاً عظميًا للديناصورات، نتيجة عمليات القصف الجوي على المتاحف الأوروبية. أتخيل بوضوح هذا القتل المزدوج، أتخيل العظام المحطمة المفتتة الميتة. تداعت أبراج إيفل هذه المكونة من أضلاع وفقرات. لا حيوان يفعل هكذا. أن تقتل مرة ثانية من قد مات منذ مليون سنة، أن توقظ من جديد الرعب ما قبل التأريخ في العلبة السوداء لجمجمته.

في الحقيقة، هل هناك من حسب عدد جثث الحيوانات التي تم قتلها أثناء فترة الحرب؟ أجسام الملايين من عصافير الدوري، والغراب، وأبي الحناء، وفئران الحقل، والثعالب الممزقة، والحجل الرمادي المحول إلى رماد، والجُرذان، ومخابئ الخلد للحماية من القنابل وهي مخابئ مهدمة، والسلاحف الخفيفة الدروع التي دهستها الدبابات الثقيلة الدروع وهي نُسَخٌ ضخمة عنها... لم يقم أحد ولا في أي مكان بجرد موجودات هذا الموت. ولم نفهم أبدًا إلى درجة كافية ما الأذى الذي نسببه للحيوانات في وقت الحرب، أثناء القصف. أين تختبئ، ماذا يحدث في الأدمغة "الوحشية لإخواننا في الألم" (fellow brethren in pain) كما يسميها داروين في مذكراته؟

أحب التأريخ الطبيعي، ولكن لا أحب متاحفه. لا أرى شيئًا طبيعيًا فيها. في النهاية هي تشبه الضريح. وبأي طريقة أخرى يمكنك تسمية هذا المكان المليء بظبائيات تم نزع أحشائها، المكان المليء بقطاس، وغرير، ويحمور، وكركدنيات؟ كما ولم تُشعرني حدائق الحيوانات بفرح حقيقي قط. مع أنك يجب زياراتها مرة على الأقل في الطفولة، فوالداك متأكدان من أنك ستجنّ إن لم تشاهد الفيل وهو يلوح ملململته كئيبًا، والذئب القلق يدور في أرجاء القفص الذي يفوح منه نَتْنُ الجيفة.

لن أنسى الفيل وحزنه الثقيل الذي كاد دهسني (أثناء إحدى أزماتي المتلاحقة)، ثم بؤس النمر الأسود المستلقي على الإسمنت الوسخ، والضجر السافر الذي يستقبل ويودع به ضيوفه. أتذكر أنني عند مغادرة الحديقة، كنت مليئًا بحزن حيواني. أشهد بأن هذا الحزن أكثف من الحزن البشري، بأنه حزن وحشي، لم ترشحه مصفاة اللغة، حزن غير متفوَّه ولا يمكن التفوه به، لأن اللغة تهمّد وتهدّئ الحزن، وتهنكه، وتحجمه، مثلما يحجم جدي دم الحيوان المريض. في اليوم التالي عندما اقتادوني إلى متحف التأريخ الطبيعي، أخذتني وسوسة بأن كل حيوانات الحديقة تم ذبحها، وتحنيطها ونقلها إلى هنا لليلة واحدة. منذ ذلك الحين لم أدخل مثل هذه الضرائح قط.

قتْل بغير عمد

مستعمرات نمل كاملة، رفستها دون أن أراها، خلال كل هذه السنوات. لي قدمان كبيرتان، حجم 45، وهو أمر يزيد القوة الداحرة. وذنبي.

مريم، أو في حق القتل

كنا نتكلم، في الحقيقة كنت أنا أتكلم، عن الانقلاب الضروري المضاد لنظرية نيكولاس كوبرنيكوس، عن الأهمية الحيوية في إزاحة الإنسان عن مركز الكون، نتكلم عن الموت والحيوانات...

"عشت على مدى ثلاث سنوات مع أحد البوذيين" قالت مريم، بينما تفلع بلح البحر الكبير بأصابعها الطويلة.

أحب مثل هذه البدايات الصارمة والصلبة، بلا مقدمات.

"كان هذا منذ زمن" أضافت، كي تسبق أسئلتي التي لم أوجهها إليها بعد. "هل تعرف ما الأمر الأكثر تنغيصًا في الحياة مع بوذي؟" غرق البلح في فمها، أسنان بيضاء قويمة، لؤلؤ يتخلله حبات رمل، ثوانٍ، حتى تتمكن هذه المفرمة الرائعة من طحن اللحم. "إنه النذر ألا ترتكب جريمة قتل. هذا هو أقسى ما يقاسونه... " قضمة من البلح التالي.

في نهاية السنة الثانية، كان البيت كله يعج بالصراصير. شاهدت مريم جحافل الصراصير الراضية عن نفسها تزحف على بُعد سنتمترات عنها. لم يكن لديها حق حتى في مسها. كانت صابرة ومغرمة بالبوذي. وصمدت لكل ذلك سنةً كاملةً. تدخل كيس النوم مساءً، تغلق السستة فوق رأسها، وتترك فتحة ضيقة أمام فمها للتنفس. استيقظت ذات ليلة ورأت صرصورتين متشبكتين في لحية عشيقها البوذي النائم بهدوء إلى جانبها. وقد كان أمرًا لا يطاق. في اليوم التالي، بينما كان البوذي في شغله (أدهشني أن البوذيين يعملون) اشترت أقوى المبيدات الحشرية، ورشت بنفسها كل الشقة. كان قتلاً جماعيًا حقيقيًا. "هذه إبادة!" قلّدت مريم البوذي الهائج،

الذي عاد إلى البيت في المساء، ووقف في صدر الغرفة، ينظر إلى الصراصير الميتة وأرجلها الصغيرة المتجمدة المرفوعة في الهواء. كان واقفًا وكأنه آخر ناجٍ من الأبوكاليبس.

"هل رأيت بوذيًا يصرخ؟" سألتني مريم. "إنه أمر يستحق ما فعلته. كان ينهرني لأنني قطعت دورة الحياة الطبيعية، وأن العالم لن يعود إلى سابق عهده، وأن علاقات الكارما... أغلق الباب بشدة ورحل. في الحقيقة كانت له عشيقة".

لم نسمع على مدى دقائق إلا قرقشة قشر بلح البحر وقطرات المطر البارد في الخارج. كنت أفكر في الجملة الأخيرة ويتراكم فيّ غضب غامض على البوذي وعشيقته، على راعي الصراصير هذا.

"لا بأس، إن حق القتل مقدّس" قالت مريم ببطء. بعد ذلك وضعت بعناية القرشة الأخيرة على الجبال الصخرية أمامها.

أضع في العلبة الكرتونية الخضراء قصةَ مريم، للموازنة. كي يكون لدينا حكايات من كل نوع.

باسم أذن الدب

على الإنسان أن يصمت قليلاً حتى يسمع أثناء الوقف المقتضب صوت قصّاص آخر، صوت سمكة، أو رعاشات، أو ابن عرس أو خيزران، أو قطة، أو سحلبية أو حصاة. من أين نعرف مثلاً أن النحل لا يكتب روايات؟

وهل قرأنا على الأقل قرصًا واحدًا من أقراص خلية العسل؟ أو لنبدأ مع السمك. كم جزءًا ضخمًا من التطور مغلق في صمت السمك؟ كم معرفة راكمها السمك على مدى كل آلاف السنوات قبل ظهورنا؟ الخزانات العميقة الباردة لهذا الصمت. التي لم تمسها اللغة. لأن اللغة، مثل الحفّارة، تشق ترعًا وتنضِب مكامن المعرفة.

وهكذا يسكت الإنسان وهو الكائن الراوي الوحيد، وينسحب متنازلاً عن الكلمة لِما هو عضوي وغير عضوي، لِما راكم المزيد من الصمت حتى الآن. في الحقيقة الأشياء العضوية وغير العضوية لم تتوقف عن الرواية، لكن قصتها الخافتة المخنوقة تتحول إلى ميكا وأشنات، طحالب، وعسل، إلى تمزيق الأجسام الغريبة وتمزق جسمك الخاص.

ليس لدي فكرة كيف نقوم بذلك. ربما يجب أن نتخذ الخطوة الأولى. كل مؤلفات الأدب العالمي الكلاسيكي، ترويها الحيوانات من أجل الحيوانات.

لنقص مثلاً رواية "الشيخ والبحر" من عينيّ تلك السمكة، سمكة المارلين. هذا ما أسميه اللاتفوق البشري. فمكافحة السمكة للشيخ الأعجف والبحر ليست أقل درامية. في النهاية إنها البطلة التي جاهدت جهاد المستميت طوال الحكاية. قصة الشيخ هي قصة المعركة مع الشيخوخة. أما قصة السمكة فهي قصة الموت. كل الحكاية من خلال صوت إحدى السمكات، إنها نازفة، مقفرة العظام، بل مستميتة.

يمكن تدمير سمكة المارلين، ولكن لا يمكن هزيمتها.

...

ميريا (هكذا تكتب اسمها، بحرف "ي" بدلا من "أ") صيادة سمك

متحمسة:

"بعد أن أنهض صباحًا، أتخيل ماذا أحب أن آكل لو كنت سمكة. وهكذا أحس بطَعم الطُعم الذي يمكن إغراء السمكة به خلال النهار. أهم شيء أن تتحول للحظة إلى سمكة. وينتابك الجوع. إنه أحيانًا جوع لدودة، وأحيانًا أخرى لذرة، وأحيانًا هو جوع لذبابة. بعد أن أفهم ماذا تريد السمكة أن تأكل اليوم، أعلق الطعم بالسنارة، ألقيها وأُخرج سمكة بعد سمكة. الأمر الذي يثير الذعر بين الصيادين الذين تهكموا عليّ قبلها. ثم أرمي السمكات من جديد في الماء أمام عيونهم. مما يأجج غضبهم".

"يا له من طعام كريه! تريدين أكل الدودة في الصباح المبكر؟"

"عندما أكون سمكة، فإن الدودة طعام لذيذ".

...

"يمكن تدوين تأريخ العالم من وجهة نظر قطة، أو سحلبية أو حصاة. أو من وجهة نظر أذن الدب".

"ما هو أذن الدب؟"

"إنه اسم أحد الأعشاب الطبية".

"وتأريخ العالم المدون من وجهة نظر أذن الدب، هل سنكون نحن فيه؟"

"لا أعرف، وهل تعتقدين أن أذن الدب له دور في تأريخ العالم المدون من وجهة نظر البشر؟"

أتذكر أننا تجولنا في إحدى المدن المتعددة المتاحف والتي اشتهرت بعمارتها منذ عصر النهضة، واندلاع الثورة، والحرائق، والمدفع المصنوع من خشب شجرة الكرز، حيث يتدحرج التأريخ في الأزقة، أما أبي فأدهشته خاصة أزهار اللقلقي على النافذة، وامتدح بصوت عالٍ هؤلاء الذين ربوا هذه الأزهار. وإذا به يتوقف فجأة في أحد الشوارع، ويدور دهشًا وقتًا طويلاً حول شيء على الأرض. ذهبت إليه كي أرى ما استغربه إلى هذه الدرجة. غائط جاموس. كان يقف هناك مثل كاتدرائية منمنمة، مثل قبة كنيسة أو منارة جامع، فلتسامحني كل الأديان. كانت ذبابة تحلق حوله مثل ملاك. نادرًا ما يمكنك أن ترى غائط الجاموس في وقتنا الحاضر، قال أبي. لا أحد يربي الجواميس. واستغرق بلذة في الكلام عن كيفية تسميد القرع بروث الجاموس، وكيف يمكنك تمليط جدار به، وطلي قفير النحل من طراز القفران القديمة المغزولة، كيف يمكنك استعماله لمعالجة آلام الأذن، تدفّئه وتضعه على الأذن. في هذه اللحظة يمكنني الموافقة على أن عمارة غائط الجاموس وفيزياءه، وميتافيزياءه تفوق بأهميتها أهرام الجيزة وبيوت زمن النهضة التي نطلع عليها.

ربما لم تكن قد أبصرت النور في فرساي، أو أثينا، أو روما أو باريس، لكن السمو، مع ذلك، سيجد صورة يظهر من خلالها أمامك. إذا لم تقرأ أعمال لونجين الزائف، ولم تسمع اسم كانت أو ... إذا سكنت حقول أمية الخالدة في قرى ومدن مغفلة، لأيام وليال خالية، فمع كل ذلك سيتجلى السمو عليك من باب لغتك الخاصة. مثل دخان المدخنة في صباح شتائي، مثل قطعة سماء في اللون الأزرق الغامق، مثل سحابة تذكّرك شيئًا من عالم

آخر، مثل غائط جاموس. السمو في كل مكان.

سقراط في القطار

لو دام كل شيء أبدًا، لما كان شيء ثمينًا.

غاوستين

تكوّن العالم عن طريقة تبدو بديهية لا تُجادل. لكننا إذا قلبنا لومضة كل النظام وبدلاً من أن نعظّم الدائم الباقي الخالد الميّت، نقرر أن نعظّم كل ما هو سريع الهدم المتغير الزائل الحي؟

كان القطار يمر حول غيطان حارقة في نهاية أغسطس، فهنا ما زالوا يستخدمون هذه الكيفية البربرية للحرق، وبعد حصد الحقول، يشعلونها كي يسهّلوا حرث الأرض فيما بعد. تخيلتُ أجنحة الطيور المحروقة، الجرذان والفئران الراكضة بوصوصة، السحالي والأفاعي المكتوية. كانت اللقالق تحوم قلقةً فوق الغيطان المشعلة - لنغادر المكان على عجل، على عجل... كان الكل يريد الفرار، والعالم يقترب من الخريف. في نفس الوقت كنت في طريقي عائدًا إلى مدينة ت.

في نهاية الأمر، إذا ما استمرينا نظن الإنسان مقياس كل شيء، فهو قريب من هذه البراميترات اللاديمومي - لأنه متغير، مائل إلى الموت، حي، بل فانٍ، دائمًا محترق بلا لهيب.

شعرت كيف تتهيج مخيلتي، كنت بحاجة إلى معارض. فاخترعت

منافسًا داهية، فصيح اللسان، منحته فضائل سخية، ودخلت حواري السقراطي المفضل.

"حضرتك تقترح أن نبدل الديمومي بما هو سريع الهدم"، بدأ المعارض.

"أقترح أن ننظر في جدوى هذه الإمكانية".

"مفهوووووم... قلْ هذه العبارة بصوت عالٍ وسترى كم أنها سخيفة – أن تبدل الديمومي بما هو سريع الهدم. ألبسْها بموضوعية معينة، كما تحب حضرتك أن تقول. تصورْ بيتًا متينًا جميلاً من جانب، وكوخًا من جانب آخر. أحضرتك تبدل البيت بالكوخ؟ في يدي ذهب، في يدي الأخرى قش. ماذا تختار؟ القش سيصدأ حالما يبلله أولى قطرات المطر".

"انتظرْ، انتظرْ... تتكلم بشكل معقول، لكنك بوقاحة تستهتر بحق التطلع إلى شكوكي الخاصة. ولنتفحّص وجهة النظر الأخرى. تصورْ عالمًا اتفق الجميع فيه على وجود سلسلة مراتب جديدة. حيث الفاني والحي أثمن من الخالد الميّت. أي بعكس العالم العادي الذي نعيش فيه اليوم. ولنتخيل العواقب الناتجة عن كل هذا. نُسقط فورًا أسبابًا كثيرة للحرب والنهب. فالسارق تجذبه الأشياء الخالدة أو على الأقل الأشياء الباقية، مثل سبيكة الذهب، مثل البيوت المتينة، المدن، القصور، الأرض... هذه هي الأشياء التي تجذب الغزاة. فلا أحد يحارب من أجل الاستيلاء على كومة تفاح، ولا أحد يحاصر مدينة من أجل أشجار الكرز المتزهرة الفواحة. بينما الحصار مستمر، ستذبل أزهار الكرز، وسيتعفن التفاح. ولأن الذهب سيفقد قيمته، التي تم الاتفاق عليها (لأنها فعلاً قيمة وفقًا للاتفاقية)، فسيتدحرج الذهب على الأرض ولن يخطر ببال أحد أن ينظم حملة صليبية للاستيلاء عليه. وبمناسبة الحديث عن الحملات الصليبية، فلنتفكر في ذلك الجانب من الموضوع. الأديان الواقفة وراء كل حملة صليبية أو حرب مقدسة ستفقد فجأة الأرض

تحت قدميها. الآلهة القدماء كانوا آلهة لما هو الخالد في كل أبعاده. هل هناك إله لما هو سريع الهدم؟ ولكن إذا كان في السلسلة الجديدة آلهة - ولماذا لا يكون؟ - فإنهم سيكونون آلهة لما هو سريع الهدم فانٍ. آلهة لما هو هش وسهل الكسر. وبالتالي هم آلهة هشون سريعو الكسر. آلهة حسّاسون، عاطفيون. ماذا نريد أكثر؟ الموت يرفع السعر ويفتح العيون."

"ولكن أليس كل هذا سريع التلف ومتغير للغاية..."

"لا، أنت مخطئ. ولنأخذ القش، الذي ما زلت تقبض عليه في يدك اليسرى منذ بداية مناقشتنا. كان هذا القش قمحًا، وكان القمح بذورًا، وكانت البذور قمحًا، وكان ... انتبهْ إلى شيء مهم، وهو أن الفاني يتناسل. إنها الميزة الأولى. وأما الذهب الذي تقبض عليه في يدك اليمنى، فهو باقٍ إلى الأبد، لن ينجب ذهبًا حتى ولو زرعته ورويته بالماء كل يوم على مدى 200 سنة. سأقول هذا الكلام كونه تناقض ظاهري - الفاني بسبب موته هو أكثر ديمومية مما لا يفنى وهو عاجز عن التناسل. (نسيت تمامًا وجود المعارض الذي اخترعته). ما رأيك، يا صاحبي؟ "

"أأأ... وأين مكان التقاليد هنا؟ أين مكان الفن كله، ومحاولاتك الذليلة في الكتابة؟ (المعارض لا يعود يستخدم "حضرتك"، إنه غاضب) أسألك هل الكتاب الذي تؤلفه، هو من جانب الأشياء السريعة الهدم، أم من جانب القِيم الخالدة. ما صلاحية كلماتك الخاصة؟ "

"ما صلاحية الكلمات؟"، أردد، لأنني لا أعرف الإجابة. "ولْنقل جدلاً أنها تدوم بطول النَفَس الذي تلفظ فيه الكلمات. أنت تزفر الكلمة، كم هي خفيفة، ترفع شراعها وترسلها إلى مرفأ الإنسان الآخر. يمكنها أن تموت قبل وصولها، أن تغوص في طريقها، أن تصطدم بأسطول كلمات غريبة. أنا لا أعرف، أهذه عدم ديمومة، أم ديمومة لا قياس لها؟" (لن أعتذر إلى المعارض

للشاعرية هنا).

"سأترك شرحك الشعري وأتجاهله. وأين هويتك الخاصة، إذا اعتمدت على المتغير؟"، لا يستسلم معارضي. "أين الأسلاف، والتقاليد، والثقافة؟ أين كل ذلك الذي صُنع من ثبات؟ كل الذي يصرخ في وجهك ألا تنسى من أنت ومن أين أتيت؟"

"وما الذي أعطتك إياه الهوية يا أحمق؟"، (تبخّر الأدب من حوارنا وصار في خبر كان). "دمٌ وحروب، أجسامٌ ممزّقة، انتحاريون - هذا ما أعطتك. الهوية الحقّة واحدة، وهي أن تكون مخلوقًا حيًا بين مخلوقات حية. أن تكون فانيًا وتثمّن الآخر، لأنه فانٍ".

"الإنسان هو مقياس كل الكائنات، وما صنعته يديه ينبغي أن يكون باقيًا، أن يستمر بالعيش بعد موت الإنسان".

(ها هو الآن سقط في فخي، فأنا الذي اخترعته ولدي الحق أن أدفعه في الفخ).

"بالضبط. الإنسان هو المقياس. وكل شيء، الذي يتجاوز هذا المقياس، الذي يستمر أطول من الإنسان ويبقى بعد وفاته، كل ذلك بالمبدأ هو غير إنساني في طبيعته، هو منبع حزن وفُرْقة". (هل تسمعني الآن؟ طبعًا يسمعني، فلذلك اخترعته).

"ولكن..."

"نسكن بيوتًا تستمر بالعيش بعد موتنا. ندخل كاتدرائيات سارت فيها سلاسل طويلة من الناس والأجيال، الذين ليسوا على قيد الحياة، كما لو كان يوم الحساب. كل شيء يقول لك: "إنك ترحل، ونحن نبقى. دفنّا كثيرين قبلك، وسنعتني أيضا بأولئك الذين أنجبتهم". لماذا؟ أعطني سببًا وجيهًا

واحدًا، فما تم بناؤه من حجر ينبغي أن يدوم أطول مما بُني من لحم. لا أرى معنى خاصًا وعدالة في هذا الأمر. لا أدري ما كان الشعور بالزمن والخلود، الذي أحسه أولئك من قبلنا، أولئك في ليل البدائية، الذين سكنوا أكواخًا غير دائمة، بقوا أحياء بعد موت أكواخهم، بعد موت مواقدهم، انتقلوا من مكان لآخر، قاسوا حياتهم بأيامٍ وليالٍ، بأنوار مشعلة ومطفئة. أولئك عاشوا حياة أبدية، حتى ولو ماتوا في الثلاثين".

أشياء غير صالحة للجمع

(قائمة لما هو سريع التلف)

الأجبان – تفوح منه رائحة كريهة

التفاح – يذبل ويتعفن

الغيوم – تُغيّر حالة مادتها

مربى السفرجل – يصاب بالعفن

العشيقات– يشخن، يذبلن (انظرْ التفاح)

الأولاد – يكبرون

رجال الثلج – يذوبون

أفراخ الضفادع ودود القز – متغيرة الأشكال

يظهر في آخر المطاف أن لا شيء عضوي صالح للجمع. إنه عالم تنتهي صلاحيته باستمرار. عالم سريع التلف، ذابل، متعفّن، فاسد، (ولذلك) إنه

عالم رائع.

موقف

أتصور وجه الإنسان الأول الذي سيجد هذه المذكرات. بالتأكيد سيظن أن وحشًا عاش هنا. المينوتور في داخلي فعلاً يرتجف خوفًا من الظلام، لكنني أبدو بشكل عادي، أحمل جسم رجل كهل أبيض، امرأة حامل مني، أحيانًا أذهب إلى البحر وحيدًا، أو أسافر إلى الخارج. أعيش ما يسمى " حياة عادية" في "العالم العلوي" . الناس فعلاً يظنونني رجلاً صموتًا منطويًا على نفسه، ولكنه شيء طبيعي بالنسبة للمهنة التي أمارسها. كتبي رائجة بشكل جيد نسبيًا، الأمر الذي يوفر لي الوقت والمكان لأداء شغلي، وكذلك الهدوء الذي أحتاج إليه. لا أقوم بمقابلات.

كنت قادرًا على أن أشارك، رغم أنه كان بشكل متكاسل، في المناقشات الحيوية وفي نفس الوقت أن أسكن مكانًا آخر، جسمًا آخر أو ذكرى أخرى. أحيانًا تكون أعراض حالتي واهنة، ولم يلاحظها إلا بعض النساء اللواتي كانت لدي علاقة دافئة معهن. وأبرر نفسي بإثبات الغيبة وهو أنني كاتب. يمكنك الغياب قدر ما تريد، ولا تلبي دعوات منتظمة، فدائمًا سيتفهّمون عندما تفضل البقاء وحيدًا. في البداية يتصلون بك ويلحّون بالاتصال، وبعد ذلك ينسونك بسرعة. هنا الناس ينسون بسرعة، لا أعرف إذا كنت قد قلت هذا من قبل.

البشارة والمحارة

عندما أخبرتني زوجتي بأنها حامل، كنت أبعد عنها ثلاثة آلاف كيلومتر. وكنت في تلك اللحظة أستعدّ لابتلاع محارة حية لأول مرة (أنا، الذي في زمن ما استطعت أن أكون بزاقة)، في أحد القصور الفرنسية القديمة

بمناسبة افتتاح مهرجان الكتّاب (السيء الذوق) الثقيل. لم أجرّب محارًا من قبل قط. كما ولم يكن لدي طفل من قبل قط. حاولنا إنجاب طفل على مدى سنوات. إذن حدث لي هذان الشيئان لأول مرة – البشارة والمحارة. كانت صحفية فرنسية تمسك بمحارة كبيرة في يدها، وتشرح لي بإنجليزية ضعيفة كيف يجب أن أرش المحارة بقطرة عصير الليمون وأمتصها. وأنا أيضًا كنتُ أمسك بمحارة في يدي، مشاهدًا الجُسَيْم المتضور، وبيدي الأخرى أقبض على الليمونة مثل قنبلة محاولاً أن أوقظ القاتل فيّ. أعتقد أن الليمونة ستقتل المحارة. جسم المحارة الهش المخاطي يشبه مَهْبِلاً وجنينًا سابحًا في السائل السلويّ في آن واحد. لحظتها بدأ هاتفي يهتز في جيبي مستقبلاً رسالة، مما سكّن ضميري المتردد، وتم نقل إشارات الحَزْم عن طريق المشابك غير المرئية، فانقبضت الألياف العضلية، ووصلت حركتها إلى يدي اليمنى والأصابع الثلاثة التي قبضت على الليمونة، فتلوّى جنين المحارة تحت عصير الليمون المشل. غمّضت عيني وابتلعتها. في هذه اللحظة مر جدي علي بالعّا دواءه الحي وربت على الكتف. أخرجت الهاتف. وقرأت الرسالة: "أجريتُ اختبار الحمل، والنتيجة إيجابية" . كلمات قصيرة ودقيقة، بلا مشاعر زائدة. كأن المحارة تحركت فيّ. شعرت بالغثيان، وهرولت إلى الحمام. وأحسست كأنني خرونوس الذي ابتلع طفلاً آخر من أطفاله. وبعدها لم أجرّب المحار أبدًا.

نهاية المينوتورات

أحد يمشي فيّ. أحد ضاع في بطني. هكذا قالت في عصر يوم شتائي ونحن جالسان بهدوء في الغرفة، نحاول سماع تراكم الثلج في الخارج.

صدحت هذه العبارة بشكل جميل، وخارج الزمن. كانت متمددة في الكرسي الهزاز، قد فتحت كتاب "الخرافات والأساطير الإغريقية" ووضعته مثل سقف محدّب على بطنها البارز البيضوي الشكل.

كم هو قريب منا، بُعدَ سنتمترات عنا، فكرت في نفسي، وراء جدار هذه البشرة، ولكن يجب مرور أيام، أسابيع، شهور، حتى يصل إلينا.

أردت أن أحفظ كل ذلك غيبًا، الكرسي، النافذة التي يضيئها الثلج، جمال هذه العبارة، كل الكلاسيكية القديمة في هذا العصر الشتائي. الشتاء هو أكثر الفصول كلاسيكية. أخذت ورقة وكتبت على عجل بعض الجمل من باب التذكّر لا أكثر. مع ذلك أصبحت ما يشبه قصيدة. الأمر الذي أجد فيه منطقًا، إذ أن طريقة تنظيم الشعر هي جزء من طريقة الاستذكار. إن شعر هوميروس في الوزن السداسي عشري هو كيفية الاستذكار، وآلة الحفظ عن ظهر قلب، أليس كذلك؟ كنت أحاول أن أصف هذه الليلة وأدخل مغارة هذا البطن، أو جوفه، أو بيته. ورأيت أنه تم تبديل الأدوار. ما الذي يتيه في الداخل، هو ليس المينوتور، وإنما ما يأتي ليقتله. ولنسميه للوضوح ثيسيوس. فيه الحبل السري مثل خيط أريادني. ولكن أين المينوتور؟ في قلق السؤال قد نام جوابه. المينوتور كنت أنا. ولنقلب الجملة حتى لا أتخبأ في نهايته. أنا كنت المينوتور. ثيسيوس – هو، هي (جنس الأسماء هنا لا يهمنا) يأتي ليقتلني بكل براءة القدر. لم يكن مكان أختفي فيه، ولم يتبق لدي إلا أن أنتظر وصوله بتواضع. "نهاية المينوتورات" كان عنوان تلك القصيدة. عليّ أن أبحث عنه وأرى أين خبأته.

وُلدتُ مبكرًا صباحًا في الشتاء. كانت السماء مظلمة. كنت أمشي راجعًا إلى البيت، وكان مخرج المستشفى يمر عبر نفق غريب. مما جعلني أحس كأنني أخرج من الرحم، كأنني أقطع طريق هذه الطفلة. أب مولود حديثًا.

منذ زمن لم أتنزه في هذه المدينة في الخامسة صباحًا قبل بزوغ الشمس. كانت أضواء النيون تخمد، مر الترام الأول، رأيت رقمه. 7. قلت في نفسي "إذن كل شيء سيكون على ما يرام". كانت الساعة 5.07 تمامًا. أحد الرجال يفتح بسطته لبيع الصحف، طلبت عددًا واحدًا من كل الصحف الصادرة اليوم. فنظر إليّ نظرة حائرة ناعسة. وقال في ارتباك: ولكن لا شيء خاص حدث اليوم.

حدث، حدث، رددت عليه. دفعت له، أخذت كومة الجرائد وغادرت سعيدًا.

ما هي عناوين الأخبار هذا اليوم؟ هل كانت غرفة العالم الطفولية مستعدة لاستقبال هذه الطفلة.

...

شتاء أول.

ثلج أول.

ريح أولى.

كلب أول.

غيوم أولى.

كل مرة يتم خلق العالم من جديد.

من أجل عين طفل.

من أجل عين كل مولود حديثًا جرذون، أو ذبابة أو سلحفاة.

في البداية يتكلم لغة كل المخلوقات الحية، يهدل مثل الحمام، يغرغر مثل الدلفين، يموء، يزقزق، يصرخ... مرق اللغة الأوليّ.

"دغيش"، "أنغاا"، "بنيا"، "داييا"، "بنيا - بنيا - بنيابا"، "باتيابووو"...

لا يمنح الرب المواليد اللغة فورًا. وليس هذا صدفة. فالمولود حينئذٍ يعرف سر الجنة، لكن لا يعرف اللغة كي يصفها. وحين يُمنح الطفل اللغة، يكون قد نسي السر.

خطواتها الأولى، تمشي وتتمايل بجسمها مثل البطريق الملكي. كأنها تخطو على سطح القمر. تمد ذراعيها لتمسك بالهواء. كم هي مركزة ومبتسمة في داخلها، كم هي هشة. عندما تنظر إليها... وهي تسقط.

بينما أكتب عن أحزان العالم، عن saudade البرتغالي، والحزن العربي، و"المرض السويسري" - النوستالجيا...، تجيء هي، وعمرها سنتين ونصف، وفجأة تشد قلمي من يدي.

والآن اجلسْ هنا وافتح فمك جيدًا، تأمرني. ثم تقف على أطراف أصابعها وتنظر إلى حلقي. أووو، ما أشدَّ الظلام فيك، لا أرى شيئًا...

هيا نلعب لعبة «الغبار». أنت أبو الغبار وأنا الذَرَّة الصغيرة.

الفصل السادس

مشتري الحكايات

حاملة الأجنة

هذا ما جرى. ولِمَا لا أخبرك؟ فلست خائفة. أَحْمِلُ هنا وفي الشهر السابع من الحمل ينبغي عليّ عبور الحدود اليونانية. أشفط بطني، أرتدي ملابس عريضة، لذلك من الأفضل اختيار الطقس البارد. أشعل سيجارة، بينما هم يفحصون جواز السفر، وذلك كي أبدو من جانبٍ مطمئنة وثابتة الجأش، ومن جانب آخر كيلا ينكشف حملي. طبعًا قدّم الرجل الذي ينقلني عبر الحدود رشوة، ولكني عليّ كذلك أن أمثّل دوري جيدًا. أعبر الحدود. أمكث في ضواحي أثينا شهرين في غرفة عمياء، بدون شبابيك، كأنني في مخزن البيت. لا أخرج البتة، حتى لا أثير مشاكل. ولا أفعل إلا الرقود، ومشاهدة التلفزيون، وآكل حتى يمتلئ بطني. يطعمونني هنا أفضل طعام، فالبضاعة يجب أن تكون سليمة. أتمُّ أشهر الحمل وينمو الجنين، وقد اتصل أولئك بالمشترين الذين يقولون إنني من بين أقربائهم، ويجدون طبيبًا، وأُنجب الطفل سرًا. يأخذ صاحبي النقود وانتهى الموضوع. كل ما أريده هو ألا أرى طفلي حتى لا أحزن. لأنني لو رأيته ولو لمرة قُضي أمري. لن أستطع تركه وسأفشل كل شيء. فبفضل هذا العمل أربي أولادي الآخرين، وينتظرني بالبيت أربعة أطفال. كل ذلك من أجلهم. كم سعر الطفل؟ خمسة أو ستة آلاف ليفا، لقد دفعوا لي مرةً ثمانية آلاف، وكان ذكرًا، والذكر يباع بسعر أعلى، وحصتي 10 بالمئة. بعت أربعة، ربيت أربعة، هذا هو حسابي. لكن الطفل الذي أحمله الآن سيكون الأخير، انتهى. ها هو يركل في بطني، يعرف أننا نتحدث عنه، هيا توقفْ عن الركل، حياتك هناك ستكون بألف خير مما لو كنتَ بيننا. أحيانًا أراهم في المنام وأشعل شموعًا لأجلهم.

اشتريتُ هذه الحكاية في نهاية ديسمبر، بالقرب من الحدود اليونانية. حين قدمت لها النقود، نظرت المرأة إليّ نظرة دهشة. فلم تفهم بالضبط لماذا أدفع. وقالت: لم أملك شيئًا أبيعه لك، ولم أعد أستطيع إنجاب الأولاد. جاوبتها أنني اشتريت حكايتها لتوي. لست متأكدًا من أنها فهمت. أخذت النقود، فتلتها في يديها، كأنها تتوقع أن أطلبها منها من جديد، التفتت، سارت بعض الخطوات وبكت. وخطر لي أنها لم تبدأ تبيع أولادها إلا الآن، حين بدأت تتحدث عنهم. فكل ذلك، بدون الحكاية، ليس سوى صفقة.

رواية القصة هي جزء من يوم الحساب، لأنها تجعل الناس يفهمون. ولكن ليس واضحًا ما فائدة الفهم. أضع هذه الحكاية أيضًا في العلبة.

مشتري الحكايات

في الماضي كنت قادرًا على التقمص الوجداني، والآن من الضروري أن أقوم بالشراء. ويمكنني تقديم نفسي إليكم هكذا: أنا الرجل الذي أشتري الماضي. تاجر الحكايات. الآخرون يتاجرون في الشاي، الكُـزْبـرَة، الأسهم، الساعات الذهبية، الأرض... وأنا أمشي وأشتري الماضي بالجملة. سمّوني كما تحبون، جِدُوا اسْماً لي. مَن يملكون الأرض هم ملاّك الأرض، وأنا مالك الزمن، مالك زمن الغرباء، صاحب حكايات الغرباء، وماضي الغرباء. إني مشترٍ محترم ولا أخفّض السعر أبدًا. ولا أشتري إلا الماضي الخاص، ماضي أناس معيّنين. مرة حاولوا أن يبيعوا لي ماضي دولة، ورفضت.

أشتري حكايات من جميع الأنواع – حكايات عن الهجر، والإناث الخائنات، والطفولة، والرحلات والضياع، والأحزان والنجاة الفاجئة...

أشتري أيضًا حكايات سعيدة، مع قلة البائعين لهذا النوع من القصص. ومنذ الكلمة الأولى أستطيع التمييز بين البضائع الطازجة والفاسدة، بين السلع الحقيقية وسلع المؤلفين الكاذبين، الذين لا يريدون سوى اكتساب بعض النقود.

معظم الناس يبيعون حكاياتهم بأبخس الأثمان، بل إن البعض يندهش أنني أقدم لهم نقودًا مقابل شيء لا يكلّف شيئًا. وبعضهم الآخرون راضون بالتخلص من العبء الذي حملوه بأنفسهم حتى الآن، ونقله لشخص آخر.

وما ربحي؟ بسبب أحد الأمراض الذي أصابني في الماضي، وبفضل الحكايات التي أشتريها الآن يمكنني أن أمشي في ممرات الأزمنة المختلفة. أن أملك طفولة كل الذين اشتريت منهم، أن أملك نساءهم وأحزانهم. أن أكوّمها في علب نوح في ذاك القبو.

تاجر زيت الزيتون

(كل الحقيقة عن السيد غ.)

1.

صدّقْني، التقيتُ الكثير من السادة، ولكن لم ألتق سيدًا يحترم النساء إلى هذه الدرجة، كالسيد المحترم الفاضل غ.، إلى درجةٍ توقعك في حرج. لم ألتقِ رجلاً يمكن أن يجلس بهدوء إلى جانب امرأة عارية مستعدة له، بعد أن أعدّها هو نفسه، امرأة لينة مثل الصلصال، أن يحس الرجل كيف تلتهب وتصرخ بشرتها من أجله وهو لا يلمسها حتى بإصبعه، ولا يسرح حصانه فيها، كما كُتب في كتاب ما، أنا أقرأ كثيرًا، ولا يطلق العنان لفحله، ولا يُخرج

سيفه، ولا يُطلق سهمه المشدود، لم ألتقِ ولن ألتقي أبدًا مثل هذا الذكر، الذي يترك الفرصة السانحة كهذه، ويصف كيف أننا نشرب بسهولة من كأس الخطيئة، كأنها مغلي بابونج أو نبيذ، وكيف نشتهي ما ليس لنا، كأنه تين نبت وسط الطريق. ولله كيف كان السيد غ. يتقن الفصاحة ويخطب بذكاء لازوردي، يخطب ببلاغة جميلة، رجالنا لا يتكلمون هكذا، يدسون فقط اليد من تحت تنورتك، يمسكون بنهديك ويضغطونك على الحائط. لا أعرف ما إذا كان هذا الرجل القديس ما زال على قيد الحياة، لماذا تسأل، يا سيدي، هل تعرف شيئا أكثر عنه؟

آه، كم أنت لطيف يا سيدي، لم أعرف أن بإمكاني الحصول على ثمن للحكاية.

.2

كان اغتصابًا، بصراحة. كان اغتصابًا حقيقيًا بدون تماس بدني، وعبارة «تماس بدني» أعرفها من القاضي ر. الذي رحل عن هذا العالم، رحمه الإله، وكان يقضي أكثر لياليه معي بدلاً من قضائها مع زوجته شرعًا وقانونًا، كنا نقوم بتماس بدني، هكذا كان يسميه، وأنا لا مانع لدي، كان نفس الشيء، لكنها كلمة أرقى، لكنني مع السيد غ.، خلافًا للقاضي المرحوم، لم نمارس تماسًا بدنيًا، ومع ذلك فإنني لم أُغتصب بهذا الشكل الخشن والوحشي من قبل قط، وكان علي أن أحتمل كل كلامه المجنون حول الزنا والخطيئة، الكلام الذي لم يقله لي زوجي... أنت تدعو امرأةً إلى بيتك، تنزع ثيابها وثم تعاينها كما يتم معاينة الغنمة، تؤنبها، كأنك لستَ مَن حثها على اقتراف الخطيئة، وفي النهاية تطردها من بيتك... لم أشعر بمثل هذا الشعور القاتل الساحق من أي ذكر قط، نهضت، ذهبت مباشرة إلى القاضي ر. وقلت له إن السيد غ. قام

بمحاولة اغتصابي والحث على...، عرّيته جيدًا، لا أعرف ما قام به عزيزي القاضي أو كيف فعله، ولكن في اليوم التالي، قبل انبلاج الفجر، كان السيد غ. قد هجر البلدة خلسةً، ولم يعد يتكلم أحد عنه، ربما لأن في كل بيت كانت امرأة عبرت سريره الحديدي... كم سنة مرت منذ ذلك الحين، وحضرتك يا سيدي، أنت أول من يسأل عنه، لماذا تريد أن تعرف... هل تكلمنا عن النقود، شكرًا، شكرًا.

3.

إذا أردتَ جوابًا صادقًا، أقول لك إن السيد غ. المحترم كان يسلك هذا السلوك يا سيدي، مع أنني لا أعرف إن كانت لديه رتبة كهنوتية في الكنيسة، كرس نفسه لإغواء النساء. ولكن ليس كل النساء وإنما الزوجات منهن فقط، الزوجة التقية الطاهرة العفيفة، وعندما تجد نفسها عاجلاً أو آجلاً في سريره، لا يمسّها أبدًا، بل يبدأ بسؤالها لماذا هي الآن معه، ماذا تنتظر منه، ما حثها على أن تترك زوجها وأولادها، وكان يتكلم عن الأخلاق، آآآه، كم كان يحب الكلام عن الأخلاق، تضطجع المرأة عاريةً على سريره الحديدي، أما هو فيلوح بالسبابة في وجهها ويخطب، ويعاين، ويسأل... لقد بلغتُ العمر الذي يمكنني أن أقول فيه كل شيء، لذا أعترف بأنني أيضًا كنت هناك، ولكن يا سيدي، لا تؤنب الزوجات أبدًا، فنحن كائنات بائسة، يُدخلوننا في السرير قهرًا، ونبدأ بإنجاب الأولاد كل سنة ونصف، وكأننا في سباق مع بقرة الحظيرة أو خنزيرة الزريبة، أما السيد غ.، فكان لا يشبه رجالنا، لا ينحدر من هذه المناطق أصلاً، لا يفوح منه دفر البصل، لا يشتم الحيوانات والأولاد، لا يبصق على الأرضية، وكان يقرأ الكتب... يمكنني أن أحلف بأن كل الزوجات يعشقنه، إذ لم يكن في حاجة ليقوم بشيء خاص،

حتى يضجعن في سريره، مع مخاطر فعلهن آنذاك. عندما جاء دوري وأنا راقدة في الغرفة الباردة، استمعت بتواضع إلى كل ما قاله، لأن الخطيئة فعلاً كانت تحلّق فوق السرير، ولكن بعد أن انتهى من الكلام، سألته مباشرة لماذا يقوم بذلك، ألا تكون كذلك آثمًا ومعاندًا للطبيعة إلى نفس الدرجة إذا لم تضاجع امرأةً دعوتَها إليك، وجاءتك وقد خلعت كل شيء من نفسها، وخلعت زوجها، وأولادها، وشريعة الرب كلها... فتعجب من أنني أجرؤ على طرح سؤال وأنا على حالي تلك، وثم أجاب، أنه باحث يدرس طبيعة الخطيئة والخيانة، وأراد عزل الزنا وتقطيره، وبعد رؤيته أنني لا أفهم كثيرًا من كلامه الرفيع، قال، وإني هنا أنقل عن كلماته بالضبط: أنتِ، يا امرأة، أنتِ الزيتونة التي أضغط منها الخطيئة مثل زيت الزيتون.

لقد مرت أكثر من أربعين سنة، ولكن يا سيدي، ما زال يقشعر بدني من تلك الكلمات حتى الآن... وعيناه وهو ينطق تلك العبارة كانتا تشبهان زيتونتين بلون أخضر غامق، وأقول لك مرة أخرى، لا أستطيع تأنيب السيد غ. المحترم، فلعله عانى أحداثًا رهيبة حتى يقترف مثل هذه الأشياء... كان رجلاً مهجورًا...، لا تذهبْ أبدًا إلى بيت مهجور وإنسان مهجور، فليس هناك سوى بوم وثعابين – إذا أردتَ أن أجيبك بصراحة، أقول لك، إنه كان هكذا.

لا، لم أعد في حاجة إلى النقود. لكن أنت يا سيدي ما صلتك به؟

...

ما صلتي بالسيد غ.؟ وماذا أفعل هنا، في سنة 1734؟ أشتري حكايات بحجة تجارة الزيتون. وبما أتفوق على السيد غ.؟ ألا يتعلق الأمر بزيت الزيتون نفسه؟

أخبرتني إحدى العجائز بحكاية سمعتْها جدتها من جدتها حيث يدور الحديث حول شخص يملك كل الزوجات في تلك المناطق. ولو لم يكن الاسم الذي لفظتْه العجوز هو نفسه الاسم الذي يلاحقني منذ فترة طويلة، لما أثّر الموضوع هذا الأثر البليغ فيّ.

غاوستين. الرجل الذي كان يعبر بخطوات ثابة الأزمنة كنهر ضحل، ودائمًا يجد طريقة يُرسل لي من خلالها إشارة من زمن ما. لن أتأكد أبدًا من وجوده الحقيقي، هل اخترعته أنا، أم هو الذي اخترعني؟ أعترف بأن خطوته الأخيرة تجاوزت كل توقعاتي. ينتشر منذ عدة سنوات في شبكة الإنترنت كتاب باسمي (ترجمة من الألمانية) ولم أؤلفه أبدًا:

Ding, Kunst, Kant und Zeitgenossen (Wieser Verlag,) 2005) ويمكن التأكد من هذه المعلومات على الإنترنت.

أنتظر كتابه التالي الذي وضع توقيعه تحته باسم غاوستين، حيث البطل الرئيسي سيحمل اسمي.

مرة كتبت اسمه في غوغل. فورًا ظهرت امرأة اسمها أنجيلينا غاوستين، كان من المعروف أنها توفيت سنة 1900، في السبعين من عمرها تمامًا، وقد تم دفنها في مقبرة مدينة باولي، ولاية إنديانا. وكان مصدر هذه المعلومات أحد كتب الميتين من الأبرشية.

كذلك ظهرت في إحدى أشجار العائلات امرأة اسمها لوسيندا غاوستين، توفيت عام 1853. في مكان آخر اسم مولي غاوستين وعلامة الاستفهام إثر الاسم. في مكان ما في ولاية أوريغون نعثر على شخص اسمه

ب. غاوستين. ولكن في كل مكان اسم غاوستين هو اسم أسرة لا اسم شخص. أولاده فقط كانوا مسجلين في هذه الكتب. إنه أب واحد مختفٍ.

إثر عودتي من هذه الحكاية (كان السفر صعبًا، أنتقل فيه من صوت إلى صوت آخر، والحكاية يرويها المتكلم باسم الجيل الثالث، وازدادت صعوبة وصولي إلى الشعور السابق بما يشعر به الآخرون) غرقت في أرشيفات مكان الحكاية، أجريت بعض الاستفسارات وهي التي أكدت افتراضي. لقد ظهر اسم غاوستين في "الكتاب الشامل للولادات، والوفيات، والنكاح، والديون وغيرها من الحالات الطارئة". والشخص نفسه يصل إلى البلدة عام 1700 تمامًا، وثلاث سنوات بعدها تم شطبه "وحرمانه من حق عودته إلى المدينة". وتحت هذه العبارة على هامش الكتاب، تقف ثلاثة صلبان صغيرة وهي علامة خاصة بتلك المناطق، عبارة عن اللقاء مع الشيطان.

الملاك السفلي

إنها حكاية الرجل الذي وُلد بجناحي ملاك. في الليلة التي تسبق ولادته، جاء في منام الأم رسول وقال لها كذا وكذا يا امرأة، ابنك هدية الرب، وسيكون ملاكًا في جسم رجل. وكما يُحكى في البلدة، فإن الولد ذا جناحي الملاك كان سيملك قوة رهيبة. حيث يفهمون كلمة "قوة" بمعناها الحرفي، أي القدرة على أن ترفع الأثقال، أن تتغلب على الجميع في مسابقات المصارعة، أن تقارن قوتك بقوة دب، أن تحمل كيسي طحين على ظهرك. أو القدرة على أن ترفع بأسنانك برميلاً مليئًا بالنبيذ في المهرجانات القروية، مثل هاري ستويف المشهور. وكان الشرط الوحيد هو ألا تخبر الأم أحدًا.

الآن أتخيل هذا الطفل، مثل ملاك كلاسيكي يختلف غاية الاختلاف عن كل شيء حوله، أتخيله مثل بذرة صنوبر ثمري، أو نبات آخر غريب، حملتها أرياح البحر الأبيض المتوسط. أتخيله طويلاً، نحيلاً، هنا سيقولون «ضعيف البنية». طفلاً سيتهكمون عليه. كان على أمه ألا تخبر أحدًا، لكنها خافت من أن ابنها سيكون مختلفًا، وبدأت تتحدث عن منامها في كل مكان، فاختفى الجناحان. في طفولتنا كنّا نترقبه في خفية، حتى نراه. كان عامل منجم. دائمًا عابسٌ ووسخٌ. أتخيله ذا جناحين كبيرين متهدلين، ينجرّان وراءه، وقد اسودّا من غبار الفحم. يمشي مقوس الظهر قليلاً ولا ينزع قميصه أبدًا. هل ما زال الجناحان ينموان من تحت القميص؟ وهل يقصهما كل صباح مثلما يحلق ذقنه، مثلما تقص جدتي أجنحة الدجاجات حتى لا تطير فوق السياج ولا تترك فناء الدار؟ وهو لن يترك الدار أيضًا. فضّلت أمه الابن على الملاك.

في أيام طفولتي، كنت أحتقر تلك الأم الثرثارة، التي حرمت ابنها من تلك القوة. ولكني أفهمها الآن. لم تسمح أن يفطموه من جنس البشر. خلافًا لأم المينوتور باسيفاي. الملاك عامل المنجم كان عابسًا، منطويًا على نفسه، صامتًا لا يحكي. كأنه بقتله الملاك في داخله، نجح في القضاء على الإنسان.

ابن الملاك السفلي كان يسبقنا ببضع أعوام في الثانوية العامة، وكان طويلاً للغاية، سافر إلى صوفيا ليمارس كرة السلة، ثم غادر إلى أمريكا.

ابن الملاك السفلي

كان أبي عامل منجم. ينزل من البيت في الخامسة صباحًا ويذهب إلى المنجم. يعيدونه بالشاحنة في غسق الليل. إذ يعمل في الظلام، ويعود في

الظلام. لم يتذكر ما هو النهار. مرة فقط لم يذهب إلى الشغل، بقي في سريره وطوال النهار كانت ستائر غرفته مسدلة، لأنه لم يتحمل الضوء.

هكذا أتذكره، يعود إلى البيت وقد خيّم الليل، وهو عابس، لا ينطق بحرف، على الطاولة طبق سلطة كبيرة وقنينة راكيا. كأنه لم يكن هنا. سمعت تلك الحكاية عن جناحي الملاك، يمكنها أن تكون صحيحة، فهو أخرس مثل ملاك. يفتح التلفاز، لكنه لا يشاهده. يأكل السلطة، يشرب نصف قنينة راكيا. لا يقول شيئًا. ينام. وفي الصباح التالي يعيد الكرّة من جديد.

كان يومي الأسعد عندما جاء أحد المدربين من العاصمة كي يختار منا نحن الأطفال مَن يصلح لممارسة كرة السلة. أخذوني لأني كنت طويلاً، ضخمًا ويداي مثل مجرفتين. بكت أمي، أما أبي فلم يفعل إلا أن ربت على كتفي. بدا لي أنه أراد أن يقول شيئًا، استنشق الهواء، لكنه لم يتحدث منذ فترة طويلة، ولعل الآلة في حنجرته قد صدأت، فتنحنح، صر شيء في حلقه وذهب إلى النوم. في اليوم التالي أخذت حقيبة وغادرت إلى صوفيا لأدرس في المدرسة الرياضية. كنت أبذل قصارى جهدي في التدريبات، لأنني أعرف ما ينتظرني في حالة عودتي إلى البيت. أواصل بعد التدريبات، مع المعدات الرياضية، والحبال، والوثب، وكل شيء... لم أملك أية موهبة في هذه الرياضة، أقسم أنه لم تكن لديّ أية موهبة على الإطلاق، لكني دأبت، دأبت باستمرار...، مثل عامل منجم... هم يفضلونني لأن بنيتي قوية، وبذلت كل ما فيّ من قوة... وبعد عام 1989، حين جاء رجل من أحد نوادي الهواة الأمريكية كي يشتري اللاعبين من أوروبا الشرقية، لم أتردد في المهاجرة. كنت أعرف أنني لن أصبح لاعب كرة السلة، ولن تنتهي حيلتي هنا إلى نجاح هناك. ولكن كان عليّ أن أبتعد بقدر ما أستطيع، أن أبتعد عن بلادي، وأبي، وقنينة الراكيا وجهامته.

لو بقيتُ، لأصبحتُ مثله. هاجرت، مارست كرة السلة مدة سنة وما فوقها، فصلوني، مع أنهم صبروا عليّ وقتًا طويلاً، وبدأت أشتغل كسائق شاحنة، كانت طويلة جدًا مثل قطار، وفوقها مدخنة. عمل كثير، ولكن بأجرة جيدة. بمثل هذا الشغل يستحيل عليك أن تجد امرأة. صباحًا أذهب مبكرًا، في الخامسة، ليلاً أنام في أي مكان في مواقف السيارات. أكدّ صباحَ مساء. ثم أجلس، أشرب أربع قناني من الجعة، آكل سندويتشين من ماكدونلدز وأنام نوم قتيل. كل يوم. ذات ليلة رأيت أبي في المنام. كان يسوق شاحنتي. في الصباح التالي اتصلوا بي وقالوا إنه حدث كذا وكذا.

ه. ك.، في الثامنة والأربعين من عمره. عاد من مدينة دالاس، ليدفن أباه ويصفّي إرثه.

أسعد يوم في حياة ملامكو سائق سيارة الأجرة

أسمر، أجعد الشعر، عمره حوالي العشرين وما فوقه، لابسًا جاكيت من الجلد الاصطناعي، كأنه مايكل جاكسون في الثمانينيات. وطبعًا، صورة مايكل جاكسون نفسه، معلّقة في الأعلى بجانب المرآة. ما أن أركب التاكسي حتى تبدأ الحكاية. كأنه لم ينتظر إلا مستمعًا.

يا أخي (هذا هو دوري واسمي في حكايته)، لو تَعْرِف! امرأة ركبت سيارتي اليوم، آية من الجمال. صدّقني، امرأة أربعينية، أقسم أن هذه هي المرأة الكاملة. ممكن أن تكون في الثامنة والثلاثين أو التاسعة والثلاثين، لا أعرف. ولكنها فلقة قمر. وحين دخلت التاكسي خجلتُ من أنني أقود هذا الأوبل القديم.

نقف أمام الإشارة الضوئية. أسترق النظر إلى السيارة، نسيج الفرش البالي، وقد انفلقت لوحة القيادة، ورائحة الفانيلا الحادة تفوح من عطر السيارة بشكل الصنوبر.

هذه المرأة لا تناسبها سيارتي - يتابع ملامكو. إنها امرأة تناسبها سيارة كاديلاك وردي اللون. ونهداها كبيران. تدخل التاكسي وتقول قدْني إلى حيث تريد. انفصلت عن زوجها. وحكيت حكايتها من الألف إلى الياء. كيف تزوجا، كم سنة عاشا معًا، كيف تبين أنه يعسوب. تبين أنه يعسوب - قالت. يا أخي، لا أعرف ما يعسوب، لكنه يعني شيئًا سيئًا. نحلة - أقول. عفوًا؟ اليعسوب هو ذكر النحل. صحيح؟ إذن ذكر النحل ما السيء فيه؟ أها أها... ودخل زوجها علاقات عاطفية مع نساء، فعرفتْ، يعني خلط الأمور مثل أحمق مغفل. تراجيديا كبيرة، مسلسل تركي. وأنا، يا أخي، أهز برأسي وأسوق ولا أعرف إلى أين أمضي بها. أرى أنها في اضطراب عقلي، أسوق وأسمع. وكلما ازداد كلامها، ازدادت نظراتها إليّ. تشتهيني، يعني، تشتهيني فورًا. إني خبير في أمور النساء. قف هنا - تقول لي. وتتابع: تأكد أننا سنلتقي مرة أخرى. وتبدأ تفتش محفظتها. آه، سرقني هذا الوغد اليعسوب، تقول. يعني تشتم، ولكن الشتْم يناسبها، صدقني يا أخي، يناسبها ويعلق على عنقها مثل قلادة، مثل عقد، سيدة بكل معنى الكلمة. لا مشكلة، أقول لها، الفلوس لا شيء. ستحاسبينني في المرة القادمة. وتسألني: ما اسمك يا شاب؟ ملامكو - أردّ. دعني أقبلك، يا ملامكو - تقول، وانحنت، وأمسكتني من رأسي وهنا (وهو يشير إلى خده) قبلتني.

وينظر إلى المرآة، كي يتأكد من أن ختم القبلة ما زال هناك. الإشارة الضوئية تضيء باللون الأخضر، والسيارات تزمر من ورائنا. وتقول: سأتصل بك قريبًا، وأغلقت باب السيارة بشدة واختفت. يا أخي، هذه هي

المرأة الحقيقية.

وصمت. لا أعرف كيف ستجدني. لم تأخذ رقم هاتفي، ولا شيئًا آخر. من الممكن أنها حفظت رقم سيارتي غيبًا، وستتصل بالشركة كي تسأل عني. فلا رجل آخر يحمل اسم ملامكو هناك.

ويصمت. يعذبه هذا السؤال. وهنا عليّ أن أتدخل بصفتي أخيه.

اسمع، يا ملامكو – أبدأ كلامي بأعمق صوتي -المرأة، إذا أرادت أن تجد شخصًا، لن يغلبها شيء.

في هذه الحال لا يساعد إلا الكليشيه. لعلني قلت له هذه الكلمات نقلاً عن رواية، أو أدب من الدرجة الثانية، لا بأس. فليعمل الأدب والكليشيهات قليلاً من أجل عزاء هذا الغجري الشاب الجميل.

(في الحقيقة، أعتقد أن هذه المرأة تتجول مجانًا في كل المدينة، مستفيدة من الحكاية عن الزوج اليعسوب. ولكن من أنا كي أُفشل أسعد يوم في حياة ملامكو. وإذا اعتقدتُ هكذا وملامكو لا يعتقد شيئًا نفسه، فهذا يجعلني مسكينًا أكبر منه بعشر مرات. يا ملامكو المبارك...)

هيه، محظوظ جدًا أنا – يقول ملامكو بعد قليل، كأنه قرأ أفكاري في المرآة. يا لها من امرأة جميلة ووقعتْ في غرامي أنا، ملامكو. لا بأس إذا كانت في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، ممكن أن تكون أصغر. أنا نسونجي، نواقص النساء لا تهمني.

قدمت له أكبر بخشيش، لم أقدم مثله لأحد قط. في الحقيقة لم يكن بخشيشًا، فأنا أشتري حكايته.

أضيفها الآن هنا، إلى كبسولة هذا الكتاب، من يدري، يمكن أن تقرأها تلك السيدة أو شخص آخر ويمكن أن يقول لها، إن ملامكو ينتظرها كي

تتصل به. وليقضي الأدب حاجةً... اللعنة.

بيّاع الحكايات

من أنت بذاتك؟ كاتب؟ من حظي أن أتعرف على كُتّاب. جدي كان كاتبًا ولعل هذه "كارما". قبل شهر دعوني إلى حفلة زواج. ووجدت نفسي جالسًا على الطاولة بجانب مَن؟ هل يمكنك التخمين؟ أجلسوني إلى جانب سلمان رشدي. نعم، نعم، ذاك الكاتب نفسه. ذو النظارات المستديرة، واللحية... بصراحة، كنت أعتقد دائمًا أن هؤلاء الذين يظهرون على شاشة التلفزيون، هؤلاء الأكثر شهرة، في الحقيقة ليسوا موجودين فعلاً، ولعلهم نوع من الرسوم الحاسوبية، والهولوغرام. ألا تشك قليلاً في وجود مادونا، أو براد بيت؟ لا بأس. جلستُ بجانبه. مددت يدي للمصافحة، قال اسمه وفرغ فمي من التعجب. أنت ذاك الكاتب؟ كأن تحت نفس الاسم يختفي عدد كبير من المشاهير. وقع الكاتب في حيرة وتمتم شيئًا نعم، هذا أنا.

هل تعرف كيف كنت أجد نفسي طوال الوقت؟ مثل حطب للحرب. اللعنة...، كنت أعتقد أنه لا يخرج من بيته البتة. أعترف بأنني لم أقرأ شيئًا من أعماله، لكني أحيانًا أشاهد التلفزيون وأقرأ الصحف. هذا الرجل محكوم عليه بالإعدام، ويحرقون كتبه، وقد أصدروا فتوى. وأما الذين أصدروها، فأنت جدّ عالم أنهم لا يمزحون قط. فشعرت بشعور غريب في تلك الحفلة، حيث كنت فخورًا من جانب، ولكن من جانب آخر كنت على مثل الجمر من القلق. وألتفت باستمرار من حولي لأرى إذا كان أحد ضيوف هذه الحفلة الحميمة يقوم بحركات مفاجئة حادة. كنت في الاستعداد لأندسّ تحت الطاولة. وكنت خائفًا أكثر منه، فلعله قد اعتاد. هل يحمل شيئًا تحت قميصه وربطة عنقه؟ أقصد سترة لا يخترقها الرصاص، حديثة الإنتاج، ذات ألياف

من مواد جديدة وخفيفة وزن؟ أولاً فكرت أن أسأله، ثم لم أفعل. أستطيع أن أعرف الإجابة بمجرد أن أربته على كتفه للمغادرة.

في الحقيقة كان هذا الرجل يسلك سلوكًا متواضعًا. ولم يسألني ولو مرة واحدة كيف أرى روايته الأخيرة. اعذرني حضرتك، لأنك كاتب. وبقدرما أعرف معشر الكتّاب (باستثناء الحاضرين هنا طبعًا) فالكُتَّابُ لا يفوتهم هذا السؤال أبدًا. ويتخيلون أن العالم يستيقظ وينام مع كتبهم. كنت خائفًا أنه سوف يسألني ويعرف أنني لم أقرأ شيئًا منه. ولكن، هذا هو الكاتب الكبير، لا يسأل. إما هو متأكد من أنك قرأتها، وإما أن هذا لا يهمه. يقطع بهدوء البفتيك، يأكل الجزرة بالشوكة. تبادلنا بعض الكلمات العامة حول الحفلة السعيدة وكم أن العروسين جميلان، وأنهما مناسبان لبعضهما، و و و ... إنها أحاديث عادية يمكن تبادلها مع كل جار عادي بجانبك الأيمن أو الأيسر في حفلة زواج. كنت أعتقد أن الكتاب يتكلمون بطريقة مختلفة، حول الأشياء المهمة فقط، الحياة، الموت... لا بأس. كنت من بين أصدقاء العروس، أما هو، فيعرف العريس منذ صغره. كلانا ضمننا لهما. وفي النهاية رويت له إحدى حكاياتي. على الرغم من أنني لم أفهم ما إذا أثرت فيه فعلاً، أو أن ذلك كان مجرد تظاهر. لا أعرف، الرجال لابسو النظارات يُحيرونني. الآن سأتابع ما يكتبه. ما رأيك، هل سيستخدم حكايتي؟

"بالتأكيد"، قلتُ وقد تمكنت من الانضمام إلى الحديث أخيرًا. "الكتاب ليسوا بريئين أبدًا. فهم يسرقون مثل الغراب. ولكن المهم مَن يسرقك".

"لا، أنا قدمت حكايتي هدية له".

"إذن سننتظر ونرى".

"إذا أردتَ، يمكنني أن أرويها لك أيضًا ".

"أنا متشوّق لسماعها".

"ولكن اعلم أنها مباعة".

"ألم تقل إنها كانت هدية؟"

"نعم، صحيح... مباعة، هدية. إننا لم نوقع عقدًا. إذا أعجبتك، يجب أن تتفاهم معه من منكما سيستخدمها. أهديها لك... مقابل كأسي ويسكي من (أربع وردات)."

"يعني مقابل (ثمان وردات) ". ضحكتُ... تفاهمنا. (هكذا تعرفتُ على بياع الحكايات) وبعد أن هبطت "باقة الوردات الأولى" إلى الطاولة، بدأت الحكاية.

... وحكايته الخاصة

طبعًا تدور الحكاية حول امرأة، بدأ القصّاص كلامه على مهل. قدّرت هذه البداية التي صدحت مثل العبارة "طبعًا، تدور الحكاية حول المخطوط"، ولكن للحظة ساورني الشك في أنه يقوم بإعادة بيع حكايات الآخرين، إذ يحشر قصص إمبيرتو إيكو لِسلمان رشدي، وبعد ذلك يزرع الشقاق والارتباك بين الدوائر الأدبية. تركتُ القصة تجري:

كان عليّ أن أفر منها إن أردتُ الظفر بالنجاة. أن أهجرها، أن أهجر المدينة كلها. على مدى عدة شهور كنت أتجول في أوروبا. يحاول البعض ممارسة الفوضى الجنسية، رغبةً في نسيان علاقة عاطفية، أما أنا فأحاول ممارسة الفوضى الجغرافية. كُنت أختار مدنًا على نحو عشوائي، عادةً أسافر بالقطار، أقوم بتغيير محطات وفنادق، كل السياح يمشون في جماعات أو اثنين اثنين،

أما أنا، فأتجول وحدي الساحات، التي فجأة بدأت تظهر بنفس الشاكلة. وأشبه رجلاً يريد هجْر هجْره الخاص وراء إحدى الزوايا. أشبه من يبحث عن مكان غريب وناء، يترك فيه قطط أحزانه بحيث لن تستطيع أن تجد طريق عودتها إليه. هل تعرفون ما أصعب الخلاص من القطط؟ فهي تملك حاسة خارقة باتجاه البيت، ولها ذاكرة خاصة. مرةً حاول جدي الخلاص من كل القطط المنزلية، لقد تناسلت بالبيت وفنائه، فحشرها في أكياس وأطلقها بالقرب من المقبرة التي تبعد عدة كيلومترات عن المدينة. وحين رجع، رأى أن القطط سبقته وعادت قبله. هذه القصة مع القطط أقدمها لك مجانًا، فلم أروها لسلمان رشدي، قال بياع الحكايات، بينما يرتشف من كأس الويسكي الثانية "أربع وردات".

سرعان ما فهمت أن أوروبا مكان قريب جدًا، مليء بهذه المرأة، مكان يذكّرني بها. كنت بحاجة إلى المزيد من الفضاء الفارغ وغير المعروف. فركبت الطائرة الأولى إلى الأمريكيتين. كان عليّ أن أضيع نفسي مثل كولومبوس، ولكن وسط الأراضي التي قد تم رسمها في الخرائط منذ زمن. هل نسأل أنفسنا كم من الصعب أن تضيع اليوم، مثلما كان من الصعب ألّا تضيع في الماضي؟

بعد سنة وثلاثة أشهر، عندما عدت إلى البيت، أنزلت من الجدار خريطة العالم على الأرضية وحددت بقلم عريض نقاط الأماكن التي زرتها. كانت فعلاً رحلة حول العالم، مررت بإصبع على خط الطريق، لافظًا أسماء المدن الصغيرة والكبيرة. إنها أفضل تعويذة تساعد على نسيان أي امرأة.

صوفيا، بلغراد، بودابست، فروتسواف، برلين، هامبورغ، آرهوس، بريمن، ثم النزول إلى روان، ديجون، تولوز، برشلونة، مالقة، طنجة، لشبونة، عبر أطلانتيكا إلى الفوق نحو لونغ آيلند، نيويورك، أونتاريو، خليج هدسون

ومن جديد إلى الأسفل في اتجاه مينيابولس، شيكاغو، كولورادو سبرينغس، بويبلو، فينيكس، سان دييغو...

نهضت، علقت الخريطة في الجدار وعندها لاحظت... خطوط رحلتي ترسم بطريقة مكتملة حرفًا واحدًا. حرف اسمها. حرف م. واضح كبير. مونوجرام رشيق للرجل الغبي. لقد عادت القطط قبل عودتي.

لم تكن الحكاية سيئة، وحتى إذا سرقها من شخص ثالث، وحتى إذا قام بإعادة بيعها (بعض العبارات مثل "أحزان القطط" وإلخ. بالتأكيد لم تكن من بين عباراته). لقد ازداد عدد الوردات في الباقة. يبدو راضيًا مثل من باع مرتين نفس البضاعة. ولكني كذلك كنت راضيًا عن الصفقة، لأني اشتريت حكايتين بسعر حكاية - تلك التي قصها والحكاية التي قبلها حول اللقاء مع سلمان رشدي، وأفترض أنها هذه فيها من الخيال ما يفوق الثانية.

رهان الصديقين على إخلاص الزوجات

يقرران أولاً أن يتتبعا إحدى الزوجتين. يخبرها زوجها بأنه سيسافر ويتغيب بعض الأيام. يختفي في الحديقة مع الآخر وينتظران. حتى أن الزوج قد أخذ مسدسًا من مكان ما. في الليلة الأولى - لا شيء. هدأ قلبه قليلاً. ولكن في الليلة الثانية، حين نزل على الأرض ظلام دامس حالك، خرجت الزوجة من البيت، فتحت الباب، وتسلل رجل إليها بهدوء مثل ظل. لم تشعل المصباح. اقترب الصاحبان من النافذة، حيث لا يرسم ضوء القمر الشاحب إلا حركات الجسمين، وكان كافيًا حتى يريا ما يحدث. كيف تلوي المرأة جسمها حول ذاك الرجل، ويا لحركاتها، حتى زوجها تعجب،

فلم يراها أبدًا كما هي الآن، يا لها من عاهرة. وصديقه أيضًا يشاهد فارغًا فاهه من التعجب.

سوف ندخل، قال الزوج بصوت خافت، وقد تسلّلا إلى البيت مثل لِصَّيْن. وهنا يأتي مشهد من بين أفضل المشاهد الكلاسيكية في السينما والأدب والحياة، فلا أعرف كيف أصفه. فتح الزوج الباب، ودخل خطوةً إلى الداخل في الجانب الأيمن، فاتحًا رجليه قليلاً حتى لا يفقد توازنه، كما رأى ذلك في الأفلام، وصوّب المسدس إلى كتلة الجسمين المتشابكين التي تقف الآن متجمدة لا تتحرك. وعلى مسافة مترين منه، يقف صديقه، ووضعية جسمه وضعية بلهاء، لأن الحالة نفسها بلهاء أيضًا، ولا يعرف إلى أين ينظر في مثل هذه الحالات. فيخجله أن ينظر إلى زوجة صديقه، لأنها عارية وقبل ثانية فقط كنت تمارس الجنس، ويخجله أن يحني رأسه، فهو ليس من اقترف الجريمة، يخجله أن ينظر إلى صديقه المخدوع، حتى لا يحرجه أكثر. باختصار، إنها حالة حرجة. العشيق الذي أمسكاه في حالة التلبس، رغم أنه كان عاريًا من ملابسه، يرمي نظرات شذر إلى الاثنين، كأنه ليس متأكدًا تمامًا مَن هو الزوج من بينهما، أهو ذاك الذي يقبض على المسدس أم الآخر؟ جسد المرأة يمثل خليطًا مركبًا من الإثارة الهامدة، والغضب على اللذين اندفعا إلى داخل الغرفة، والرعب المتزايد. أحيانًا الثواني لها أحجام وأطوال لا تُحصى.

الزوج المخدوع هو الذي يجب عليه اتخاذ القرار. هو الذي يقبض على زمام الأمور (وزناد المسدس) في يده... وكل التطورات تعتمد عليه، لكنه حائر في أمره، لا يدري ما الذي ينبغي فعله فيها بعد.. ولا يعرف إلا أنه يجب اتخاذ القرار بسرعة، فالزمن ليس في صالحه. ولم يقع أبدًا في مثل هذه الحالة التي لا يعرفها سوى من الأفلام والكتب. ولا تساعده هذه المعرفة. يعود إلى رشده. يصوّب المسدس إلى الرجل. هكذا بالضبط، تضوزْ.. يا لك

من حيوان حقير. كيف هو يضطجع مستريحًا في سريره. بل ترك ساعة يده على الطاولة الجانبية. الناس يقتلون إنسانًا لمجرد أنه خطا خطوةً واحدةً في ملكيتهم الخاصة، وفي كل مكان يعلقون لوحات تحذيرية كبيرة، فماذا نقول إذا دخل أحد في قدسية الأقداس، لم يدخل في بيتك فحسب، بل وفي غرفتك، وليس في غرفتك فحسب بل وفي المرأة التي تنام معها؟ ولكن من جانب آخر، هذا الرجل.. ما ذنبه؟ لم يدخل عنوة، هناك من سمح له بالدخول، بل إنّ هناك من استدعاه، وأشار إليه. أليس من أعطى الإشارة هو الأكثر ذنبًا؟ الأكثر ذنبًا – المرأة. هذا هو الحل الجذري، فيجب على الزانية تكفير ذنبها بالموت. إلهي، كم هي عبارات درامية، أهذا مسرح عصر الكلاسيكية القديمة، أم مسرحية برجوازية من الدرجة الثانية؟ أن يهلك زوجته من أجل لا شيء، لا، إنه ليس لا شيء، لكنها زوجته... وماذا بعد أن يقتلها؟ إنه لم يحب اتخاذ القرارات أبدًا في حياته. أبدًا. وإذا كان عليه أن يختار شبشبًا من المحل، تمر ساعات. أسود أم بني؟ بعد أن يحسب في ذهنه كل سراويله، ويقسمها إلى نصفين – نصف مناسب للشبشب البني ونصف آخر للأسود، ثم يتصور أثاث الغرفة، لأنه أفضل إذا انسجم الشبشب مع لون الأثاث. بعد كل هذا، وقد مضت أكثر من ساعة، يختار الشبشب البني اللون. ولكن، يا للهول، الشبشب البني نوعان – ذو شريطة وبدون شريطة. ناهيك عن وجود النوعين من الشريطة – باللون الفاتح والغامق. إنه هكذا يفعل ونحن نتكلم عن شبشب، ولكن الأمر هنا متعلق بالقتل والحكم بالعدالة. من هو أكثر ذنبًا في ارتكاب الزنا؟

يحدق الزوج عاليًا وكأنه يرى لأول مرة الصورة العائلية فوق السرير. هل هذا ممكن؟ أن يمارسا الجنس تحت الصورة تمامًا؟ يخطر له أنه سيكون مؤثرًا أكثر إثارة لو أطلق الرصاص على الصورة العائلية، ويتخيل كيف

تتساقط قطع الزجاج المحطم فوق رأسيهما. يا لها من استعارة. يا امرأة، أنت قتلت حياتنا العائلية الخاصة، وماضينا يتلقى رصاصة في رأسه. ولكن إلى أين يصوّب المسدس، إلى نفسه أم إليها، إنها صورة ولكن، مع ذلك... إذا أطلق الرصاص على صورته الفوتوغرافية، فهو نوع من الانتحار.

وإذا به يلتفت بغتة ويقوم بأقل ما يتوقعه المرء، أمام النظرات المندهشة للجميع، يضغط على زناد المسدس ويقتل صديقه. لا شاهد، لا جريمة.

شهرزاد والمينوتور

الحكاية عادةً يرويها الشخص ذو الموقف الضعيف. وهو الأمر الأكثر وضوحًا في حكايات شهرزاد. امرأة محكوم عليها بالموت، تروي حكاية بعد حكاية، كي تكتسب ليلة بعد ليلة. وحده خيط الحكاية يُرشدها عبر متاهة مصيرها المحكوم. في أغلب الأحيان، داخل الحكايات التي ترويها شهرزاد، يتم شراء الحياة من باب الحكايات نفسها. يكفي أن نذكر أولها، عن التاجر المسكين الذي قتل صدفة ابن أحد العفاريت بنواة تمرة، وقد مر عليه ثلاثة شيوخ واشتروا من الأب الرهيب (وهنا الأمر متعلق فعلاً بالتجارة عن طريق مباشر) ثلث دم التاجر عن طريق رواية (بيع) الحكايات.

"أيها الجني، وتاج ملوك الجان، إذا حكيت لك حكايتي مع هذه الغزالة ورأيتها عجيبةً، أتهب لي ثلث دم هذا التاجر؟"

إذا وجدتُ أن حكاياتكم تعجبني، فسنعقد الصفقة، يجيب الجني. وعُقدت الصفقة. وهب الجني دم التاجر، وأما شهريار الذي يستمع إلى هذه القصة، فيهب القصّاصة شهرزاد ليلة أخرى. يا لها من أزمنة سعيدة. "أقسم ألا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها". وحديثها لا نهاية له. كما ولا نهاية

للمتاهة أيضًا.

من الواضح أن شهرزاد استعارت الفكرة من هناك. تنطلق من ممر حكاية تُرسلك إلى حكاية أخرى ترسلك إلى حكاية ثالثة، وهلم جرا... لقد نقلت شهرزاد متاهة الحكايات في غرفة النوم لشهريار. وهنا مفتاح السر، دخلت شهرزاد فيها آخذة جلاّدها معها، أدخلته وهو لا يرتاب في شيء. كلاهما هناك، لكنها التي تمسك بخيط الحكاية، وأفيونها الرقيق يقتاد شهريار إلى ممرات ودهاليز. وإذا انقطع الخيط، استيقظ سفاح النساء-لأنه فعلاً سفاح-وأدرك أين هو، وسيضيع كل شيء.

من أين تنبع قوة الحكواتي، حتى لو كانت قوة الأضعف؟ هل تأتي من سيطرته على ما يرويه؟ أن يقبض في يديه، أو بالأصح على طرف لسانه، عالمًا يمكن فيه الحكم بالإعدام أو تأجيل تنفيذ الإعدام حال رغبته؟ العالم الذي يمكن أن يكون حقيقيًا أو خياليًا، إلى درجة تحاكي العالم الحقيقي وتجعله صِنْوَه. وإذا رفع الموت سيفه فوق رأسك في العالم الأول، ستهرب إلى العام الثاني وممرات خلاصه.

يكاد لا يتذكر أحد أو لا يعطي اهتمامًا كبيرًا بالنقطة التي ينطلق منها كتاب "ألف ليلة وليلة". إنها بالضبط النقطة التي تنطلق منها أسطورة المينوتور. نقطة الخيانة. زوجة الملك مينوس باسيفاي خانته مع ثور، يظهر وراءه وجه الإله بوسيدون. ومن جانبها، كل حكايات "ألف ليلة وليلة" تبدأ بسبب خيانة زوجة شاه زمان، ملك سمرقند والأخ الصغير للملك شهريار. انطلق الملك طالبًا بلاد أخيه، ونسي حاجة، فرجع إلى قصره، ووجد زوجته معانقة في فراشه عبدًا أسود من العبيد. العشيق في الحدث الأول ثور، وفي الحدث الثاني عبد – كلا الجسمين محرّمين. وحتى ذلك الحين لا يكلّف الزنا إلا موت اثنين. ويتابع الأخ الصغير طريقه إلى أين قد وجّه – إلى أخيه الكبير

شهريار. حيث تتخذ خيانة زوجته حجمًا جماعيًا، ونرى هناك عشرين جارية وعشرين عبدًا. فيقرر شهريار الانتقام لأخيه ولنفسه ولكل عالم الرجال. عندها ينطلق في قتل النساء التسلسلي ومسلسل الحكايات.

الليل. منذ ذلك الحين يحدث كل شيء ليلاً. في الليلة الخالدة للمتاهة حيث يسكن المينوتور، أو في ألف ليلة وليلة في قصر الملك شهريار. الليل هو زمن الحكايات. النهار عالم آخر لا يفترض وجود العالم الليلي. ولا يجوز خلط العالمين.

موقف

بعض الكتب يجب تجهيزها بخيط أريادني. الدهاليز تعصف باستمرار وتتداخل في بعضها البعض. أحيانًا يمكن أن أرى كيف يدخل جدي معي في محل Esprit في شارع فريدريششتراسي، يلمس بارتياب البلوزات القطنية ويتمتم أنه لن يشتري بأي ثمن كان مثل هذا الشيء الرقيق، الذي ستلعب عبره الريح لعبة «قفز الحصان». وأحيانًا أخرى، عندما أتنزه مع ابنتي في الحديقة العامة، يومأ سيد برأسه، بينما يمر علينا، وهو يلف شاله حتى عينيه وياقته مرفوعة إلى الأعلى. لو لم تشدني آية من كم قميصي وتشير إلى ظله الغريب ذي القرنين على سطح الثلج، لما كنت نتبهت إلى هذا المشهد. المينوتور خرج للتنزه في متاهة الحديقة الشتائية.

الفصل السابع

الخريف العالمي

"إيلينا – ا، إيلينا – ا – ا، يا بنت بادية آمور الوحشية..."

أغنية السكارى التي تصدح في منتصف الليل من البناية الخرسانية المجاورة. كنا نغنّيها في المعسكرات المدرسية ونحن تلاميذ، ولكنني لا أعرف حتى الآن من هي هذه الإيلينا وما هي هذه البادية. إنه الفن الهابط الضروري لكل واحد منا، نوع من الغَرَابَة الرومانسية، واحة وسط البادية الوحيدة الممكنة هنا، التي تحولت فيها الرمال إلى الخرسان. نفس الأغنية الآن، بعد ثلاثين عامًا، في الثالثة ليلاً، تصدح حاملة الحسرة المخمورة لجماعة السكارى من البناية المجاورة. هذه هي الأغنية البلغارية البديلة في الفضاء. غادر الشباب، غادرت الاشتراكية، ولكن بقيت أشباح الأشواق السابقة الغارقة في كحول الرغبة غير المحققة. لقد شاخ التلاميذ السابقون وتكرّشوا، وكل واحد منهم تزوج من إيلينا ما، ولكن أمرًا من الأمور هنا اختلط وليس كما يجب أن يكون... غياب المعنى دخل في طروادة الجسم غير المستقرة من خلال حصان خشب. والعواء في الليل من أجل ذلك... أكرههم وأحسهم قرباء مني بكل ما فيهم من الفراغ والحزن القاتل. وأشعر أحيانًا بأنني أود أن أضيف عوائي إلى عوائهم. لو كان لدي قطيع صغير مخلص من الأصدقاء، لعويت معهم بالتأكيد، سعيدًا ومتعبًا وسط حقول المدينة الخرسانية الخالدة. وسط باديتها الوحشية آموورر... لا أملك هذا القطيع. لذلك أعوي بصوت خافت وسخرية رقيقة، بصوت خافت إلى حد أكاد أسمع نفسي.

أتعس مكان على وجه الأرض

إلى ملاك الألحان الغامضة ليلاً،

وهو يحرس

الباكين في الحمام،

الجارحين في المطبخ،

المدخنين على الشُرَف

في الثالثة ليلاً.

"وحيد إلى حد الاشمئزاز". هذا ما أشعر به في السنوات الأخيرة، إنه أدق تعريف. رأيته منذ أيام وكان مكتوبًا بالقلم الخطاط الأسود في كابينة هاتف: "أحب البشر وهذا ما يجعلني وحيدًا إلى حد الاشمئزاز". أضفت هذه العبارة إلى الجمل الوسواسية، التي أستعيدها إلى ذهني عند وقوعي في حالة الأزمة مثل هذه، أزمة... الوحدة الاشمئزازية.

بدأت أتجول في الحي في عصر أغسطس المتأخر الحزين. رائحة العفن. رائحة البرقوق المتساقط المتعفن، رائحة منوّمة بعبق تجير الفواكه. الراكيا التي لن تُصنع. قشرة البطيخ المتدحرجة، لقد مصّها جيش الزنابير، ويبّسها موكب النملَ بعدها. أتنفس تلك الرائحة، لا، أُطفئ عطشي بعناد رجل قرر السكر في مقهى حي بائس.

كنت أشاهد زوايا الحديد المصدأة القديمة في الشرفات الزجاجية. إنها حيلة الفقراء الصغيرة، أن تغلق الشرفة الوحيدة، أن تضع فيها الزجاج والستائر، أن تحولها إلى حوض سمك، أن تملك مترًا أو مترين زائدين، أن تضيف غرفة زائدة إلى شقتك الخرسانية، أن تُخرج هناك المدفأة، موقد الطبخ

القديم، جهاز شوي الفلفل، أن تزرع في الآنية البلاستيكية المستطيلة الشبت، والبقدونس، والبصل، وحتى الطماطم، أن تحولها إلى مطبخ وحديقة شتائية في آن واحد. أن تقلي قبيل العصر الفلفل في واجهة حياتك الضئيلة هذه، أو تدخن هناك لابسًا فانيلّة داخلية في الحزن الغامض من الليالي المتأخرة.

مررت على ملعب إحدى المدارس وفيه لوحات كرة السلة، التي كانت معوَّجة، السلال لم تكن موجودة، وقد نمت حولها حشائش طفيلية. ونبتت الحشائش عبر الإسفلت المتشقق حيث يركل بعض الأولاد كرة بتفانٍ، هيه، أيها اللوطي – صرخ أحدهم، الذي لا يتجاوز عمره عشر سنوات، ثم رد عليه "اللوطي" – "إذهب، يا ابن الزانية" وواصلوا اللعبة. والأمر الذي أجبرني أن أغادر المكان لم تكن تلك العبارات وإنما هو تصنع أصواتهم، الصراخ، والزمجرة والتهديد. قناني مياه معدنية فارغة، قطعة صحيفة مكتوب فيها: "مدينة سوزوبول تتحول إلى القدس الثانية. لقد تم أمس اكتشاف الرفات المقدسة للقديس يوحنا المعمدان، منها ثلاث سلاميات من اليد اليمنى، وكعب وسن لابن عم يسوع.." الفن الهابط المبهم الخاص بالريف.

لقد تحول إلى غيتو. أو دائمًا كان غيتو. لا شيء يتغير إلا الصدأ، الذي يغطي كل شيء، فات الخرسان أوانه وزاد إلى عمره ثلاثين سنة، بلا رجعة. في زمن ما كان الجميع يردد: لقد تأخرنا وفاتنا العمر، ولكننا نأمل على الأقل أن يعيش الأولاد حياة مختلفة. إنها شعار السنوات الأخيرة من فترة الاشتراكية. والآن أحس أنه جاء دوري لأنطق نفس العبارة.

يجب أن تحتوي العلب على شيء من كل شيء. وخاصة تلك الأشياء المخبأة، المكومة، المهموسة. على ما لا يدخل اللقطة، الذي لا يستمر، يتلاشى، ييبس مثل ورق خريف، يفسد مثل سمك في عصر حار، يمضر مثل حليب، يذبل مثل زهرة بالت عليها القطة، يتعفن مثل إجاصة...

مررت على إحدى المحطات الكهربائية. يجب أن ننسخها، نصوّرها، نثبتها بوثائق. اللوحة المغطاة بالصدأ "خطر! تيار عالٍ!" وحولها صور الموتى على النعي. كأنهم فتحوا لوحة المحطة الكهربائية (للحياة) وعبثوا فيها فصعقتهم الكهرباء. النعي والإعلانات. من خلال الإعلانات الملصقة إلى الملاط المتهدم، يمكن استعادة كل التأريخ غير المدون للسنوات العشرين الأخيرة. تأريخ العرض والطلب. أخرجتُ مفكرتي وبدأت أنسخ.

شركة تبحث عن راقصات من الدرجة الأولى للعمل في الخارج. مطلوب خادمات شابات للعوائل الإيطالية. شقة للإيجار لطالبتين، غير مدخنتين. تعلّم اللغة الإنجليزية في ثلاثة أسابيع. فك السحر الأسود، تعويذة السحر الأبيض للحب والعمل. دواء للبواسير وتساقط الشعر. كلب مفقود. نحن نشتري الشَعر.

"أهلاً يا حيوان" ضربني أحد على كتفي. كانت العبارة والحركة الإيمائية قديمة، منذ عشرين سنة. أضيفهما إلى كتالوج الكلمات والحركات الإيمائية المنقرضة، صنّفتهما في ساعتها. التفتُّ، وجه أعرفه سطحيًا، لعله من بين زملائي منذ أيام المدرسة: "أهلاً يا ابن الحرام"... فجأتني إجابتي، فلم أستعمل أبدًا مثل هذه الكلمات، ولكن الوضع الآن تطلبها عن طريق طبيعي. وبَعدها نقل الحديث إلى الغرض الأدبي "رفيقان قديمان يتحدثان، بينما يسأل كل واحد منهما نفسه، من كان هذا الرجل" بلاغة المناورات العوجاء. وليمة الكلام الغامض الفارغ. مناورة ماهرة بين الحقول المزروعة بألغام الحقائق والأسماء المعينة. وأنت لا تتذكر اسمه، لا تعرف ماذا يعمل، وحتى لا تعرف ما إذا كان أخطأ في التعرف عليك، وعبثًا تنبش في كيس ذاكرتك المثقوب. عندها يساعدك السؤال الكلي الوجود "كيف حالك؟". وكل شيء يصبح على ما يرام – يأتي جيش الحكم لسير مرور الزمن الثابت،

يكبر الأولاد، إننا نشيخ يا أخي، أنت كما كنت في أيام الشباب، كأن العمر لا يمر في داخلك، بل إلى جانبك (اللعنة... من أنت...؟) ما شي الحال، أنا مستعجل، هيا، سنلتقي يومًا...

أكتب هذا اللقاء أيضًا (كل شيء مهم). إنه وداع مع من، الذي لا تتذكر حتى اسمه، مع من، الذي أدونه باسم "ابن الحرام"، أو "العم " " ، ذاك ال X الدائم للفاعل المجهول الهوية. ومهما تُتعب رأسك هذا اليوم في تذكر اسمه الحقيقي، لن تستطيع، ولكن هذا الأمر المتناقض الظاهر، هو الذي سيعلقه حيًا في رأسك وقتًا معينًا. لا نستطيع الفرار ممن نسيناهم.

وداعًا أيها العم " ، وداعًا للجميع الذين نسيتهم، للجميع الذين نسوني. ذكراكم الأبدية.

وصف فوبيا

(ممر جانبي)

إحدى صديقاتي كانت تشعر بخوف رهيب من نظرة الدُمى. وتقع في حالة ذهول حقيقي لو نظرت إلى عيونها الزجاجية. كانت الدمى من طفولتنا تنظر نظرة رهيبة. وتبين فيما بعد أن هذا الخوف قد تم وصفه ويسمونه "غلينوفوبيا ".

خوفي أكثر رعبًا حتى من هذه الفوبيا، لأن المرعب يمكن أن يكون في كل مكان. لم أعثر على هذه الفوبيا في أي قائمة، لذلك أقدّم هنا وصفها بصورة مناسبة. وليكن هذا إسهامي العلمي الصغير في قائمة المخاوف التي لا نهاية لها.

أعاني من فوبيا سؤال معين. سؤال فظيع يمكن أن يقفز من وراء الزاوية

حرفيًا، سؤال مختفٍ في فم الجارة الدرداء، أو يتمتمه بائع الصحف. كل رنين هاتف مشحون بهذا السؤال. نعم، في أغلب الأحيان إنه يختفي في سماعات الهاتف:

كيف حالك؟

توقفت عن الخروج من البيت، لم أرد على الهاتف، كنت أغير الأماكن التي أتسوق منها، حتى لا أقيم علاقات مبتذلة في الحياة اليومية. أُتعب رأسي في طرْق حديد الجوابات الدفاعية. كنت في حاجة إلى درع آخيل الجديد الذي يحميني من الحماقة. كيف يتم إيجاد الجواب الذي لن يكثّر غياب الموهبة، لن يدور في مكان الكليشيه. الجواب الذي لا يجعلك تستعمل العبارات المبتذلة، الجواب الذي لا يكذب فحسب بل ولا يكشف الأشياء التي لا تريد كشفها. الجواب الذي لا يؤدي إلى حديث فارغ طويل.

ما هي تقاليد الإتيكيت الزائفة التي تُعدّ ظهوره، كيف يندس في القرون هذا السؤال المرائي. "كيف حالك؟"، هذا هو السؤال. That is the question. (السؤال الرفيع "تكون أو لا تكون" قد تم تبديله بهذا الاستفهام التافه، ها هو الدليل على الانحطاط).

كيفَ حالك؟

كيف حالك؟

كيف حالك؟

كيف نجيب عن مثل هذا السؤال؟

أنظرْ إلى حيلة الإنجليز وكيف حوّلوه إلى الترحيب. لقد جردوا هذا السؤال من عظامه، نزعوا زبانه السائل.

"كيف حالك؟" هو قشرة الموز الموضوعة تحت رجلك بكل لطف، هو الجبنة التي تغريك لتقترب من فخ الكليشيه.

كيف حالك – السم المتعب الخفيف للحياة اليومية. لم يُكتشف جواب هذا السؤال حتى الآن. لم يكتشف. أعرف الأجوبة الممكنة، لكني أسأم منها، هل تفهمونني، أسأم منها... لا أريد أن أكون مكتشفًا إلى هذه الدرجة، لا أريد الرد من نوع "شكرًا، بخير"، أو "بين بين "، أو "ماشي الحال" أو...

لا أعرف كيف حالي. لا أستطيع أن أرد ردًا قاطعًا. كي أرد عليكم كما ينبغي، عليّ أن أقضي لياليًا، وشهورًا، وسنوات، أن أقرأ أبراجًا بابلية من الكتب، أن أكتب، أن أكتب... الجواب رواية بكاملها.

كيف أنا؟

لستُ أنا. وانتهى.

وليكن هذا السطر الأول. وليبدأ منذ ذلك الحين الجواب الحقيقي.

قائمة الإجابات المتوافرة عن سؤال "كيف حالك"

"بين وبين"

إنها الإجابة الأكثر انتشارًا في هذه المناطق. حالة "بين وبين"، تعني أنك بين الجيد والسيء. هنا لا يقول المرء أبدًا إنه بخير، كيلا تحل به المصيبة.

"أنا حي، حي يرزق"

ويعني أنني لست بخير على الإطلاق، ولكني لن أبدأ الآن في النق والشكوى، لأن الشكوى هي من بين أمور الحريم. هذه إجابة رجالية.

"عندما نكون في القاع، لنكن فيه"

تقال بعد أن اجتمع الكل حول مائدة الطعام وهم يتبادلون أنخاب الشرب، يأكلون من السلطة ويتجرعون من الراكيا. دائمًا أسأل نفسي "وكيف تبدو الأمور لو كُنّا في الذروة"؟ لعل الأمر لن يكون مختلفًا، وأقول ذلك بدون قسوة.

"نحن بخير، لكن حالتنا ستتحسن"

إنه جواب مزوح من عهد الاشتراكية، لعل هناك من عثر على بلاهة السؤال والنظام، الذي يمكن أن تداهمك مصيبة إذا شكوت شكوى صريحة. وهي مصدر تلك النكتة المعروفة:

"كيف حالكم، كيف حالكم؟"، يمزح الأمين العام للحزب.

"نحن بخير، بخير"، يمزح العمال.

"لدي وعكة خفيفة، وغدًا الدفن"

وهنا تنهار كل العناية المتكلفة بك لسؤال "كيف حالك".

"أكثر مِن هذا النعيم سيكون حرام"

إنها أيضًا إجابة من هذا النوع، ربما اخترعها شخص غير راضٍ عن جوهر السؤال.

"لا كثير كيف"

جواب كلاسيكي، جواب الحمار "يوري" من كتاب "الدبدوب بوه". مع أنها قد بليت من كثرة الاستعمال.

"يمضي يوم ليأتي يوم آخر"

لا شيء يحدث، لا شيء أنتظره، أعيش شيئًا، أجرّ شيئًا. ليس واضحًا ما الذي أعيشه. العيش صعب للجر، مثل حمار واقف وسط الجسر ولا يريد التحرك، مثل جاموس ثقيل، يرقد بهدوء في وقت العصر ولا تستطيع أن ترفعه.

لن أنسى الشيوخ من طفولتي، الذين يجلسون في وقت العصر أمام البيوت أو المحل في ساحة القرية، يدخنون سجائر رخيصة وينكشون بِعصا في الغبار أمامهم، هم... فلاسفة النهار، لا أسماء ولا كتابة لهم. الحياة في هذه المناطق قصيرة، لكن النهار خالد.

"أعيش قليلاً قليلاً، كي لا أكون بلا أي عيش"

جواب الماكرين، لكنه يصف المعنى نفسه أو عدم المعنى نفسه.

"زهقان"

الإجابة الصارحة عديمة الرحمة التي يرددها ابن أخي وزملائه في الثانوية العامة في إحدى المدن الناعسة البائسة.

كيف حالك

في مكان ما، تخطر ببالك فكرة تظنها فكرة عبقرية، وتأتي الكلمات بنفسها إلى رأسك، وتكاد تجمعها، وتبحث فورًا عن ورقة وقلم، دائمًا معك ثلاثة أقلام، تبحث ولا تجد قلمًا... تحاول حفظ الجمل غيبًا، تستعمل طريقة الاستذكار الفعالة، تجمع الأحرف أو الأصوات الأولى من كل كلمة، وتصنع مفتاح كلمة جديدة. تستعجل إلى البيت، تترك كل شيء، تقلب كلمة في مسبحة ذهنك. يوقفك جار أمام بيتك ويطل هذا السؤال الرهيب

«كيف حالك؟»، ويبدأ جارك يحدثك بشيء، وأنت تفتح فمك لتقول إنك مستعجل جدًا، وفي هذه اللحظة تطير الكلمة من فمك مثل ذبابة، وتتلاشى في الفضاء، كأنها لم تكن معك أبدًا.

انظر كيف

في السنوات الأخيرة، ازداد شعوري بأنني غريب في هذا المكان. بدأت أخرج من البيت ليلاً فقط. كأن في الليالي تستعيد المدينة شيئًا من أسلوبها، من أسطورتها. لعل في آخر الليل تخرج أشباح أهل المدينة الذين سكنوها في أوائل عام 1910، والعشرينيات، والثلاثينيات، والأربعينيات. أشباح تشرد في أماكنها القديمة، وتصطدم بالشبابيك، مثل دوري طار في الغرفة، طالبًا الهرب من المكاتب الزجاجية الحديثة البناء "، وتبحث عن الراحة في الحديقة أمام كنيسة "سبعة القديسين" ، تبتعد عن كنيسة "القديسة نيديليا" التي تم تفجيرها سابقًا، تتنزه على مهل في "حديقة الملك بوريس الثالث"، أو تتجه إلى شارع "الملك المحرر"، بينما تلتقي في طريقها بأشباح أخرى. أردت أن أتجول في صوفيا القديمة هذه مثل شبح بين الأشباح. وكأني في البداية أتمكن من هذا. أقف إلى جانب بيت الشاعر يافوروف، وأحيانًا أسمع من وراء النوافذ المظلمة أصوات أشباح ومشاجرة عائلية. مرة أضاءت نافذة.

هذه المدينة، قد تركتها والأشباحُ أيضًا. إنها مدينة مهجورة، مدينة بدون أسطورة. وكلما تجمع الناس هنا نهارًا، ازداد الشعور بأنها مدينة مهجورة. هجرها سكانها الموتى. وهو أمر لا يُعوّض.

ذات ليلة، بينما أتيه في تلك المدينة المظلمة الهرمة الخالية، اصطدمت بشجار في الشارع. كنت لأول مرة أحضر مثل هذا الحادث عن قرب. كانوا يضربون بعضهم البعض ضربًا عنيفًا غليظًا، بدون أسلوب. الكلمة هي "يتلاكمون"، يتلاكمون بوجوههم، كانوا سبعة أو ثمانية شبان، وعمرهم

حوالي عشرين عامًا. أدرك جيدًا أن كل تجربتي المتعلقة بهذه المعارك اكتسبتها من السينما والأدب. وكم الصورة مختلفة في الحقيقة. ولا علاقة لها لا بمعركة آخيل وبريام، ولا روكي بالبوا، ولا جاكي شان، ولا روبرت دينيرو في الثور الهائج... مشهد قبيح. عندها أخرج أحدهم سكينًا. كان عليّ أن أتدخل، ولكني لم أعرف بأي شكل. خرجت وصرخت شيئًا. نهرني أحدهم وواصلوا الملاكمة. نعم، كنت خائفًا، كانوا كثيرين، كانوا شبانًا وأقوياء ومتوحشين. أين تنام الشرطة؟ عندئذ خطر ببالي شيء. أخذت من الرصيف بلاطة مكسورة ورميت بها أقرب واجهة في الشارع. كانت واجهة محل الهواتف النقالة. رنّ جرس إنذار المحل. وإذا بالملاكمة توقفت فجأة. كانوا ينظرون إليّ ولا يصدقون عيونهم، وإذا بأبله يتجرأ على التدخل. قرأتُ أفكارهم، كأن رؤوسهم الملطخة بالدم كانت من الزجاج. فجأة كان جميعهم مستعدين لمهاجمتي. وثم صحوا وأدركوا ماذا فعلت، يظل جرس الإنذار يرن وبعد دقيقة، سيجيء حراس خاصون مفتولو العضلات، وهم خلافًا للشرطة لا يمزحون. لم يعد يختبل عقلهم تمامًا، فبدأ الجميع في الانسحاب من المكان. مع أن ذاك الذي يحمل السكين لا يفوته أن يطعنني، وهو يلوذ بالفرار. تمكنت من رفع يدي بحيث دخلت السكين فيها فوق المرفق. جرح خفيف. كنت أنزف بهدوء في أمسية يونيو الدافئة، جالسًا على الرصيف وسط البرك الصغيرة من الدم، وأنتظر الحراس.

ثم كان عليّ أن أدفع ثمن الواجهة المحطمة.

أن أهجر هذا المكان بسرعة. أن أكون آخر. أن أكون آخر في مكان آخر.

إذا فتحتم الصفحات الأخيرة من الجريدة الأوروبية التي تقرؤونها، سترون هناك، في صفحة النشرة الجوية على الخريطة، مكانًا فارغًا يقع بين إسطنبول، وفيينا وبودابست.

أتعس مكان في العالم، هكذا سمته مجلة "الإيكونوميست" في شهر يناير، عام 2010 (حفظتُ هذه القصاصة من المجلة). كأن ثمة جغرافيا للسعادة.

كتبت حول هذا الموضوع في إحدى الجرائد. كان نصًا بريئًا، لكنه أثار ضجة في الإنترنت، وتلقيت تهديدات. أول تهديدات منذ أن أنشر كتاباتي. (لا أحد يريد أن تقول له إنه غير موجود...) لم أعط اهتمامًا لهذه الإشارة. نشرت عدة نصوص أخرى، حيث كتبت في سخرية بأن سنة 1968 لم تحدث أبدًا في بلادنا، وبأننا غائبون، غائبون إلى درجة تجعلنا نقترف شيئًا على غير العادة، حتى يلاحظونا، أن نطعن ونقتل شخصًا مثل غيورغي ماركوف بمظلة وكبسولة سم في أحد جسور لندن، أن نتورط في الشؤون الغامضة مع الإرهابيين الأتراك، الأمر الذي يسمونه "الأثر البلغاري"، لا بأس إذا كانت لديهم أدلة أم لا، أن نسرق جثة تشارلي تشابلن، أن نأخذ جسده رهينةً. لقد عجت منتديات الإنترنت بتهديدات، حيث تذكر أخفها تعليقًا أنني سأجرّ أمعائي مثل كلب ضربوه ضربًا مبرحًا. لم أعد أعيرهم اهتمامًا جديًا، فهم معقدون مجهولو الهوية. ذات ليلة رن الهاتف، سمعت عبارة قصيرة، ولكن المسألة لم تعد متعلقة بي فقط، فهم يعرفون كيف يتصرفون. كانت تلك القشة الأخيرة، التي قسمت ظهر البعير، قررت أن أترك كل شيء، أن آخذ طفلتي ونغادر.

إلى مكان آخر، إلى مكان آخر...

نصيحة القرن التاسع عشر

مرارتك في حالة ركود، أنت ترى حزنًا في كل شيء، تبللت بالكآبة السوداوية حتى العظام، قال صديقي الطبيب.

ألا تنتمي الكآبة السوداوية إلى قرون أخرى؟ أليس هناك لقاحات؟ ألم ينجح الطب في مكافحتها؟ أسأل أنا.

لم تكن هناك قط مثل هذه الكمية من الكآبة السوداوية كما هي اليوم، يضحك الدكتور. وهم لا يعلنون وجودها. فليست بضاعة رائجة، لا تساعد التجارة. تصورْ إعلان سيارة مرسديس بطيئة وكئيبة، من فئة " ". ولكن كيلا نخرج عن الموضوع، سأنصحك نصيحةً، لعلك ستقول إنها من القرن التاسع عشر: سافرْ، حركْ دمك، قدّمْ لعينيك مناظر أخرى، ارحل إلى الجنوب...

هذه النصيحة كأنها من أعمال تشيخوف، يا دكتور.

أااا...، تشيخوف عرف ماذا يفعل، فلم يكن كاتبًا بسيطًا بل كان طبيبًا، يضحك الطبيب.

طبعًا، كان الحق مع الدكتور. لقد استنفدت رواسبي المتوفرة من المعنى. الدكتور يقرأ كثيرًا، أكيد أنه يكتب قصصًا بالسر، تشبه قصص مدرّسه تشيخوف. أحبه، لأنه لم ينتهز أبدًا الفرصة ليقدمها لي.

الأفضل أن أسافر، الأفضل أن أسافر...

برلين: عن البداية والنهاية

80 بالمائة من بين البلغار لم يخرجوا

من البلاد حتى سنة 1989.

...

كل شيء في الخارج كما هو في الفضاء، قالت إحدى معارفي بينما أستعد للسفر. هناك يشيخ المرء ببطء. عندما تعود، قد نتحول إلى شيوخ، أما أنت فستكون ما زلت في الأربعين وما فوقها. يا للخطْب، فكرت عندها في نفسي، أن تكون شابًا، والنساء اللواتي أعجبنك يهرمن.

ما كانت البداية؟ لا الدجاجة، ولا بيضتها، ولا الظلام فوق الهاوية... الآن في صدر غرفتي الخالية وغير المنظمة، أبحث عن شيء للكتابة. ها هي المفكرة اللعينة. من نظرة جانبية، تبدو اللحظة مُهيبة، إنها حياة جديدة في مدينة جديدة غير معروفة. ما هي الكلمات المناسبة، الكلمات الأولى التي تليق بمثل هذه اللحظة؟ أسرع حتى لا أنساها.

"خبز، تفاح، فرشاة أسنان، عسل، فأرة، فتاحة النبيذ..."

فِي الْبَدْءِ كَانَتِ الْقَائِمَةُ.

الليلة الأولى تحت سوف إحدى شقق برلين، سقف مرتفع إلى حد انقباض الصدر. كنت أرقد وأتذكر كل السقوف والغرف في حياتي.

مقبرة "سانت ماتياس" في منطقة شيونيبرغ، بالقرب من السوق التركية. من جهة الشارع، أصوات البائعين - كيلو- أويْرو، كيلو- أويْرو ... بُويُرونُوس! ومن جهته الأخرى، بُعْدَ عدة أمتار، سكوت الممرات المطلق والموتى تحت الأعشاب.

أبي، الذي أخذته معي لعدة أشهر، لم يعتد على حجم الشقة، وأراد النوم في المطبخ - أصغر غرفة. كما ولم يعتد على حجم برلين. والمكان الوحيد، الذي يريد الذهاب إليه كان تلك السوق التركية والمقبرة التي بجانبها.

هناك دائمًا كان أبي يستطيع أن يتبادل مع الناس بعض الكلمات "البلغارية" مثل "أركداش، تشوك سلام، آفيريم، ما شاء الله، أي والله..."، أن يشتري جبنًا "بلغاريًا" وخبزًا. أن يجلس بعد ذلك على أحد المقاعد في المقبرة حيث لم يعد الموتى يتكلمون الألمانية، أن يخبرهم بشيء ويرمي كسر الخبز للعصافير. أتركه هناك صباحًا وأجيء آخذه مساءً.

أتجول راكبًا الدراجة في عصريات "غرونيفالت". بيوت ضخمة ثقيلة. زمن آخر، ألمانيا أخرى. صلابة جابهت كوارث.

برلين، لا يأتيها المرء من خير. في شهر فبراير، عام 1918 يغادر الشاعر البلغاري غيو ميليف إلى برلين، لتخييط رأسه المحطم، فيبقى سنة كاملة. يصل هيو أودن إلى برلين من اليأس، عام 1928. يجيئها إليوت ليلملم جروحه بعد أن رفضوا كتابه الأول. هنا يستوطن المهاجرون الروس المضطهدون بعد الثورة ويسكنون "شارلوتنبرغ". عندما سألوا الكاتبة أنجيليكا شروبسدورف المسنة، لماذا تهجر في هذه السن بيتها المريح في إسرائيل وتجيء لتعيش في برلين؟ أجابتهم إجابة مدهشة: من قال إني جئت للعيش؟ وكي تكون كلماتها واضحة بكاملها، أضافت: الموت في برلين أكثر راحة.

ذات يوم، وبينما نطلع على الملعب الأولمبي، وإذا بضباط ألمان يظهرون فجأة أمامنا بزي رسمي نازي. نرتعد خوفًا، ثم نرى الكاميرا السينمائية من خلفهم. يصورون فيلمًا. أحد مساعدي المخرج يشير إلينا طالبًا انسحابنا بهدوء، لكن آية تبدأ تبكي بصوت عالٍ مرتفع، ويدوي الملعب ببكائها. تقف الكاميرا. وتصمت كل أجهزة السينما. خلال عدة دقائق، يهمد لهيب الحرب العالمية الثانية همودًا إجباريًا.

ولأن الأشياء تحدث في آن واحد، أتخيل كيف في تلك الدقائق تمامًا، أثناء

المعركة في هنغاريا استغلت امرأة فرصة الهدوء الفاجع الذي يسود العمليات الحربية، وخرجت في الشارع، وسحبت الجندي المجروح إلى بيتها.

ما يبقى في النهاية – يوم شتائي في برلين وسط غرفة مرتفعة السقف، شبه فارغة، في نهاية شارلوتنبرغ، الشعور بالخلاء، "بالأثرية" و"التقليلية". هنا حيث عاش الملحن أرفو بارت سنة كاملة، أستمع الآن إلى معزوفته "فيور آلينا"، كل نغمة تنفصل، تحلق في الغرفة الفارغة، يمكنك أن تأخذها في اليد، قبل أن تتلاشى. في هذه الغرفة ستحبو آية خطواتها الأولى، ستنطق كلمتها الأولى: Nein.

ماذا أيضا؟ السماوات فوق برلين، مقهى الحلويات الحزين في نهاية شارع "كورفيورستندام"، فيه كيكات عرس لا يشتريها أحد، الخريف في "سافيني بلاتس" بتساقط الأوراق المستمر فوق مطعم البيتزا، بحيرات "غرونيفالت"، القبة الزجاجية للرايخستاغ، التي أحرقها الغروب، الغسق الباكر في نوفمبر، أرامل "فيلمسدورف"، أرامل بقين على قيد الحياة بعد القصف، تعبات من السلام الذي يجب الموت فيه، الزعفران الخريفي المتأخر حول "هالينزيي"، الصينيات اللواتي يبعن التوليب في الميترو، ليلة عيد الميلاد، التي نترك فيها المائدة مليئة بالطعام بموجب التقاليد، كي يجيء أقرباؤنا الموتى. السؤال إذا كانوا يجدون الطريق إلى مائدتنا والعزاء، أنه حتى لو كان المكان آخر، فالسماء هي السماء.

كنت أعمل كل ما في وسعي كي نعيش حياة طبيعية، مع أن الكآبة تتعمق بدلاً من أن تتبدد. كنت أزداد صمتًا وسوداوية. أريد في مثل هذه اللحظات ألا يراني أهلي، ولا سيما ابنتي. لذا بدأت ألبي كل الدعوات وحتى إلى المهرجانات الأدبية من الدرجة الثانية في مدن وبلدان أخرى. قبل سفري

أهدتني بنتي ديناصورها المفضل. لم أفارقه قط.

فكرت في نفسي كيف هي فيما بعد، عندما تروي لأولادها، ستبدأ حكايتها بالعبارة "اختفى أبي والديناصورات في آن واحد..." حقيقة، إنها بداية سعيدة، لكنها نهاية.

الخريف العالمي

وها أنا الآن. أطارد خريفًا في كل أوروبا. في البداية سقطت كستنة في برلين بُعد متر عني، ثم في وارسو عدة أوراق خريفية سقطت أرضًا، هكذا ببطء، وكانت كافية لتشعل الحريق في أوروبا كلها، أشاهد إنزال الخريف فوق النورماندي، أمشي في سيبيو تحت أشجار الكستناء وكأنها فاحمة (أو مغطاة بالصدأ)، أقف في دهشة أمام شجيرة العِلّيق المحترقة في فروتسواف، أمشي تحت هبوب الريح في غنت، وأشاهد من نوافذ إحدى الغرف العلوية في غراتس أمطار نوفمبر اللانهائية.

المدن التي تبدو خالية في الثالثة بعد الظهر:

غراتس

تورينو

درسدن

بامبرغ

توبولوفغراد

أدرنة

مانتوفا

هلسنكي

كابور

روان

يسوع المجروح من "كون" في النورماندي، في الكنيسة التي مالت بعد القصف في عام 1944. بقي رأسه وفوقه إكليل الشوك، جذعه الخشبي احترق، ذراعاه جرفتهما القذيفة. ليس له رجلان.

يسوع من المرمر وذراعه اليمنى المهشّمة في الكنيسة شبه المهدمة في "كودام".

وكل يسوعيّ أوروبا مشوهون.

المدن النورماندية الصغيرة النائية تحت ثقل القشرة التأريخية لماضيها، تحت ثقل قلاع وكاتدرائيات. كانت قبل حوالي عشرة قرون عظيمة والآن ريفية. ها هو باعث الكآبة التأريخية إن أحببت. إنها مدن لا تجد أمامها إلا أن تحمل مجدها ونسيانها بوقار. فاليز بلدة يبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف، وتشتهر بقصرها الضخم وسور قلعتها. إنها مسقط رأس ذاك الذي يسميه البعض "ويليام الفاتح"، وبعضهم الآخرون يطلقون عليه اسم "وليام النغل". بعد السابعة مساء تبدو البلدة مفرغَة، أكاد أقول مدمرة. وتعبق منها رائحة التبن والأعشاب الطبية. لا سورَ قلعةٍ يمكن أن يصدّ هجوم خيالة الساعات اللا ترحم.

"روان". روائح أولى. رائحة زنبق... رائحة فواحة وتقية حول دير المدينة. وفورًا ذكريات بيت جدتي، الزنبق في قاع الفناء في الممر إلى المرحاض الخارجي. كل ما أراه يعود إلى مكان ما، إلى بلد الطفولة المفقود. حيث تقع المدينة الكاملة، المدينة السماوية، التي قد حدثت لنا وفي كل تجْوالنا في السنوات اللاحقة لا يمكننا إلا تسجيل مماثلات تلك المدينة، مماثلات ناجحة أو غير ناجحة. الرائحة الثانية التي أُدخلها في الكتالوج هي رائحة البول، تفوح حول الكاتدرائية أيضًا. أرى المتشردين الذين يبيتون حولها وهم يجمعون فرشهم من الكرتون.

أتجول وحيدًا عبر أيام السبت والأحد للعالم، الذي في هذه الأيام هو دائمًا عالم عائلي. والجميع يضحكون، يضحكون، إنه أمر مدهش. يضحكون بخفة الضحك المتمتع بالحياة. ضحك لا سبب مرئي له. ليس هو الكركرة، أو الضحك الساحق، التهكمي، الهستيري وإنما هو ضحك الخفة التي تشعر من خلالها بأن يومك يوم جميل، تتدحرج في مروج العالم مع أناس آخرين متدحرجين.

في أحد أعداد صحيفة "زود دوتشي تسايتونج" رأيت صورة ماكس هوركهايمر، كان كبير السن وقد حضر حفلة لجامعة فرانكفورت في عام 1952. وجه مستدير ضاحك بشكل حائر، وعصا كرنفال، يسدل في طرفها كرة ورقية. كأن هذا الفيلسوف الطاعن في السن يشعر بذنب خفيف لحضور الحفلة التي تم إدخاله فيها، ويخاف قليلاً، لأنه من الممكن أن يظهر في أي لحظة من مكان ما صديقه أدورنو، فيسدد إليه نظرة صارمة منددة. ولكني لا أشعر بمتعة – كأن هوركهايمر الضاحك في الصورة يقولها دفاعًا عن نفسه. وأرجو اتخاذ ذلك بمثابة الظروف المخففة لذنبي.

الجميل في المتاحف الأوروبية الريفية للفن الجميل هو أنها لا تعرض لنا ذرى الفن، مع أن في كل مكان هناك لوحة أو لوحتين لرينوار، ومونيه، وطبعا، بيكاسو، وهم يغذون كل صناعة المتحف، وإنما تعرض لنا حدة الحياة بدون عباقرة. فن الرسامين من الدرجة الثانية، الذين بصراحة أظنهم الآن أكثر أهمية. عجّ القرن السابع عشر والثامن عشر برسامين بلا حظ.

تأملت طويلاً لوحة الرسام "تيربورخ"، Banquet Villageous. ريفيون في وليمة، رسمهم في نهاية الاحتفال عندما تنقسم الحفلة إلى جماعات. إنه حزن كبير، يأتي من تحت... من الأسفل... عميق، حزن البطن. تشبعت المعدة بالطعام، وأما الفرح فلم يأت قط أو لعله قد ذهب. حزن من القرن السابع عشر.

لوحات إرشادية في متحف الفنون الجميلة في «روان»:

الرومانسية ⊠

الانطباعية ⊠

الطبيعانية ⊠

التكعيبية ⊠

دورات المياه ⊠

بينما أتجول في متاحف العالم، يبدو لي أنني أرى نفس المجموعة من الشيوخ الذين يمشون مشية متصلبة، ومن المسنات الهشات الشيب، كلهم أهل الفضول في لقائهم المتأخر بفن العالم. كنت أعتقد في البداية أن هذا

اللقاء متأخر إلى درجة فظيعة. ثم، عندما أدنو من تصلبهم وهشاشتهم، أفهم ببطء، أنه على الوقت. من أبدية أساتذة الفنون القدماء إلى أبدية أخرى - كم هو سلس هذا الانتقال.

أقف في إحدى ساحات مدينة "بيزا" وأشاهد وجوهًا. إنه أمر لن أملّ منه أبدًا. بعد الجوع للوجوه الذي عانيت منه في الأقبية، والطوابق الأرضية، وأوقات العصر الوحيدة، أظن وجه البشر قمة صنع البارئ. أصبح البشر أجمل وجوهًا. لا، إنها ليست الإشارة التالية إلى أنني أشيخ. إن البشر فعلاً أصبحوا أجمل وجوهًا. ولا سيما النساء - طبعًا. لا سيما النساء.

"روما" - مدينة مهجورة. يوم الأحد.

إلى قائمة الروائح الأولى أضيف كذلك: رائحة أسفلت صهرته الشمس في العصر المتأخر (رائحة طفولية)، رائحة ورد ثقيلة وخيط رقيق يحمل عبق التعفن. إذا كان في الطبيعة شيء يمكن تحويله إلى الفن الهابط (لأن الثقافة بذلت الجهد الجهيد في هذا) فهو الورد. المدينة مملوءة بالورد. أهذا لأنه يجب تخبئة موت كثير تراكم على مدى قرون؟ كل المقابر مشبعة برائحة الورد.

غروب شمس هذا اليوم يجدني على تلة في حديقة دير فرسان مالطة، حيث يتعفن في الأعشاب برتقالٌ، والغربان تنقر لحم الفواكه. إنها إيماءات لحظوية ستنهار بعد قليل. وهذا يرفع أسعارها مئة مرة. على مدى عدة دقائق، غروب الإمبراطورية الرومانية والغروب فوق الإمبراطورية الرومانية يحملان نفس المعنى. تُسمع أصوات برابرة الليل، أصوات الدراجات النارية Vespa و Piaggio.

تمر إلى جانب بعض المدن دون لقياها، مثلما تمر ببعض النساء. تلتقي بهن إما مبكرًا وإما متأخرًا. كل شيء في هذا اللقاء كان مدبرًا، ولكن صدفة تخيل،

فجعلتك تنعطف فجأة إلى شارع آخر.

ويوم الأحد من جديد، كل أيام الأحد للعالم، صباحًا في مكان ما في أوروبا...

توقظني أجراس الكنائس، وبين أطياف النعاس أحاول أن أخمن أين أنا. أتذكر كل صباحات العالم التي تبدأ بمثل هذه الطريقة، أقلّب مسبحة المدن والبلاد - غراتس، براغ، ريغنسبورغ، فيينا، زغرب...

في كل واحدة منها ساحة صغيرة، كاتدرائية والفندق خلفها، الذي يبعد عنها مسافة جرس واحد. أطالع الغرفة. إنها مدينة ليوبليانا كما يؤكده كذلك الملف الأخضر الثقيل لفندق يونيون وكتابة ذهبية بخط أرت نوفو: "1907" - سنة افتتاح الفندق. تقرع النواقيس، وإجبار خفيف مشرق يجعلني أسرع، فألبس، وأنزل راكضًا في الشارع. لعل بين النواقيس والجسم، منذَ زمن، يجري حديث خاص قديم جدًا مرتبط بكل السعادات والكوارث، الأعراس والوفيات، الحرائق والعِصْيان، الطوفان والعروض العسكرية، التي قرعت النواقيس من أجلها قرونًا طويلة فيما مضى. إذا سمعتَ جلجلها، أخرجْ إلى الشارع. أختلطُ مع الجمهور، أحاول أن أذوب في مادتها، أمحو هويتي الخاصة. الآن - أقول في نفسي - الآن أنا هنا، في هذه المدينة، في هذه الساحة، مع هؤلاء الناس، في هذا السبت أو الأحد. أريد أن أكون جزءًا من كل هذا، أن أدخل متواضعًا في الكاتدرائية، أن أرسم علامة الصليب في مدخلها، أحيانًا أرسمها مثل أرثوذوكسي وأحيانًا أخرى مثل كاثوليكي، لا أعرف ما هي الطريقة الأصح، إلهي، إغفر لي، آخذ الكتاب المقدس، أفتحه في صفحة ما، لا أفهم الكلمات، أسمع صوت المنشدين، وإجابة ألحان الأُرْغَن، هل هكذا يصدح صوت الرب، صوت كثيف، دافئ وصارم في آن واحد. أحس نفسي مطمئنًا ومَحْمِيًا، جزءًا من كل شيء. وفي

داخلي فقط شعور خفيف بأنني اقترفت خطيئة مجرّبًا يومًا، لا.. ليس كل اليوم، بل صباحًا من حياة لا أملكها.

المرأة التي كانت تقطع الساحة أمام الكاتيدرائية في مدينة كولونيا في ذاك العصر المظلم وتنهر أحدًا بالهاتف إلى هذا الحد من الإلحاد والجلالة...

ملاك الشمال ذو أجنحة الطائرة بالقرب من نيوكاسل.

...

لماذا لم أدوّن المزيد من الأسماء؟ أسماء كل الأماكن التي زرتها. أسماء المدن والشوارع، أسماء الأطعمة والتوابل، أسماء النساء، أسماء الرجال، أسماء الأشجار - ذكريات شجرة الجكراندة البنفسجية في لشبونة، أسماء المطارات ومحطات القطار...

أقف أمام مفكراتي كأنني آدم الشيخ، الذي أعطى الأسماء في زمن ما، والآن يلوح في آثارها ويرى كيف تتلاشى أذيالها في البعيد.

ذاكرة للفنادق

بدأت أطوّر ذاكرة خاصة لهذه الأماكن التي لا ذاكرة لها، الفنادق. الغرفة المثالية لا ينبغي أن تؤرخ حضور أي شخص سابق. التنظيف بعد مغادرة الضيف هو قبل كل شيء محو للذاكرة. يجب على السرير أن ينسى الجسم السابق، يجب فرشه بشرشف جديد، يجب تصويبه، يجب لمع الحمام. كل أثر من حضور بشري سابق - شعرة على الشرشف، بقعة شاحبة من أحمر الشفاه على الوسادة- هو كارثة. لا شيء معقم إلا النسيان.

ستائر المخمل الثقيلة وغرف فندق Royal Station Hotel في نيو كاسل

مستطيلة تشبه غرف القطار. تُفتح النوافذ عموديًا إلى الأسفل، كما هو الشأن في القطار. وكأن بعد قليل سيصفر الفندق معلنًا انطلاق الرحلة. إنه زهد العيشة البريطانية. ليس من السهل أن تخترع مرحاض المياه قبل عدة القرون، وأن تحقر خلاط الحنفية إخلاصًا للتقاليد. أفكر في هذا الموضوع بينما أحاول أن أخلط الماء البارد والساخن بلا نجاح.

الفندق الملكي في مدينة بيزا، غرفة فيها مرايا ثقيلة ضبابية، سقف مرتفع، وأسرّة منحوتة كبيرة قديمة. ترددي الطويل في اختيار أحد السريرين والشعور الغامض بأني أرى أجسام الذين ناموا هناك منذ 200 سنة، أجسامًا رقيقة، شفافة، كأنها في النيغاتيف.

الفندق في مركز مدينة هلسنكي، الواقع خلف محطة القطارات. مرتفع، ذو نوافذ لا تفتح إلا بضعة السنتميترات، حتى لا يستطيع جسم بشري الدخول والقفز منها. الشعور برهاب الاحتجاز والحرمان من أحد الحقوق الأصلية.

الفطور سمك السلمون، ثم حساء الهِلْيَوْن، الموز والبرتقال الذي يحلم به في منامه أحيانًا، ومن أين هذه الكآبة من جديد، ماذا ينقصك؟

لا شيء. إلا ذاك الجوع.

أرخص فندق في باريس اسمه "آكاسيا" في المنطقة الحادية عشرة... طوال الليل أسمع صرير السرير في إيقاع التفعيل الشعري "يامب" الدقيق الصلب. جاءتني عبارة وكتبتها: كلما كان الفندق رخيصًا، ازداد الجماع عنفًا.

الفندق منذ القرن الخامس عشر في الجزء القديم من براغ، في شارع أستروفني 32. كم هي غير مريحة القرون الوسطى للجسم البشري...

الفندق الكبير في سيبيو، غرف باللون الأزرق الفاتح، حمام زجاجي،

طعام فطور سيء.

فندق "Vensan" في روان، في قلب المدينة نفسه، غرفة فوق الشارع، ورق جدران من القماش ولونه بوردو لا يطاق. بين البروشورات - إعلان حصيف لناد ليلي من الدرجة الأولى اسمه "مدام بوفاري". سأقضي الليلة مع "بوفار وبيكيوشيه".

الفنادق عديمة النجوم في النورماندي، وأكثر الفنادق اللانجمية بينها - فندق "Bernieres"، حيث يقع الدش والمرحاض في الخزانة.

البانسيون في منطقة "بايرو ألتو" في لشبونة، الأجنحة الخشبية للنوافذ التي تصدمها أرياح المحيط الليلية. دكان الجزار في المقابل، الملابس على حبل الغسيل، المغرة المهدمة لواجهة البانسيون. Papelaria الصغيرة لبيع الدفاتر، الورق، الجرائد والسيجار، وعلى بابها صورة الشاعر بيسوا التي ابيضت من الشمس. ذكريات مفاجئة لمدينة ت.، التي تقع في الطرف الآخر من القارة.

الكتاب المقدس في الفندق الكاثوليكي في مدينة فروتسواف. بجانب الطوبيات، بجانب "طوبى للمساكين بالروح... طوبى للحزانى..." الطوبيات التي هي كل شيء ما عدا طوبيات، كانت يد نسائية مغرية كتبت في الهوامش: "لا أريد أن أتدخل في أموركم، ولكن إذا مللتم، اتصلوا بي، اسمي أغنيشكا، رقم هاتفي 37475..." (لن أخبركم كل رقم هاتفها). وهكذا أضافت أغنيشكا إلى الطوبيات طوبى أخرى. كانت رائعة هذه العبارة: "لا أريد أن أتدخل في أموركم ولكن...".

لم أتصل بأغنيشكا تلك الليلة، ولكن نسخت بحرص من هوامش الكتاب المقدس رقمها والملاحظة كاملةً. يا ترى ماذا تفعل أغنيشكا، سنوات بعد تلك الليلة؟ هل ما زالت تمنح طوبى متأخرة، أم ينبغي أن أشطب هذا

الرقم من أرقام هواتف (الطوارئ)؟

قوائم ونسيان

ماذا يُسمى الإدمان على ترتيب الأشياء المستمر في قوائم، على تفكيرٍ ذي شكل قائمة، على رواية ذات شكل قائمة؟ أي نوع من الميل المضطرب يمثل كل هذا؟

أستعجل في تدوين كل شيء، أن أُدخله في المفكرة مثلما يستعجلون أن يُدخلوا الحملان في الحظيرة قبل انطلاق الزوبعة. أفقد ذاكرة الأسماء والوجوه أكثر فأكثر. ولعل هذا هو التفسير. كان أبي مصابًا بمثل هذا المرض في النهاية. كان هناك من يأتي ويمحو بممسحة كبيرة كل شيء، من الوراء إلى الأمام. أولاً تنسى ما كان أمس، ويترك في آخر النهاية ما كان في أبعد أماكن ذاكرتك. في هذا المعنى تموت دومًا في طفولتك.

كان أبي يخرج ويضيع في الشوارع مثل طفل ضائع في مدينة غريبة. حمدًا لله أن المدينة كانت صغيرة، فيعرفه أهلها ويقتادونه إلى البيت. في أغلب الأحيان يجدونه في محطة السكك الحديدية. يشاهد القطارات. مرة وكنت رجعت إلى مدينتي لوقت قصير، كنت أمشي وراءه وأشاهده. حين يقف القطار في المحطة، ينهض أبي ويتجه إلى الأبواب المفتوحة، ثم يتمهل في سيره، يقف، يلتفت حوله عجزًا مثل رجل نسي فجأة معنى رحلته أو تردد فيها، وبنفس الخطوات غير الثابتة يعود إلى مكانه. يتكرر هذا المشهد بكل قطار.

كابوسي الخاص هو أنني في يوم ما سأقف مثل أبي في مطار ما، ستهبط الطائرات وتقلع، أما أنا فلن أتذكر إلى أين أغادر. والأسوأ من ذلك، أنني

قد أنسى المكان الذي يجب أن أعود إليه. ولا أحد سيعرفني حتى يقتادني إلى البيت.

متاهة واختيار

المتاهة هو تردد تحجّرت جدرانه

الأمر الأكثر كآبة في المتاهة هو أنك دومًا في حالة الاختيار. ما يربكك هو ليس غياب المخرج وإنما هو وفرة المخارج. طبعًا المدينة هي المتاهة الأكثر جلاءً. يشير رولان بارت إلى مدينة باريس كنموذج في هذا الصدد – "متاهات المركز والضواحي التي بناها هوسمان".

كانت لدي ضياعات سعيدة في هذه المدينة، ولكني هنا لن أضيف سوى عصرية واحدة مربكة. الوقت الذي وقفت فيه بين شارعين مترددًا في اختيار أحدهما. كلاهما سيُوصلانني إلى المكان المطلوب. بصراحة الشارعان لا يتميزان بشيء خاص. كانت مشكلتي كما هي دائمًا أنني لو اخترت شارعًا لفقدت شارعًا آخر. ولن أنال رضا كاملاً إلا في تلك التجربة من فيزياء الكم، التي تبرهن على أن الجسيم الأولي يسلك سلوك موجة ويمر عبر فتحتين في آن واحد. كانت الدقائق تمر، وأما أنا فما زلت أقف أمام الشارعين وأتردد. لعلني بدوت ضائعًا للغاية، لأن سيدة مسنة وقفت وسألتني إذا كنت بحاجة إلى المساعدة.

ماذا فعلتُ؟ اتجهتُ إلى أحد الشارعين، في اليمين، ولكني طوال الوقت كنت أفكر في الشارع الآخر. وبكل خطوة أردد في نفسي أنني مخطئ في اختياري. لم أقطع ثلث الطريق، حتى وقفت بحزم (يا لها من إشارة حازمة لغياب الحزم) وانعطفت إلى الشارع الآخر. وطبعًا بخطواتي الأولى، هاجمني

التردد، وبعد عدة أمتار رجعت من جديد وأنا أكاد أركض إلى الشارع الأول. ثم مرة أخرى اعتراني الشك وعدت إلى الثاني، ثم من جديد إلى الأول. ولا أعرف حتى الآن إذا كنت بلغت الشارعين في هذا التعرج أم فقدت كليهما. في النهاية، كنت منهكًا مثل لاعب الماراثون في المتاهة، بقلب كاد يتحطم، فخارت قواي على مقعد.

قاطفو البابونج

لا أسافر وحيدًا أبدًا. ولكن هؤلاء الذين يرافقونني في رحلتي لا يمكن رؤيتهم بالعين المجردة. أشبه مُهَرِّبًا ينقل عبر الحدود سلسلة كاملة من الناس. لم يعد بعضهم على قيد الحياة. بعضهم الآخرون على العكس، هم فضوليون وأحياء للغاية، يتحسسون كل شيء، يسألون عن كل شيء، يضيعون، يخرجون من الجماعة. أجهزة الاستشعار في المطارات لا تلتقطهم.

في الأماكن الأكثر مفاجأة من هذه القارة، في الأوقات التي في غير أوانها، وحتى في أراضي المطار المجهولة، في هذه الدولة المنفردة، تطل وجوه غير متوقعة. بينما أشرب الشاي في مطار ميونخ، وإذا به يمتلئ فجأة بالغجر الصاخبين الملونين. لا تلاحظهم الشرطة ولا تثير أساورهم الفضية، وصوانيهم، وآنيتهم النحاسية الثقيلة رنين أجهزة الكشف عن المعادن. ها هي صديقة جدتي، الغجرية العجوز روساليا، على رأسها منديل مورد، تمسك بمشط ضخم خشبي، تأتي لتقطف البابونج. الشاي الذي أشربه هو من البابونج، هذا هو المفتاح. أريد أن أقول لها، إن البابونج لا ينمو هنا في مطار ميونخ، لكن روساليا لا تراني. عندها أفهم أنني لا وجود لي بالنسبة لها مثلما لا وجود للشرطة ولا أجهزة الاستشعار، ولا مبنى الركاب الضخم... فلم يتم بناؤه بعد. ويمتد في مكانه مرج البابونج اللانهائي.

كنت خائفًا وأنا طفل من كل هؤلاء الغجر الصاخبين. كان الكبار يخوفوننا بهم قائلين إن الغجر سيأخذون في زكائبهم الكبيرة الأولادَ الأشقياء من بيننا. كنت هادئًا، ولكن مَنْ يعرف، يمكن أن يرتكب الغجر خطأً. رغم أنني لا أخاف من روساليا الغجرية. كانت تدخل البيت، تجلس وتتحدث مع جدتي طوال العصر. أقف بجانبهما وأستمع. تحب روساليا جدتي، فهي وحدها التي تدعوها إلى البيت وتعاملها معاملة الندّ بالندّ. جدتي تحب روساليا، لأنها سافرت كثيرًا وكانت تحترم كل من دار العالم. كانت روساليا تروي عن العالم كل صيف، وأما جدتي فتستمع إليها وتغزل، وتدخل الحكايات في الخيط، الذي يتمطط من مغزلها. لماذا تدعين الغجر إلى بيتك؟ تقول الجارة فيما بعد، لا تصدّقي غجرية، فبينما تمكرك بحكاياتها، سيسرق أهلها دجاجة، أو يقطفون الطماطم من حديقتك. وليقطفوا – تقول جدتي – وهم كذلك بشر، هذه السنة غنية بالطماطم.

صوت المذيعة يعلن تأخر الطائرة ويعيدني إلى مطار ميونخ. لم يبق أي أثر من روساليا الغجرية ومشطها الكبير الخشبي لقطف البابونج ولا من أهلها أيضًا. ولم يبق شايًا في كأسي.

طالما أنني على قيد الحياة، ستذهب روساليا لقطف البابونج في مطار ميونخ، وأهلها من ورائها سيصلصلون بالصواني، وستغزل جدتي في العصور اللانهائية وستستمع إلى حكايات عن العالم.

وصف عائلة شعراء فنلندية أثناء الغداء في مدينة لاهتي

كل هذا يمكن أن يكون لوحة بريشة فيرمير.

شاعر فنلندي جميل مُسِنّ، وجه مستطيل، مثل بعض وجوه الشيوخ،

عينان زرقاوان جدًا ينتقع لونهما (تشنج خفيف في إحدى عينيه)، يحرك يديه بصعوبة، بسمة دائمة تزين وجهه (هل هي أيضًا عبارة عن تشنج؟) بسمة طيبة خجلة كأنه يعتذر عن شيخوخته. السيدة المسنة إلى جانبه هي بالتأكيد زوجته - قبعة ضخمة عريضة الحواف عليها فريز، الكثير من الحمرة على خديها كما تفعل المُسنات... تتابع حركات زوجها بحصافة، مستعدة لمساعدته في أي لحظة. إنه حتى الآن يقوم بكل شيء لوحده رغم تلك الرجفة في يده اليمنى، التي تجعل نصف محتويات الملعقة يصب من جديد في الصحن.

بجانبها يجلس الابن وهو أيضًا شاعر، كما تبين عند تعرفنا، عمره في الأربعين، نحيل، طويل، مع نظارات وأسنان بارزة إلى الأمام، ليس جميلاً ورقيقًا مثل أبيه. من الغريب أن الوالدين في بعض الأحيان أجمل من أولادهما، دائمًا يتوقع المرء أن يكون بالعكس. زوجة الابن بالتضاد مع كل العائلة، ممتلئة الجسم، سوداء الشعر، على الأرجح أنها أجنبية. والطفلتان الفاتنتان في الرابعة والسادسة، تلبستان بدلتين زرقاوين، وهما مترددتان ما بين إتيكيت مائدة الطعام وقانون الطبيعة في داخلهما.

يجري الحديث بصعوبة، لكن هذه لوحة لا تحتاج إلى الحديث. فأنت تشاهد مفتونًا بالحياة في تغلبها الأنيق على السن. ثمة حب، وأنجب الحب أولادًا، وأنجب الأولاد أولادهم. بالتأكيد كان هناك جوائح، ولكن الآن ها هم يقضون معًا وقت غداء الأحد، حول المائدة الفخريّة، أمام جميع هؤلاء الكتاب من كل أرجاء العالم، لعلهم لم يقرؤوا أبدًا بيتًا واحدًا من أعمال الشاعر الفنلندي الكبير، وبالتأكيد لن يحفظوا غيبًا اسمه الصعب. أن تتمتع ولو لظهيرة واحدة باحترام أشخاص يرونك لأول مرة وتشارك كل ذلك مع أسرتك. أي حلم أهم من هذا؟

وهنا يفعل الشاعر الفنلندي شيئًا يُخرجه من اللوحة. تنزلق الملعقة من

يده المرتجفة، وتصطدم بحافة الصحن بصرصرة. وبينما تسقط، تجرف الملعقة بعض حساء الهِلْيَوْن، فيخلّف بقعًا على قميصه الأبيض ويُرسل عدة قطرات مشاغبة إلى بلوزة الزوجة المندهشة، ثم تهبط الملعقة بقرقعة على الأرضية الحجرية.

صاحب البيت يهرول ليرفع الملعقة، كأن هذا أهم شيء ويصطدم رأسه بحافة الطاولة، الطفلة في الرابعة لم تعد تضبط نفسها فتستلقي على قفاها من الضحك، أمها أومأت إليها لتصمت، ولكن هذا يجعل الأمور أكثر سوءًا، بدون مقدمة يتحول ضحك الطفلة إلى صراخ، ابن الشاعر يعجز ويبرم رأسه مرة إلى أمه ومرة أخرى إلى زوجته، لكنه لا يتلقى أي إرشادات منهما. تحاول الزوجة العجوز أن تنشف البقعة على قميص الشاعر بمنديل. وهو؟ هو يستمر يبتسم بتلك الطريقة البريئة مثل طفل اقترف ذنبًا.

إذا رسم أحد الرسامين من حجم فيرمير هذه اللوحة وعرضها في أحد القرون التالية، فانتبهوا إلى البقعة المعتمة في الزاوية اليمنى في الأسفل، حيث سقطت الملعقة. لو حدقتم فيها وقتًا طويلاً مثلما نحدق في بقع هرمان رورشاخ، فسترون عفريت الشيخوخة الصغير وبسمته الشامتة.

الحزن يجعل العظام هشة

غادرتُ إلى فنلندا من أجل أبي. استغليت الفرصة ولبيت الدعوة إلى أحد المهرجانات الأدبية. كنت قريبًا من هذه البلاد منذ طفولتي، بدون أن أزورها. سافر أبي إليها صدفةً، كانت رحلته الأولى ولعلها الوحيدة إلى

الخارج. يمكننا القول إن فنلندا كانت تسكن في غرفة المعيشة في بيتنا، إذ كانت فيها ست كؤوس فنلندية من الزجاج الصلب باللون الأخضر الفاتح، ولم نُخرجها إلا عندما يجيئنا الضيوف. وترتيب هذه الكؤوس على المائدة دائمًا كان المفتاح الذي يفتح قصة أبي. كانت قصته بالنسبة لنا تمثل حكاية، قصة بطولية شمالية ورواية مغامرة في آن واحد. كيف أنهم أعطوا كل واحد منهم خمسة دولارات أمريكية فقط، كيف نقل كل واحد منكم زجاجة كونياك أو فودكا سرًا، كيف هو فيما بعد بكل الخوف والخجل قايض الزجاجة بالكؤوس، التي نشرب منها الآن، والمنفضة الفنلندية، الذي كان أيضا على الطاولة، والقماش لفستان أمي. عند تلك الكلمات تحضر أمي من الخزانة الفستان الملون الزاهي المورد بورود كبيرة ذابلة ويطقطق الجميع بألستهم في دهشة. كانت فنلندا بلاد طفولتي، التي تقترب بأقرب مسافة من الدولة الميثولوجية المسماة بالغربة. دولة أبي. دولة الآباء.

زيارتي إلى فنلندا وإطلاعي عليها حصل بعد ثلاثين سنة تمامًا وحدث ذلك في الفترة التي قد أصبحت فيها بدوري والدًا. وفي نفس الأسبوع بعد صدور نتائج الفحص المخبري لأبي الذي ظنناه في الأول فحصًا بريئًا. في اللحظة الأولى قررت رفض السفر، وفكرت بعد ذلك أن هذه الفرصة لم تأتِ إليّ صدفة، أن الأمر يحدث بالقضاء والقدر، ويكاد يبدأ من خلال هذا السفر نوع من العمليات العلاجية.

ركبت الطائرة حاملاً أمتعة زائدة من الحزن. كان في أواسط يونيو، في الليالي البيضاء اللانهائية. كنت غارق في نوع من أنواع الكآبة السوداوية الخاصة بي. إن هذه لم تكن البلاد التي تخيلتها. بدا لي أنها شاخت بالمقارنة مع زمن طفولتي. كنت أمشي في شوارع هلسنكي، ولكني لم أحضر هذا المكان بكاملي. ولدت بنتي لتوها، وأبي لتوه علم بتشخيصه الرهيب. حين مشى

والدي في هذه الشوارع كان في الخامسة والعشرين، وأنا قد بلغت التاسعة والثلاثين. لن أصل أبدًا إلى نظرته للعالم، قد زرت الكثير من البلدان، الحواس تعتاد، العين تقوم بالتسجيل فقط، ويتراكم الشعور بالديجا فو.

وذات ليلة لم يصمد جسمي.

هناك رمزية قوية في انكسارك في بلاد اختلقتها طوال حياتك.

بعد منتصف الليل، في زمن ما بعد الظهر... الظلام والضوء بالقدر عينه. في عتمة الغرفة أحاول أن أعلم إذا كان الوقت ليلاً أو نهارًا وأين جسمي. لا شعور بزمان ولا مكان. أحس نفسي خفيفًا، مسافة متر فوق السرير، لا شيء يوجعني، أهذه هي الجنة أم... وتلك المخلوقات، إما ممرضات إما ملائكة. تتكلمن لغة غير مفهومة - لغة الجنة أو اللغة الفنلندية؟ ليس لدي أي شعور بوجود جسدي، ولو لم يقلقني هذا قليلاً، لكان الأمر عظيمًا. ألفّ رأسي بصعوبة إلى اليسار وأرى القسطرة الوريدية التي تقطر في يدي. أفهم الآن، ليس في الجنة قسطرة وريدية. آخر ذكرياتي هي أنني أقود الدراجة التي أخذته بالإيجار، أفكر في بعض الأشياء، ثم أرى ضوءًا ساطعًا أمامي، أجد نفسي في الاتجاه المعاكس من الطريق، أنعطف بقوة لأرجع إلى مساري، ثم صوت المكبح، ثم... الغرفة.

أعود إلى رشدي تدريجيًا. تجيء الممرضة المناوبة إلى الغرفة دوريًا حاملة الحقنة والكلمة الوحيدة الإنجليزية بل الواضحة بما يكفي - "بينكيلر"! تقف في الباب للحظة، تعلن: "بينكيلر"، كأنه سيدخل رجل عظيم الشأن، تُخرج الهواء من الإبرة وتحقن الحقنة في مكان ما من جسمي الغائب. أحاول أن أشرح بلغتي الإنجليزية المكسورة أن لا شيء يوجعني. لكنها تهز رأسها

وتقول بلغتها الغريبة، بلغة "المومين" ، شيئا لا أفهمه.

الحزن يجعل العظام هشة...

تبقت لدي ذكريات شبه سينمائية وهم يقتادوني إلى غرفة العمليات. أرقد على نقالة المستشفى ومصابيح النيون الطويلة فوق رأسي تُخطط إطار اللقطات من شريط السينما الفارغ. أقول في نفسي: لو سارت النقالة بسرعة أربع وعشرين لقطة في ثانية، لحرّك هذا فيلمًا ما غير مرئي لعينيّ. الدهليز خالٍ يعيد رجع الصوت. نمرّ عبر طابق فيه مقهى صغير. أم لابسة ثوب المستشفى وثلاث طفلات، لعل الأب أوصلهن لرؤية الأم، يأكلن الغاتو ويشربن العصير. أتذكر كل لقطة بالحركة البطيئة. لعل شكلي يبدو رهيبًا، برجلي المرفوعة، والضمادة المتبللة بالدم، والقسطرة الوريدية. تتوقف البنات الثلاث عن الثرثرة، أسمع صوت الأشواك المتساقطة في الصحون، يدرن رؤوسهن إلي بينما أمر. أحاول الابتسام، ثلاث طفلات يرتدين بلوزات وردية اللون، الشفاطات، العصير، شفقتهن اليسيرة المختلطة بالفضولية والقليل من الخوف... تقول الأم شيئًا لهن، والبنات، بدون رضا ولكن بشكل مهذب، يدرن رؤوسهن عن النقالة الحاملة ذاك الشيء المضمد. أحفظ هذه اللقطة في ذاكرتي بينما يتغلب عليّ التخدير. لا يعرف المرء ما آخر ما يراه، قبل أن يتخطى عتبة الآخرة.

أفتح عيني قليلاً وأرى خيال ريتفا المشوّش قليلاً، وهي تبتهج حالما تلاحظ أنني أستيقظ. وقفت بجانب سريري ساعات. في زمن ما، في عام 1968، مكثتْ ببلغاريا لسبعة أيام. الأيام السبعة الأجمل في حياتي، كما تقول. كنتُ في العشرين – شابة، يسارية، وعاشقة. وتلك الأشياء الثلاثة لم تحدث لي بعد ذلك في آن واحد أبدًا – تقول ريتفا. لعلنا نبدو للأطباء منظرًا غريبًا. امرأة في الستين ورجل مقعد في الأربعين. الأمر المشترك بينهما هو سنة

واحدة - 1968. العام الذي كانت ريتفا فيه سعيدة، هو العام الذي ولدتُ فيه. بدون علاقة مرئية بين هذين الحدثين، سوى المكان الذي وقعا فيه.

الأمر الذي يُقلقني في هذه اللحظة هو تخمين رهيب. لا أستطيع رفع رأسي كي أرى. لذلك أحاول تحريك رجلي. ولا أقدر. لا أشعر بأي شيء في الجزء السفلي من جسمي. فجأة أتخيل أن هناك فراغ. وأحس كيف أعود إلى ذاك البياض الكثيف اللَّبَنِيِّ الذي خرجت منه قبل قليل. خرجت منه من جديد لكن السبب هذه المرة هو الألم القاطع. أفتح عيني بحدة. ريتفا إلى جانب رأسي من جديد، أخبرها أني أحس بألم، وهي تتصل بالممرضة "بينكيلر". أفهم تدريجيًا أن هذا الألم اللا يطاق يأتي من رجلي، يعني أنها في مكانها وحتى يمكنني تحريكها. توجعني رجلي، الحمد لله. إنها في مكانها وتوجعني.

ألازم الفراش بعد ذلك أسبوعًا أو أسبوعين، حيًا ومجبسًا في البيت، وأحس بالساعات والدقائق تدكّ بأقدامها جسدي. أُمضي صيف تلك السنة مثلما يتم إمضاء مدة العقوبة، دون أن أعرف ما الجريمة التي اقترفتها. لكن كل المحكومين يقولون نفس الشيء.

الكسر الثلاثي في الكاحل اليسرى، عملية جراحية، لوحتان معدنيتان، سبعة مسامير، ضلعان متصدعان في الجانب الأيسر. أشاهد السقف فوقي لساعات، فالسقف هو السماء الوحيدة للمريض الراقد، وأتذكر من جديد كل الأسقف التي رقدت تحتها. السقف المرتفع في برلين، والسقف المنخفض في طفولتي. وكوكبات من الذباب فيه. المصباح المتوهج العاري الملفوف بقطعة الجريدة، هذه الأباجورة الوحيدة.

أتذكر أوقات العصر اللانهائية، حيث كان السخاء يلفنا في ذاك قديم الزمان من طفولتنا، حين كنت كذلك راقدًا بعينين مفتوحتين أحدق إلى

الفوق، حتى تبدأ شقوق السقف ومطباته التي لا تكاد تُلاحظ، تتحول إلى جبال وبحار غريبة، تنقلني إلى البعيد.

بعد سنوات، ستتحول تلك الجبال والبحار بشكل سحري إلى أرداف النساء، وأفخاذهن، ونهودهن. كلما ازداد السطح بروزًا ونقصًا، ازدادت أعداد السفن والنساء اللاتي يختفين فيه.

وهكذا أتت نهاية رحلاتي... رجعت، محطم الجسم، إلى أتعس مكان في العالم. والسنوات المتعددة التي قضيتها في الفنادق والمطارات والمحطات، بقيت بعدها مفكرتان أو ثلاث تجمع ملاحظات السفر القصيرة. والآن حين أقلّبها ساهيًا، كي أقتل الوقت، أدرك الحقيقة جيدًا – الكآبة تغمر العالم ببطء... هناك شيء حدث في الطقس، ولا يريد الخريف أن يغادر، والآن كل فصل هو فصل الخريف. الخريف العالمي... السفر أيضا لا يعالج الحزن. ينبغي البحث عن شيء آخر.

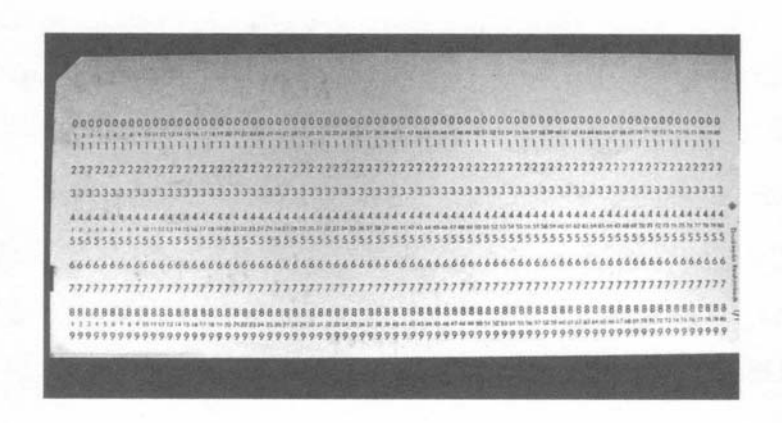
أتعس مكان في العالم... هو العالم.

الفصل الثامن

فيزياء جسيمات الحزن

المذكرات مكتوبة على بطاقات كرتون - بطاقات مثقبة من بداية فترة

الآلات الحاسوبية الإلكترونية، التي لا يستخدمها أحد منذ زمن.



كموم التردد

أحد أكثر الأشياء إثارةً للدهشة في فيزياء الجسيمات هو أهمية عملية الرصد وتأثيره في سلوك الجسيمات الأولية. حسب "تفسير كوبنهاجن" الذي ظهر في العشرينيات، لا يسلك النظام الكمي سلوك الجسيمات إلا إذا قمنا برصدها. أما في بقية الوقت، عندما لا نرصدها وهي غائبة عن عيوننا، فهي تمثل جزءًا من موجة شاردة الذهن، غير مبالية، لا نعرف ما يحدث فيها بالضبط. كل شيء فيها محتمل، مختلف ولا يمكن التنبؤ به. ولكن ما أن أحست الجسيمات بأننا نرصدها، حتى تبدأ تسلك سلوكًا منظمًا منطقيًا كما نتوقع.

إن العالم ليس العالم الذي نعرفه من الكتب المدرسية القديمة إلا لأننا نرصده. أو كما يكتب إيدليس، وويتراو وديكس في أواسط القرن العشرين: "كي يوجد الكون، ينبغي في مرحلة من مراحله وجوده، أن يظهر فيه رُصَّاد".

أنا أُرصد، إذن أنا موجود.

جيد، ولكن إذا لم يرصدني أحد، هل أنا موجود؟ أعيش وحيدًا، لا أحد يجيئني، لا أحد يتصل بي. ومن جانب آخر، ثمة دائمًا راصد كبير غير مرئي، ثمة دائما عين ينبغي ألا ننساها. "الشيخ" كما يسميه أينشتاين. لعل فيزياء الكم أو الميتافيزيقيا تقول لنا الشيء نفسه. إذا كنا موجودين، فيعني هذا أننا مرصودين. هناك شيء أو شخص يظل يتابعنا بعينيه طوال الوقت. الموت يأتي عندما يتوقف ذاك الشيء أو ذاك الشخص عن رصدنا، عندما يشيح بوجهه عنا.

العالم الذي يكمن وراء ظهرنا هو حساء الكم الغامض، يقول أحد علماء الفيزياء من جامعة ستانفورد – لو أدرت ظهرك، لجمد العالم في الواقعية. يعجبني هذا التعريف ولا أدير ظهري بشكل حاد أبدًا. أتذكر تلك المعلمة في الروضة التي كانت تهددني بصبّ الحساء على ظهري لو لم آكله كله. وقتها كنت سأفهم ماذا يعني واقعية الكم.

أكتب باسم ضمير المتكلم، كي أكون متأكدًا من أنني ما زلت حيًا.

أكتب باسم الغائب، حتى أتأكد من أنني لست إسقاط شخصيتي الخاصة فحسب، بل أنا ثلاثي الأبعاد ولدي جسم. أحيانًا ألقي بكأس وألاحظ بسرور أنه يسقط وينكسر. إذن أنا ما زلت موجودًا، ولوجودي تبعات.

إذا لم يرصدني أحد، ينبغي أن أرصد نفسي بنفسي، حتى لا أتحول إلى حساء الكم.

كي يكون العالم موجودًا، ينبغي أن يكون هناك من يفكر ويرصد العالم باستمرار. أو أن يفكر ويرصد ذاك الذي يفكر ويرصد العالم... عمل مجنون.

هل أستطيع أن أقوم بهذه النوبة الدائمة؟

فيزياء الجسيمات تردّ الاعتبار للصدفة والغموض. لذلك أحبها. بعكس أينشتاين، الذي يُرهبه الشيء نفسه، فيتذمر في رسائله: "إن النظرية تمنحنا الكثير، لكنها لا تقرّبنا من أسرار "الشيخ". أما بالنسبة لي، فأنا متأكد من أنه لا يلعب النرد". أما بالنسبة لي، مع ذلك، فأنا متأكد من أن "الشيخ" يحب أن يلعب النرد مثل شيوخنا الذين يحبون لعبة الطاولة وقت العصر.

وهنا ثمة ملاحظة. فيزياء الكم - لعلها خوفًا من إمكانية التحول إلى الميتافيزيقا بكاملها - تتجنب التوغل في سؤال "من يمكن أن يكون الراصد؟ من يمكن أن يتمتع بهذه الصفة؟ هل هنا لا نقصد إلا عين الرب؟ هل يمكن الافتراض أن عين البشر قادرة على أن تحفظ العالم كلية؟ وعين الحلزون، والقطة، والبنفسج؟ هل نأخذها بالحساب؟

طبعًا، ينبغي ألا ننسى أن فيزياء الكم يفسر الأمور على المستوى الجزئي. ولكن هل يمكن أن نكون متأكدين من أن الرب ليس جسيمًا. من المحتمل جدًا أن يكون هو البروتون، أو الإلكترون أو حتى البوزون. الرب بوزون. كلام جميل. كأنني أسمع آية تقول "الرب بيسون".

والأرجح أنه فوتون - فهو ثنائي الطبيعة مثل كل الكمات، وكتلته في السكون تساوي الصفر المطلق. لذلك يستطيع التحرك بسرعة الضوء. عندما نقول إن الرب ضوء فنحن لا ندرك حتى كم وصلنا إلى بواطن أرض فيزياء الكم. أو هو نيوترينو سرعته أكبر بقليل من سرعة الضوء، ويملك القدرة على التحولات غير المتوقعة. ما وصفه الفيزيائيون الإنجيليون القدماء مثل تجلي المسيح" هو تحول النيوترينو. على الرغم من أنني كنت أود أن يكون الرب نملة، أو سلحفاة، أو جينكو.

ما لم يتم روايته وما لم يتم حدوثه - لأنهما من نفس الصنف يملكان كل الفرص للحدوث وللرواية، ولديهما خيارات لا عد لها.

واحسرتاه، القصة مستقيمة وعليك دائمًا أن تقطع الفروع، أن تسدّ بالطوب كل الدهاليز الجانبية. القصة الكلاسيكية عبارة عن إلغاء الإمكانيات التي تُصيبك من كل جهة. وقبل أن تركز انتباهك إلى العالم تجده مملوءًا بأشكال ودهاليز متوازية. كل المخارج لا تتنعش إلا في أرض التردد والتراوح. وكانت فيزياء الكم المليئة بالغموض والتردد تبرهن على ذلك.

أحاول أن أترك مساحة لحدوث روايات أخرى، وتجويفات في التأريخ والحكاية، وممرات، وأصوات، وحجرات زائدة، وحكايات غير مغلقة، وكذلك أسرار لن نختلس النظر إليها... أما هنا حيث لم تتجنب الحكاية اقتراف الخطيئة، فليت كان التردد معنا.

سؤال من فيزياء كم القراءة

هل هناك من اشتغل بفيزياء الكم للأدب؟ إذا كان غياب الراصد في الأدب كذلك يفرض تراكيب متنوعة، فما هو الكرنفال الذي تحتفل به جسيمات الرواية؟ ماذا يحدث بين غلافيها عندما لا يقرؤها أحد؟ ها هي الأسئلة، التي يستحق التفكر بها.

تجارب

بناء على تلك التجربة المشهورة مع الإلكترون الذي يسلك سلوك موجة ويمر في آن واحد عبر فتحتين، يمكن القبول أنه من المحتمل أن نكون في مكانين مختلفين في آن واحد. ولكن، كما يلاحظ غاوستين في داخلي، لا يتعلق الموضوع هنا بإلكترونات وزنها 80 كيلوغرامًا وطولها متر وتسعون

سنتيمترًا. (لو كان هذا ممكنا، لبقي جدي في القريتين البلغارية والهنغارية، وربى كلا ابنيه، وعاش كلتا الحياتين...)

لحسن الحظ، فإن الأمور التي تشغل بالي لا وزن لها. الماضي، الحزن، والأدب - لا أهتم إلا بهذه الحيتان الثلاثة العديمة الوزن. لكن فيزياء الكم والعلوم الطبيعية قد ولّتها ظهرها. لو علم أرسطو أن هذا القسم الشكلي بين الفيزياء والميتافيزيقا سيؤدي إلى فصل كون المعرفة بشكل نهائي، لأحرق عمله بنفسه، أو لغيّر مكان الأجزاء فيه على الأقل.

نشرت قبل سنوات بأحد الأسماء المستعارة التي أستعملها رواية أستند فيها على المذهب الذري المؤسس على يدي ليوقبوس من مدينة ميليتوس وديموقريطوس من أبديرة. فقد تبيّن أنهما من اكتشف الكموم في القرن الخامس ما قبل الميلاد. كان ينبغي أن يمضي وقت طويل كي يُنسى كل شيء. كان يعجبني هذان العالِمان اللذان عاشا ما قبل سقراط، هذان الرائدان في مجال فيزياء الكم، اللذان يرسمان بشجاعة ورباطة الجأش عالمًا مصنوعًا من الذرات والخلاء فقط. خلاء لا حد له تسبح فيه ذرات لا عد لها. أردت أن أنقل قالب الذرية إلى الأدب، أن أفهم إذا كان لقاء ذرات الأدب الكلاسيكي المنفردة في وسعه إنتاج نسيج الرواية الجديد. رواية ذرية مصنوعة من بدايات سابحة في الخلاء...

تجربتي تلك كانت جدية، على الرغم من أنهم اتخذوها بصفتها مزاح خاص لفترة ما بعد الحداثة، اتخذوها في سياقها الاستعاري بدل السياق الفيزيائي. الفيزيائيون لا يقرؤون الروايات. الأمر الذي أثار خيبة أملي إلى حد كبير وجعلني أتوقف عن النشر لمدة عشر سنوات تقريبًا.

ها هو الموضوع الذي يشغل بالي الآن. هل العودة إلى الوراء عبر تذكر كل التفاصيل، وتشغيل كل الحواس، هل لديها القدرة على تأثير النقطة

الحرجة للانقلاب؟ هل تقدر على تشغيل آلة ما بحيث يتحرك الكون ويعود أدراجه إلى الوراء بكل آلاته؟ زد على ذلك، أن الكون على الحافة، إذن لا خلاص أمامه إلا العودة إلى الوراء. في هذه الساعة، دقيقةً دقيقةً، سيحدث ما حدث قبل ساعة. كل وقت اليوم يحتل مكانه وقت أمس، وأمس يحتل مكان أمس الأول، وهكذا أكثر فأكثر إلى الوراء، نبتعد عن الحافة ببطء وصرير. لا أدري إذا كنا نتدخل في الأيام الماضية المقبلة. علينا أن نعيش مرة أخرى اكتئابنا وإخفاقاتنا السابقة، بالإضافة إلى بعض دقائق السعادة فيما بينها. إنه أمر لا مفر منه...

... التعسف الجديد للموت. الذين عاشوا 80 عامًا حتى لحظة الانقلاب، سيعيشون 80 سنة زائدة إلى الوراء. الذين عاشوا مدة أقل، مثلاً 30، 40، أو 50 سنة، عليهم أن يكتفوا بنفس الفترة الزمنية. ولكن هنا يجدر بالذكر، أنهم يسيرون إلى شبابهم وطفولتهم بالذات. وفي نهاية حياتهم يزدادون سعادةً، وشبابًا، وحبًا. يمشون بخطوات أرجل الرُضَّع غير الثابتة وهم يتمايلون بأجسامهم، ناسين اللغة، هادلين، مقرقرين، حتى يأتي يوم رحيلهم. وهكذا أنا، الذي ولدت في الأول من يناير، عام 1968، أستطيع الموت في الأول من يناير، عام 1968 مرة أخرى. هذا ما أسميه الانسجام الكوني الكامل. أن تَموت في الساعة والدقيقة التي ولدتَ فيها، بعد أن عبرت بحياتك مرتين، من بدايتها إلى نهايتها وثم من جديد.

غ.غ.

1 يناير، عام 1968 ▯ 1 يناير، عام 1968

عاش سعيدًا على مدى 150 عامًا

(يمكن لكل واحد أن يكتب هنا اسمه وتأريخ ولادته)

يُزعم أن الحياة ظهرت على سطح الأرض منذ 3 مليار سنة. بهذه الآلة نحن نضمن 3 مليار سنة زائدة على الأقل. وإذا استطاع أحد أن يقدم أكثر من ذلك، فليتفضلْ.

تضغطنا جاذبية من نوع آخر، لم يتم وصفها في علم الفيزياء الكلاسيكي، ويجب التغلب عليها، إنها جاذبية الزمن. تأخر الجاذبية ذاك، الذي وصفه أينشتاين في عام 1915، لا يخدمني. في عام 1976، أكدت الإدارة الوطنية للملاحة الفضائية والفضاء (ناسا) أن الزمن في بيئة جاذبية الصفر في الفضاء فعلاً تتمهل قلي- ي - ي - يلاً، عندها انطلقت الحكاية، أن الناس في الفضاء لا يشيخون. كان من الممكن أن تستيقظ من جديد أسطورة الشباب الخالد. ربما كانت دزينة المسنات المليونيرات ينظرن إلى السماء كما لو كانت مصحة خالدة، ويحسبن مصارفهن للرحلة إلى هناك مع كلابهن المحبوبة، لأن ما...

... معنى أن تكون شابًا وكلبك كيس عظام؟

لقد وصلت تلك الأسطورة إلينا كذلك، أتذكرها إلى حد ما، كنت في الثامنة ولعلني لم أعطها اهتمامًا كبيرًا. في عام 2010 قاسوا عمليًا بمساعدة إنترفيرومتر انحراف الزمن. نعم، كان تأخر ذرة السيزيوم موجودًا، لكنه كان ضئيلاً يعادل مئة واحدة من الثانية لعدة مليارات سنة. وأولئك الآملين بأنهم سيبقوا في الشباب إلى الأبد، لعلهم لم يتمكنوا من رؤية هذه النتيجة الخامدة.

أنا لا أهدف إلى تأخير الزمن ببضع مئات من الثانية لمدة مليار سنة. أنا لا أملك العيش لميار سنة. ولا إلى تأخيره في الفضاء، الذي لا يجذبني قط (وأنا الذي أشعر بالغثيان حتى في الحافلة). أود استرجاع قطعة من الماضي، ليتر زمن سال هنا، في إطار حياة بشر تستغرق مدة قصيرة مُهينة.

تجارب جديدة

أمارس "رصدًا مركّزًا" عن قرب. أدركت مبكرًا نسبيًا، أنه كلما قصرت الفترة التي أرغب في إعادتها (مضاعفتها) بالتفاصيل، ازدادت الإمكانيات لذلك. تخلّيت عن فكرة إعادة كل طفولتي. حاولت لفترة استرجاع سنة معينة. أردت تذكر هذه السنة بالتفاصيل، وإعادة إنشائها شخصيًا وتأريخيًا، أردت ألا أتغيب عن شيء منها.

اخترت سنة ولادتي، لأن عالم المولود أنظفُ وأكثرُ تحديدًا، إذ أنه بهذا المعنى، يمكن إعادته بسهولة وبأقل أصوات جانبية. ها هي سنة 1968 الجديدة الآن. لحسن الحظ أني ولدت في أيامها الأولى، بحيث يمكن أن تمضي الحكايتان بالتوازي حكايتي الشخصية الصغيرة المغرقة بالبول، وحكايتها العظيمة (والمغرقة بالبول أيضًا). الأقمطة المبللة، برد يناير، بشرة أمي الدافئة، الربيع الأول في الحي اللاتيني، المغص في منتصف الليل، الصيف في براغ، مهرجان الشباب في صوفيا، قوات حلف وارسو في التشيك، ظهور أول سن... كل شيء كان مهمًا. عدة شهور بعد ذلك، كنت أستلقي على الأرضية، منهكًا، مقتولاً من عشوائية العالم. أدركت أن إنشاء عام في أبعاده الحقيقية، بكل ما فيه من الروائح، والأصوات، والقطط، والأمطار والأحداث الصحفية، أدركت أنه شيء يفوق طاقتي، كما لو بنيته بأعواد ثقاب. خزنت مسودة هذه التجربة غير الناجحة.

كان عليّ أن أحدد حقل الاختبار. اخترت شهرًا من سنة أخرى، أغسطس عام 1986، أنا في الثامنة عشرة، إنه شهري الأخير من الحرية، وتنتظرني في نهايته الخدمة الإلزامية. شهر تودع كل شيء فيه لمدة سنتين، ولا تعرف أنك في الحقيقة تودع كل شيء إلى الأبد. تدع شعرك يطول، تحاول أن تصل إلى تنال من فتاتك ما تشتهيه. وفي آخر الليل، بينما ينام والداك، تخرج مع صديق في شوارع المدينة الخالية، تذهب معه إلى النهر، تشاهدان الشبابيك المظلمة للبنايات الخرسانية، وتستعدان لتصرخا مثل هولدن كولفيلد" ناموا في اطمئنان، يا أغبياء"، أو كما كانت هذه العبارة ...

... لكنكما لم تقوما بذلك. في نهاية الشهر تذهب إلى أبعد صالون حلاقة، كي يحلقوا شعرك على الصفر. تشاهد كيف يسقط على الأرضية وتحاول ألا تبكي. تخرج من الصالون، لقد وجدت نفسك في عمر آخر، وأنت قلق، مذهول، ترتدي القبعة التي أخذتها معك، وتعود إلى البيت بأسرع طريقة ممكنة. بعد أيام عليك أن تلتحق بالجيش وتسافر إلى مدينة غريبة، عاري الرأس، وبحقيبة ملأتها بحاجات الجندي الغر، حسب ما نصّت عليه قائمة المجنّدين. أحفظ تلك القائمة في إحدى العلب الكرتونية.

هذا هو الشهر الذي كان عليّ أن أسترجعه، مع كل ما فيه من اللحظات والأحاسيس واهتزازاتها الهادئة. لم يكن من السهل. نعم، كان في هذا الشهر خوفٌ، لكنه كان خوفًا بألف شكل، ويبدو في بعضها مثل شجاعة راديكالية. نعم، كان في هذا الشهر حزنٌ، لكن ذراته تتحرك في العشوائية والفوضى (حالة مادة الحزن غازية)، إذ أنني لم أستطع إلا متابعة منحنياته، والدخان الذي يحترق حولي دون لهيب. كنت أشعل السجائر الأولى في حياتي، والآن أدرك أنني أفعل ذلك كي أعطي هذا الحزن جسمًا، جسمًا أزرق رماديًا فاتحًا، فانيًا. كنت أتذكر كل شيء بوضوح، لكنني لا أتمكن من العودة إلى جسمي

السابق. قدرتي السابقة على دخول الحكايات والأجساد المختلفة بسهولة شخص يدخل بيته تبدو الآن قدرة لا وصول إليها.

....

قائمة

الحاجيات الضرورية التي ينبغي أن يحملها المجنّد عند التحاقه بالثكنة

1. قميص طويل الأكمام – عدد 2
2. بنطلون طويل السيقان – عدد 2
3. بنطلون قصير السيقان – عدد 2
4. قميص داخلي – عدد 2
5. لفائف القماش للقدم (جوارب) ▯ عدد 2
6. منشفة للوجه – عدد 1
7. منديل جيب – عدد 3
8. ياقات بيضاء من القطن ▯ عدد 5
9. طقم حاجيات الحمام – عدد 2
10. فرشاة حلاقة – عدد 2
11. بكرة خيطان بيضاء – عدد 1
12. بكرة خيطان سوداء – عدد 1
13. إبر خياطة – عدد 5
14. دبوس أمان – عدد 5

15. أكياس من القماش (أو من النيلون) 30 20 X - عدد 3

16. طعام وماء ليوم واحد

....

إيحاءات

حدث عندما لم أتوقعه.

كان في آخر ساعات عصر شتائي، والثلج يذوب. حدث قبل أيام من توقفي عن الخروج من القبو مطلقًا. كنت أتمهل في سيري أكثر فأكثر، وأشاهد البيوت، وشوارع يوم الأحد الخالية، في يناير... أدركت لأول مرة بوضوح (بوضوح هواء يناير)، أن ما يبقى ليس اللحظات الاستثنائية، ولا الأحداث، وإنما هو ما لا يحدث. زمن مخلّص من إدعاء الاستثنائية. ذكريات أوقات العصر التي لم يحدث فيها شيء. لا شيء إلا الحياة في كمالها الكامل. الرائحة الرقيقة لدخان الخشب المحروق، القطرات، الشعور بالوحدة، السكون، صرير الثلج من تحت الأقدام، قلق الغسق الخفيف، ببطء وبغير رجعة.

الآن أعرف. لا أريد أن أعيش مرة أخرى ولا واحدًا من أحداث حياتي - لا حدث الولادة الأول ذلك، ولا الأخير، الذي أتوقعه، فكلاهما غير مريحين بنفس المقدار. بمقدار عدم راحة كل وصول وكل هجر. كما ولا أريد أن أعيش من جديد يومي الأول بالمدرسة، وجِماعي الأول الخجل مع فتاة، ولا التحاقي بالجيش، ولا شغلي الأول، ولا حفلة العرس المبهرجة تلك، ولا...، لن يسعدني أي شيء منها كان. أبدّلها كلها مع أكوام الصور الفوتوغرافية حولها، بوقت العصر وأنا جالس على السلالم الدافئة أمام

البيت، قمت لِتوي من نوم القيلولة، مستمعًا إلى طنين الذباب، حلمت مرة أخرى بتلك الفتاة التي لا تلتفت أبدًا. جدي ينقل الخرطوم في الحديقة وعبق الأزهار الصيفية المتأخرة الثقيل يطير إلى الأعلى. لا شيء حدث بشكل نهائي، لم يحدث لي شيء بعد. أمامي كل وقت العالم.

في الضئيل والتافه – هناك تختفي وتعتشّ الحياة. غريبة تلك الأشياء الباقية في النهاية، وهي الأخيرة التي تلمع قبل الظلام. إنها ليست الأشياء الأهم، ولا الأشياء... لا توجد حتى طريقة لتدوينها أو روايتها. تنفتح سماء الذكريات من أجل دقيقة اليوم الشتائي على حافة الغسق في مدينة نائية، حيث أنا في الثامنة عشرة، باقيًا بأعجوبة وحيدًا لدقائق، أقطع الساحة الضخمة للثكنة. هنا أفتح القوسين لمن لم يكن جنديًا قط: في الثكنة لا تبقى دقيقة فارغة، هكذا يُنظم كل شيء. فالجندي الحر شيطان حي، هكذا يقولون. حدث مرة أن قصصت العشب في ساحة الثكنة بمجز الأظافر طوال اليوم – هكذا أُمرتُ. حدث مرة أن نقلتُ الأحجار من كوم إلى كوم آخر. وكان هذا قبل الظهر. أما بعد الظهر، فحملت الأحجار إلى مكانها السابق. في البداية لا تدري، معتقدًا أن العالم قد جن، وأن هذا لا وجود له حتى في كتب كافكا. لكن الرواد في الجيش لا يقرؤون كافكا، ولا الرقباء كذلك. أتيتَ إلى الخدمة الإلزامية مباشرة من الأدب، وتحمل بروست سرًا في كيسك المخصص لقناع الغاز. يا لك، يا بروست، هرول هنا! انبطح ! عشرون تمرين الضغط!

تلك اللحظة، التي بقيت فيها وحيدًا في الساحة الضخمة، تحت سماء خالية، وسط الهواء البارد المشبع برائحة الشتاء الأولى ودخان الخشب والفحم المتسلل من القرية القريبة، رائحة الغسق والهواجس، لأول مرة وحيدًا، لأول مرة في مكان آخر، خوف بارد خفيف، غيوم باردة. وكان هذا الجمع بين القنوط والهواجس (السنة في الثكنة بدأت لتوها) المختلطة بسماء

لانهائية غريبة وجميلة، جميلة بشكل غريب، هذا الجمع بالضبط يجعل تلك الدقيقة خالدة. كنت أعرف، أنه لا يمكن رواية كل ذلك.

طبعا، أستطيع أن أصف بضعة جِمال ذهبية أخرى من القافلة اللانهائية للدقائق، جِمال لا يتجاوز عددها ثلاثة أو أربعة، لكني سأحاول أن أروي عن جمل واحد فقط. فصل الصيف المتأخر، وأنا أقف أمام البيت، الغروب في تلك المناطق السهلية غروب لا نهاية له، أنا في السادسة، الأبقار تسير في الطريق، حيث أسمع أولاً أجراسها البطيئة، وصيحات البقّار، وخوار يُخبر صغارها بعودتها، وتجيب العجول بصراخ... إنه بكاء، أعرف هذا رغم سني المبكر. مثل البكاء الذي ينهمر مني في نهاية الأسبوع، عندما تأتي أمي من المدينة، كي تراني. لا يجتمع أبدًا الإنشراح والاتهام أحدهما مع الآخر إلى هذه الدرجة الكبيرة مثلما يجتمعان في هذا البكاء. كما كان في قرب بكاء العجول وبكاء الأطفال، بعد أن تركوهم ليوم أو أسبوع. كم أنا مشتاق إليكم، كم أنا غاضب منكم. لن أغفر لكنّ أبدًا، أيتها الأمهات... أيتها البقرات...

في هذه الدقيقة، وما زالت الذكرى واضحة حتى الآن، في هذه الدقيقة الكثيفة العبقة بأصوات، وأبقار، وروائح، وإذا بكل شيء فيها يختفي فجأة، وخط يقطع الأفق في أقصى مكانه النائي، فيتراجع الزمن وهناك، في قاع الغروب، ثمة غرفة بيضاء عالية الأسقف، لم أر مثلها قط، فيها ثريا وبيانو. وأمام البيانو تجلس فتاة في عمري، لا أرى منها إلا ظهرها. شعرها فاتح اللون، مربوط على شكل ذيل حصان، إنها تستعد للعزف، رافعة ذراعيها قليلاً، أرى مرفقيها الحادتين... وهذا كل شيء.

لم أشعر قط بهذا القدر من السعادة والكمال والاطمئنان كما شعرت به تلك الدقيقة وأنا جالس فوق الحجر الدافئ في نهاية صيفي السادس. على مدى السنين بدأت أعد فصول الشتاء، مثل أبي وجدي، فهما يعرفان أن على

المرء الرحيل عن هذا العالم في الشتاء، لأن الصيف فيه عمل كثير. لحظتها قطعت عهدًا أن أجد تلك الفتاة. كنت أبحث عنها في كل الأماكن، وكل السنين التي أعبرها. لم تلتفت فتاة واحدة بوجهها. أحس كيف أستسلم مع كر الأزمان. أعتاد. الشيخوخة هي الاعتياد.

هجرة الحزن

بعض الناس، ينفتح عندهم التقمص الوجداني بمفاتيح الألم، وأما أنا، فأفتحه أكثر بمفتاح الحزن.

فيزياء الحزن – وأولاً كانت الفيزياء الكلاسيكية-هي موضوع تجاربي على مدى عدة سنوات. الحزن مثل الغازات والأبخرة ليس له حجم وشكل ثابت، وهو يملأ شكل الإناء وحجمه، أو أي فراغ يتاح له. هل الحزن يميل إلى الغازات النبيلة؟ لعل الجواب هو "لا"، مهما جذبنا الاسم. فالغازات النبيلة هي متجانسة خاملة أحادية الذرة، بالإضافة إلى أنه لا لون ولا رائحة لها. لا، الحزن ليس هيليوم، كريبتون، أرغون، زينون، رادون... له رائحة ولون. الحزن نوع من "غاز حربائي" يغيّر كل ألوان وروائح العالم، كما يمكن للألوان والروائح المختلفة أن تحرّكه بسهولة.

المهم هنا هو أن مجال جاذبية الحزن يتميز بقوة ضئيلة قياسًا على الغازات. وهذا يعني أن الجبهات الهوائية، والأعاصير والأعاصير المعاكسة التي تحوم حولنا، كلها مشكّلة من الحزن. إن هجرة هذه الجبهات والأعاصير، وانتقالها من مكان إلى آخر، هي حقيقة مدهشة. غريب هذا العمى الذي نتجاهل به هذه الحقيقة. أحيانًا يهاجمني حزن لا يجب أن يكون حزني. حزن من شمال أفريقيا مثلاً. حزن غريب، خاص، بهتت ألوانه من الشمس، حزن أصفر

يحمل ذرات الرمل، مثل ذاك المطر الأصفر الذي كان يسقط السنة الماضية ويترك بقعًا عكرة على زجاج النوافذ. أستطيع أن أرسم خريطة هجرة الأحزان. بعض المناطق حزينة في قرن، وبعضها الأخرى في قرن آخر.

إنّ النجاح الوحيد الذي وجدته في تجاربي هو أنني، لفترة ضئيلة من الزمن، تمكنت من أن أجذب غيمة حزن ضلّت الطريق في وقت عصر عابر من أوقات عصري أو أوقات عصر غريب، أن أمضي وراءها وأغرق في نيكوتينها. مثل المدخّن الذي سيشم أبدًا أثر الدخان، ولو عاش سنوات دون السجائر.

كموم الشيخوخة

لا أتكلم عن الشيخوخة. وإنما عن العلامات الأولى. ليس عن الليل، بل عن الغسق. عن غزواتها التي لا تُردع واستسلام القلاع الأولى أمامها.

مرة، وكانت آية في الثالثة، عادت من الروضة باكية. قال لها ولد إن الأباء سيشيخون. الأباء سيشيخون - قالت باكية. ونظرت إليّ نظرة المتوقع أن أرفض. لم أستطع أن أخترع إجابة، إني بطيء جدًا عندما ينبغي أن أكذب، فنحبت من جديد نحيبًا أكثر يأسًا.

ثمة نوع آخر من النحو، نحو الشيخوخة.

الطفولة والشباب مليئان بأفعال. لا تستطيع البقاء في مكان واحد. كل شيء فيك ينمو، يتدفق، يتطور. ثم تتحول الأفعال تدريجيًا إلى أسماء الكهولة. أطفال، سيارات، شغل، عائلة - الأمور الجوهرية للأسماء.

أما الشيخوخة فهي اسم صفة. ندخل صفات الشيخوخة - بطيئون بلا ضفاف، ضبابيون، باردون أو شفافون مثل زجاج.

ثمة رياضيات أيضًا (رياضيات الشيخوخة)، نظرية المجموعات البسيطة.

على مدى السنين نغيّر تناسبات العالم. يزداد الأشبّ منّا عددًا، ويقل الأكبر منّا عددًا بشكل مخيف.

الشيخوخة تتطلب نوعًا من الشجاعة. أو من التواضع.

في الحادية عشرة فتحت مفكرة سرية، كي أدون فيه العلامات الأولى للشيخوخة والموت. "الموت والأطفال" هو موضوع يستخفّون به استخفافًا باطلاً، فلم أكن قط قريبًا منه إلى هذا الحد الكبير كما كنت تلك الأيام. بمرور السنين ابتعدنا بعضنا عن البعض، على الرغم من أنني دائمًا أتابعه بعيني، وطبعًا يتابعني هو كذلك بعينيه. أشياء من مختلف السنوات تتنغش عشوائيًا بهذه العلبة الكرتونية. ها هي:

فحص القلب. عاجلاً أم آجلاً كل مرء يستلقي هنا ▯ تقول الممرضة بهدوء بينما تلصق بكل جسمي أسلاكًا وأقطابًا كهربائية. الأصوات، التي لأول مرة أسمعها مكبّرة من الجهاز، هي أصوات مكروهة. الاكتشاف أن القلب ضفدع بعدما تسمع نقيقه. سيأتيني الموت مثل لقلق، كتبتُ عند خروج المستشفى.

(العمر 41 عامًا)

أَشيخُ... أشيخُ...

سأجعل نهايات بنطلوني ملفوفة.

أحب هذين البيتين من إحدى قصائد إيليوت وأخاف منها. صفير الشيخوخة الخفيف، الذي في الحقيقة لا يستطيع أن يخبّئ أي شيء. شيخوخة مهانة إلى هذه الدرجة من التواضع، إلى هذه الدرجة من غياب البطولة، تمضي بنهايات ساقي البنطلون الملفوفة المخبّأة جلدًا أبيض متراخيًا، عليه أوردة زرقاء خائنة. الكاحلان فقط.

منظر كاحلي الأيسر رهيب، إنه محطم ومخيّط، وعلى مدى السنين تشتد آثار الجروح عمقًا.

(العمر 53 عامًا)

اليوم، أمام المرآة لاحظت أن نصف وجهي الأيسر يشيخ أسرع من الأيمن. لم أحلق ذقني منذ أيام (كما كان أبي يقول: لا أحد أحلق من أجله ذقني). وأرى واضحًا أن النصف الأيسر من ذقني شاب بكامله تقريبًا، بينما في النصف الأيمن لا أرى إلا بضعة شعرات بيضاء. إلى جانب العين اليسرى التي بدأت تنغلق في طرفها الخارجي، عضلات الجفن ليست قوية كما كانت، وإذا أمعنت النظر وقتًا طويلاً، أحس بعدة رجفات لاإرادية خائنة. هل يا ترى يمكن رؤية الفرق نفسه في جسمي؟ أعاينه بتأنٍ وكأنه لا فرق مرئي بين نصفيه. لكن هذا إذا لم نأخذ بالحساب كاحلاً أيسر مكسور ومتورم، يختلف عن الأيمن اختلافًا كبيرًا، وكذلك كفي اليسرى المكسورة. والأذن التي تضعف سماعًا، طبعا، الأذن اليسرى.

حتى أنني لا أشيخ باتزان.

(العمر 49 عامًا)

يقولون إنه مع الشيخوخة، يزداد أهلنا من الموتى كلامًا معنا. نفقد نغمات العالم، كي نستطيع أن نسمع بشكل أوضح نغمات أخرى وأصوات أخرى. لكنني حتى الآن لا أسمع سوى صخب.

(العمر 38 عامًا)

صفِ الطنين في أذنك، يسألني صديقي الطبيب.

لا أدري... ليس سهلاً...

قل يا رجل... أنت كاتب، أليس كذلك؟

لكني الأكثر ترددًا بين الكتاب (مع أنني أتردد في ذلك أيضًا)...

هل يشبه هذا الطنين ضجيج البحر؟ يحاول الطبيب مساعدتي.

نعم، يمكنك قول ذلك، لكن البحر أحيانًا هائج. أسمعه مثل اضطراب الأمواج، وأحيانًا أخرى أسمعه مثل ريح في غابة نوفمبر المتأخرة، أريد القول إن أوراق الأشجار جافة وبعضها قد تساقطت، ويؤثّر هذا في تردد الضجيج. في بعض الأحيان، عندما يكون التردد عاليًا، يشبه صوت جهاز الطرد المركزي للغسالة وأسمعه مسافة طابقين فوق رأسي، وهو عواء خفيف... وفي الأحيان الأخرى هو موووووو، لكن العجل صغير ومبحوح الصوت.

وبينما أعدّ أنواع الأصوات، يزداد الارتباك على وجه طبيبي بدلاً من أن ينجلي. ماذا أفعل؟ فالأمور ليست دائمًا بسيطة وذات معنى واحد. مرة كدت أتشاجر مع إحدى المُمرضات التي طلبت مني أن أصف لون بولي. هل لونه مثل لون الجعة؟ سألتني. اللعنة، هناك تنوع كبير في ألوان الجعة فاتحة اللون،

وغامقة اللون، وحمراء، وبيضاء، وحية، وبدون الكحول فيها... لا يمكن أن أتغاضى عن أي منها...

لا يعجبني الناس عديمي التمييز.

(العمر 29 عامًا)

يوجعني هنا، في اليسار، في الأسفل، لعلها الزائدة الدودية.

كفّ عن التشخيص من فضلك، الزائدة الدودية في اليمين. لا شيء يمكن أن يوجعك في اليسار.

كيف هكذا؟

هكذا. لا شيء في اليسار.

ولكن هذا اللاشيء هو بالضبط ما يوجعني.

(العمر 64 عامًا)

الأمل هو أنك إذا بدأت تروي قصة حياتك في الاتجاه المعاكس، عائدًا في الطريق إلى الطفولة، سيقع تأثير ما وتخدع اتجاه الزمن...

احتمال مضحك. يقرر شخص ما التوقف عن التدخين عن طريق التنويم المغناطيسي التراجعي. يبدأ في الرجوع إلى الوراء، إلى ما قبل التدخين، كي يوقظ ذاكرة رئتيه الصافيتين. كان علاجه بهذا النوع من التنويم ناجحًا جدًا، وقد رجع إلى فترة زمنية بعيدة إلى درجة، أنه لم يتوقف عن التدخين فحسب، بل وبدأ يبلل فراشه، ويعجز عن لفظ صوت "ر".

(العمر 43 عامًا)

في "كتابات تحت الوسادة" لسي شوناغون، نجد قائمتين – أشياء تثير الحزن، وأشياء تطرد الحزن. وضمن الأشياء التي تطرد الحزن في بداية القرن الحادي عشر أي عصر "هيان" ، هي القصص القديمة والثرثرة الحلوة للأطفال في الثالثة أو الرابعة. أنسخها عدة مرات: القصص القديمة والثرثرة الحلوة للأطفال في الثالثة أو الرابعة، القصص القديمة والثرثرة الحلوة...

(العمر 990 عامًا)

أتذكر بوضوح كيف كنا نقرأ في ذاك الوقت. النشوة العالية لتلك القراءة في الشباب. لم تكن قراءة، بل رَمحًا وقمصًا في حقول الكتاب. كنا نبحث عن حصان الحوادث السريع، الخطاب المباشر، جمل قصيرة مفتولة العضلات. نكره تمهّل وإبطاء الحل، ووصف الطبيعة، فمن يحتاج إليها...

والآن أشعر بحاجة إلى التوقف، كشيخ يلهث بينما يتسلق منحدر كان يعتليه من قبل بثلاثة قفزات. متع التمهل المختفية. أحب أن أقف طويلاً على مثل هذه الجملة: "كان صباحًا جميلاً من مايو، وكانت الطيور تغني، ويلمع النداء تحت أشعة الشمس الناعمة..."

(العمر 69 عامًا)

ثرثرتنا ليل نهار طوال الحياة كأن لها هدف وحيد لا ننطقه مباشرة أبدًا. أن نخدع الموت، أن نرشده إلى الاتجاه الخاطئ، أن نتحايل عليه وننعطف

بشدة في اللحظة الأخيرة. لكن الموت لا يتأثر بالكلمات. على الأرجح أنه أطرش (مثلي). ومن هنا تأتي عدالته العليا.

(العمر 85 عامًا)

الأعوام نهر يجري باستمرار

يجرف الطفولة ويختطف الشباب

الأعوام طيور تهاجر إلى الجنوب

ولكنها لن تعود...

(العمر 9 سنوات)

شخنا قبل أن نكبر...

(العمر 35 عامًا)

بدأ يسافر، في الحقيقة بدأ يهرب من الشيخوخة، ولكن من سخرية القدر أن كانت كل علامات الشيخوخة تظهر في تلك المناطق نفسها.

ذات صباح في فندق يوناني، رأى جسمه في الحمام الكبير المتعدد المرايا. لم يتفقد نفسه عن هذا القرب الكبير قط. كان جسده عادي سليم جيد. باستثناء يده المكسورة في الجبس الذي بدأ يتآكل. ذاك الصباح لاحظ أولى علامات الشيخوخة. كانت شاحبة لكن واضحة. لقد ظهرت قبل سنوات، كيف لم يلاحظها حتى الآن؟ قال في نفسه، إنه لن ينسى هذا اليوم. لن

ينسى الفندق في مدينة سالونيك. كان جسمه الأبيض اللين قد بدأ يرتخي، وأصبحت بشرته رقيقة وشفافة ذات عروق رقيقة زرقاء. وقال في نفسه "إنها الشيخوخة"، كما يقول من قبل "إنه الحب". أحيانًا يشيخ المرء هكذا على مدى دقائق، ذات صباح، في فندق غريب. بعدها استمر يراقب جسمه في مرايا الفنادق حيث يتربص به الموت.

(العمر 34 عامًا)

جدي لم يكن لديه وقت كي يلاحظ أنه يشيخ. كان لديه عمل كثير...

(العمر 27 عامًا)

حضرت جنازة أحد الكتاب. عندما كان على قيد الحياة، كان يعاني من التهاب الأنف التحسسي. والآن يرقد في كفنه، وتطمر الأزهار جثمانه، وكأنه سيعطس في أية لحظة. وسحلبية تدس مِيسَمها في أنفه. لكن يبدو أنه قد شفي. لاحظت، وأعتقد أن الآخرين لاحظوا كذلك، النساء المسنّات المجهولات المتجللات بالحزن في آخر رواق العزاء. كنّ ذوات شعر أزرق ويحملن زهور أقحوان. عشيقاته السابقات. المرحوم كان يحب النساء. ها هن يأخذن مكانهن تحت الشمس. كن غير مرئيات طوال الحياة، محاربات قديمات في حرب العشق السري. من جيش المحاربين مجهولي الهوية، خلافًا لزوجته الشرعية وعشيقته الرسمية. في النهاية كانت الشيخوخة قد سوّت بينهن كلهن.

(العمر 50 عامًا)

ليلى ذات الرداء الأحمر، والشيخوخة

إن هذه الحكاية يمكن روايتها هكذا أيضًا:

ذهبت ليلى إلى جدتها وبدأت تسأل:

ماذا أصاب أذنيك حتى طالتا (وارتختا) إلى هذا الحد الكبير، يا جدتي؟

وكانت جدتها تصمت.

يا إلهي! ماذا أصاب عينيك، لقد كبرتا (وابيضّتا)؟

والجدة لم تقل شيئًا.

ما هذا الفم الكبير (والمتجعد) يا جدتي؟

وبدأت الجدة تبكي بصوت خافت مخنوق.

آه، كم كانت ليلى الصغيرة قاسية. جدتها، وهي في هذه المرة جدتها فعلاً وليست الذئب، عدّلت نظاراتها، مسحت دموعها الخائنة، وأجابتها إجابة منتفضة تحتوي على كل الأسئلة حتى الآن: إنها الشيخوخة، يا صغيرتي ليلى.

وضحكت ضحكة مرعبة بفمها الأدرد.

(العمر 60 عامًا)

الفندق القديم قرب محطة القطار في مدينة لايبزيغ، المكتظ بطلاب الثانوية العامة، الذين جاؤوا لزيارة معرض الكتاب. المصعد، الذي يقف بصرير في طابقي، انفتاح بابه والضوء الساطع من داخله (المصباح في طابق غرفتي لا تضيء). مجموعة من طالبات الثانوية العامة، ضاحكات، جميلات، بنات من نسل لوليتا، دون أن يقرأن لوليتا.

- ستذهب إلى الأعلى؟ يسألنني ويضحكن.

- سأذهب إلى الأسفل، أرد بصوت خافت. صدحت إجابتي بشكل تراجيدي كوميدي، إلى درجة أدت إلى انفجار الضحك من جديد. على مدى أربع ثوان طويلة، قبل إغلاق الباب، الذي يفصلني عن هذه المجموعة الجميلة إلى الأبد، على مدى أربع ثوان شاركتهن نفس الطابق. إنه صمت حائر جميل، قُدّم لي هديةً، صمت أخفيه في مفكرتي ببخل.

(العمر 51 عامًا)

تكرار الحياة هذا... تكرار كريه، قاتل، متعب، لزج، بل هو أحيانًا رائع لا مفر منه.

(العمر 65,103,930 عامًا)

بينما أصعد تل هذه المدينة، مشبعًا بألوان وروائح، أحس كيف تخونني قواي، ويتلين جسمي، وترتجف عضلات فخذي بخيانة (هل هذا يُلاحظ تحت بنطلوني؟). لا أريد الاعتراف بهزيمتي، وأتظاهر بأنني أقف كي أتفقد عن قرب شجيرة عليق تحترق باللون الأحمر. عندها أرى رجلاً كهلاً، هل قلتُ "كهلاً"؟، في الحقيقة هو في عمري، يحتضن امرأة شابة لابسة فستانًا صيفيًا بريئًا. وهو يرتدي قميصًا جميلاً باللون الأزرق الفاتح، فالشيخوخة تراكم الملابس، لكن الخريف قد حل والرجل يسكنه، لكن المرأة شابة وما زالت تسكن الصيف. لقاؤهما لقاء فصلين. المرأة تمد يدها بسخاء من فصلها، والرجل يقف بغير ثبات على حافة الفصل الآخر. إنه توازن صعب، لا يمكن استمراره إلا لوقت قصير، شهر أو شهرين. لو رأيت هذا المشهد

قبل سنوات، لضحكت عليه، لكني أفهم هذا الرجل الآن، وله نصيب من بعض ومضات حسدي.

كنت أراقبهما، أما النهار الذي يميل إلى نهايته، فيقدم لي بلطف استعارة غروبه البالية. أراقبهما بقليل من الاحتشام، ثم أدير ظهري وأنطلق ببطء إلى أسفل التل، ناسيًا أنني قبل قليل أردت شرب القهوة على قمته.

أنزل وأفكر في كل المدن الأوربية الصغيرة، راقدة مثل فروخ حول مثل هذا التل-القلعة. تلال غراتس، ليوبليانا، زغرب، سالونيك، التلال السبعة في روما، التي دائمًا أراها كما لو كانت نهد تلك الذئبة، وكأنها تستلقي على ظهرها، تلال مثل نهد الذئبة.

أرى نفسي أعدو إليها، دائمًا عند غروب الشمس، في مختلف الأعمار.

أتذكر كيف أسرع لألتقط غروب الشمس في ليشبونة، راكضًا في الأزقة الشديدة الانحدار لتل ساو جورجو، أصل إليه بآخر الجهود و«فجأة أسدل الليل أستاره» كما يكتب ذاك الشاعر. تظلم الدنيا في عيني، أسقط، وعندما أعود إلى وعيي، أرى فوق رأسي ثلاث مسنات وراهبة ذات وجه صارم. لم أكن فاقد الوعي طويلاً، لأن المحيط ما زال يلمع تحت آخر أشعة الشمس. أستمر أرقد لحظات بعينين مغبشتين مثل لاعب الماراثون لغروب الشمس، الذي خر أرضًا قبل أن يفيد بالخبر... ولكن لا خبر لدي. أنا أشيخ.

(العمر 58 عامًا)

الحيوانات تأكل الزمن، تلحسه مثلما تلحس قطع الملح الكبيرة، ترعاه مثلما يرعى الحمار سيقان الأعشاب، تمتص ثماره مثل الدبور... الحمار من القرن العشرين، والحمار من القرن الثامن عشر، وذاك من القرن الثالث

عشر، لا يختلف أحدهم عن الآخر في أي شيء كان. هل الشيء نفسه عند البشر؟ لا. يمكنني أن أعرف وجهًا من عام 1985، أن أميزه بين وجوه السبعينيات والتسعينيات، فضلاً عن القرون السابقة.

(العمر 793 عامًا)

"آية"، في الثالثة والنصف، ترسم لي بورتريه بقلم. تقدمه لي، تنظر إليّ مرة أخرى، يخطر لها شيء وتأخذ من جديد الورقة بسرعة. نسيت أن أرسم الخطوط على جبينك، تقول.

وهكذا أيضا نشيخ.

(العمر 42 عامًا)

التيلوميرات تقصر، وتموت الخلايا كل ثانية... الحقيقة أن العلم ما زال يبحث عن كيفية الشيخوخة... أهم الخلايا وهي خلايا الدماغ لا تتجدد أبدًا... أنا مقبرة متحركة. ربما لذلك أتجول مقابر كل مدينة بهذا التفاني... ثمة انسجام في جمع موتك الخاص الجاري كل لحظة، وموت العالم.

(العمر 66 عامًا)

جدتي، لن أموت، أليس كذلك؟

(العمر 3 سنوات)

آخر مرة، عندما عدت إلى مدينة ت.، لاحظت أشياء غريبة. أعادوا بناء تمثال الساحة من سنة 1980. يمكنني أن أحلف بأنه لم يكن موجودًا قبل أسبوع. أتذكره جيدًا. تمثال رجل يلبس ثوب جرانيت، يشبه عباءة راهب أو معطفًا أو بردة ملك. إنه رجل ذو وجه دون أي علامات مميزة. وفي كل تأريخ مهم لبلادنا، لا أعرف كيف، لكنه كان يتخذ ملامح وجه البطل المناسب، الذي نحتفل بذكراه. في 19 فبراير يتحول إلى البطل الوطني ليفسكي، في الثاني من يونيو إلى الشاعر والبطل بوتيف. كذلك يتحول إلى ملك بلغاري، غالبًا ما كان الملك بوريس، أحيانًا يصبح الراهب بايسي من شبه الجزيرة آثوس، وأحيانًا أخرى - قائد البارتيزان. ولكن في أغلب الأحيان يكون غيورغي ديميتروف وشيوعيين (محليين) آخرين. إنه التمثال العمومي، الذي كان لديه معطف، وناصية وجبين عريض، أي تلك الأشياء الثلاثة وهي الشروط الدنيا لأي بطل ذاك الزمن. ألاحظ أنهم نظفوه الآن ووضعوا في أساسه إكليل قرنفل مع شريطة حمراء. كذلك لاحظت أن الصحف تتأخر يومًا واحدًا، وأن الباعة عابسون كما كانوا في الماضي، لا يوجد إنترنت، وأما في المحلات، فلا يبيعون إلا نوعين من السلامي وسجق فيينا.

كل ذلك، ناهيك عن تجاربي الفاشلة مع جسيمات الماضي، كل ذلك زرع فيّ شكًا حاولتُ إنهاكه عن طريق تحويله إلى حكاية خيالية.

فتح عينيه وساوره شعور غامض بأنه يستيقظ في حلم آخر. أيمكن أن يكون تقمصه الوجداني، الذي كان قد تلاشى في السنوات العشرين الأخيرة، يستيقظ من جديد؟ يسمع جوقة آلات النفخ المدرسية في الخارج كما كانت في الماضي، يمكنه أن يحلف بأنه يسمع نفس الآلات الموسيقية التي يتذكرها منذ أيام المدرسة. كان هو نفسه يعزف على البوق آنذاك، واقفًا في

الصف الأخير إلى جانب "ناسكو السمين أبو الحلاو"، كما كان لقبه والذي يعزف على الصنوج. كان "السمين" دائمًا يتأخر جزء من الثانية عن الإيقاع، الأمر الذي لا يفهمه الحضور في الخشبة، لكنه يجعل معلمنا في الموسيقى الرفيق برانيكوف كتلة من القلق، وكل عازفي الجوقة يلتقطون هذا الوقف المقلق، هذه الفتحة في الموسيقى. رغم أنه في النهاية يصدح بالصنج، وكان تنفس الصعداء الجماعي يضيف صوتًا زائدًا إلى المارش. لكن هذا كان منذ سنوات عديدة...

الآن من جديد تدوي الموسيقى بكل آلاتها. يبدو أنه في النهاية تمكن من تحقيق فكرته – أن يعيد جزءًا من الماضي، قطعة منه فقط، أن يدخل هذا الماضي، وألا يخرج منه أبدًا. جسمك لا يستطيع الخروج من الذكرى فتبقى في الطفولة إلى الأبد. وهذه رحمة إلى حد ما.

ولعله يجن، لعل كل ذلك في رأسه. قام وذهب ببطء إلى الشباك. وقف قليلاً، قبل أن يشد الستارة البالية، ثم سحبها بشدة. كان التلاميذ فعلاً يسيرون في الخارج بنفس البدلات الرسمية كما كانوا منذ 50 سنة، ويقف حولهم نساء ورجال لابسين بدلات ومعاطف رمادية طويلة. كان طلاب الجوقة يسيرون، وأما الشمس فتنثر أضواءها على آلات النفخ المنظفة من قبل حتى اللمعان بمعجون بوتسينغ. كم مضى من وقت لم يتذكر هذا البوتسينغ. ثم إلى الأمام تقع خشبة. لبس بسرعة ونزل. كان الجميع حقيقيين، ثلاثي الأبعاد، أحياء، الرجال حالقي الشعر، النساء مجعدات الشعر، وتفوح من الكل رائحة حادة لعطر رخيص، رائحة تفاح أخضر، وصابون "إيديال".

لعلهم يصورون فيلمًا، كيف صدق ذلك؟! الآن سيرى حوله كل أجهزة السينما: الشاحنات والمحولات الكهربائية، مصابيح الكشافة، الكاميرات، الديكورات... تلفت بانتباه. جعلوا كل شيء يبدو حقيقيًا. ولكن من

مكان ما ينبغي أن يظهر مخرج ملتحٍ بمكبر الصوت، أن يصرخ «قف»، أن يعيد الجميع لتكرار المشهد وتصويره من جديد. على الرغم من أن المظاهرة تستمر، والموسيقى تعلو، وقد تحركت الجوقة إلى الأمام. كان على الخشبة ناس ضجرون يرتدون بدلات غامقة، يلوحون للمتظاهرين المتحمسين. عشرون طفلاً يلفون منادل زرقاء على أعناقهم، فصلوا عن الجمهور، وبمساعدة معلماتهم هرولوا إلى الخشبة بباقة قرنفل في أيديهم. أخذت البدلات الغامقة الزهور، مسحت رؤوس الأطفال واستمرّت تلوح. كان كل مكان مملوء بقرنفل، كما كان في الماضي، فكر في نفسه. كان القرنفل يلائم كل مناسبة – اجتماعات الحزب، المظاهرات، حفلات الأعراس، الجنازات. لكن ينبغي الانتباه في الجنازات حيث يجب أن يكون عدد القرنفل زوجيًا. يبدو أن مصممي الديكور اجتهدوا كثيرًا. من الواضح أنه مشروع بتمويل كبير، إنه الإنتاج المشترك الغبي التالي. لم يستطع منع نفسه، سأل رجلاً مسنًا لابسًا بدلة من طراز بدلات السبعينيات، مع شارة على صدره:

– عفوًا، ماذا يصورون؟

– ماذا يصورون؟ مَن يصور؟ تقلّب نظر الرجل فيما حوله خائفًا.

– أأأ... إنهم يصورون فيلمًا، صحيح؟ وإلا فلماذا هذا... الاستعراض؟

– اليومَ 9 سبتمبر. ألا تعرف؟

كان هذا هو التأريخ فعلاً، لكنه لم يعد اليوم الوطني منذ عشرين سنة على الأقل. اعتذر حائرًا وانسحب من الجمهور. لاحظ الآن أن ملابسه تختلف كثيرًا عن ملابس بقية الناس، إذ أنه ملفت للنظر بين المعاطف البنية الغامقة، والبدلات، والسترات المحبوكة، ومناديل المسنات، كأنه قادم من عالم آخر، عالم «عدائي» كما فكر في نفسه. كان بجاكيته القصير الأحمر، وبنطلونه الجينز

وحذائه الرياضي يبدو غريبًا بين من هم حوله. انعطف إلى اليمين، كان يريد أن يسير قليلاً في الشوارع الجانبية الخالية. كانت شمس سبتمبر الدافئة تضيء. وتفوح من مكان ما رائحة فلفل مشوي رقيقة. على بعض النوافذ تعلق أعلام. رجل أسمر نحيل في عمر غير واضح يبيع في إحدى الزوايا، بذر عباد الشمس في أقماع ورقية، كما كان في ذاك الزمن. إن القمع الورقي اختراع عبقري – يحب أن يقول أبوه، فالقمع يعطيك الشعور بحجم وطول، بينما يتسع في الحقيقة لكمية صغيرة، وهذا يجعله الشكل المثالي للبيع. اشترى قمعًا. كان مصنوعًا من جريدة قديمة، كما كان في الماضي، فكر في نفسه للمرة الثانية هذا اليوم. في زمن ما يمكن أن تصنع كل شيء من الجريدة من قبعة مستخدمة عند طلاء الجدران إلى أباجور. عامةً، يمكن أن يُصنع كل شيء من كل شيء، من كل مادة كانت في متناول اليد. القمع الذي اشتراه كان من الممكن أن يقرأ عليه بعض الكلمات، والأرقام، والنسب المئوية، التي بالتأكيد كانت منذ ذاك الزمن بحبر الماضي وخطه. إذا كان هذا إنتاجًا سينمائيًا، فهم فكروا في كل التفاصيل. غير أنه وحده لا ينسجم مع الديكور كله.

كان غارقًا في هذه الأفكار، فلم يلاحظ الشرطيين اللذين يتابعانه منذ لحظات، دون أن يحاولا إخفاء ذلك. وعندما ظهرا فجأة أمامه، خاف بشدة. ثم لاحظ أن بدلاتهم الرسمية لم تكن تمامًا مثل بدلات الشرطة الآن. هذه الأزياء المضحكة، والقبعات الكبيرة، ومشابك الحزم، لعلهم...، نعم، إنهم رجال الأمن من ذاك الزمن. هدأته هذه الفكرة، ففي الفيلم كل شيء يمكن أن يحدث بدون عواقب، فهي السينما. بطاقة هويتك؟ ليست معي. إنها في الفندق. منذ متى وأنت في المدينة؟ منذ يومين. ينبغي أن نعتقلك. لم تسجل في الإدارة المحلية التابعة لوزارة الداخلية، تجول في الشوارع بلباس جريء غير ملائم في اليوم الوطني، ولا تشترك في المظاهرة! دفعوه إلى سيارة لادا قديمة،

إلهي، من أين وجدوها؟! وانطلقوا إلى مكان ما. في السيارة بالتأكيد لم تكن كاميرات، واعتقد أنه في النهاية ستكون كل الأوراق مكشوفة. ابتسم غامزًا، سأل الشرطي المساعد، الجالس بجانب السائق: متى سيعرض الفيلم؟ تبادل الشرطيون النظرات، ثم التفت المساعد ولَكَمَ المعتقل على جبهته بين العينين.

كانت البناية التي أدخلوه فيها جديدة، لكنها ذات شكل بنايات فترة الاشتراكية في الثمانينيات، حيث كانت مواد البناء الأساسية هي المرمر الخشن، والخشب، وألواح الزجاج الضبابية. قليل من الدم يسيل من حاجبه الممزق. أمر رجلٌ خرج من البناية مرتديًا بدلة بإسعافه، ومن مكان ما ظهرت ممرضة فضمدته، أحضروا قطع ثلج، وأدخلوه في غرفة تحوي أريكة جلدية.

-اعذرني، فهم اجتهدوا أكثر مما يجب. لقد أنذرتهم ألا يمسّوا شعرة من رأسك. أحيانًا يسلكون سلوك الحيوانات، كما كانوا في ذاك الزمن. لا تقلْ لي إنك لا تتذكرني - أخرج الرجل من المكتب زجاجة ويسكي وكأسين كمن اعتاد هذا الفعل.

بدت له ملامح هذا الوجه معروفة، كان فيها شيء من النعومة، من الطفولة، كأنه الآن سيبكي.

-أهذا أنت، يا "أبو كيكة"؟

- نعم، أنا، يا " أيل سريع الركض".

إنه "أبو كيكة"، (اللعنة... لم أعرف، أنني داخل هذه الحكاية) أي زميلي من المدرسة، أحد أفراد شلتنا، دائمًا يتهكمون عليه، لم نطلق عليه لقبًا من أسماء الهنود الحمر. فكان يحمل قوس "تشينغاتشوك" وسهامه.

-يعني، أنت الذي اشترى كل مدينة ت.

-متى عدت، متى عرفت كل هذه الأقاويل؟ نعم، أمثل عدة سلطات أنا رئيس البلدية، وأمين الحزب، ورئيس الشرطة.

-ولماذا اعتقلتني؟

-أووو... لدي أسباب كافية. ولكني قبل كل شيء كنت أريد لقياك، إنه أمر مخجل أن تأتي إلى المدينة ولا تتصل بي... من أجل ذلك الزمن الجميل. استأجرتَ بيتًا كي تكتب، ويا لها من صدفة، فإنه البيت نفسه الذي سكنتموه من قبل. يسعدني أنك لم تنس تلك السنوات.

-ما هذا السيرك في المدينة، هل تصور فيلمًا؟ هل أصبحت مخرجًا؟

- لا، الأمر أكثر جدية. بدأت مشروعًا. باختصار، أعيد الزمن 30 سنة إلى الوراء. فلم يتغير شيء هنا على أية حال. أنا أنشئ أكبر متحف في العالم. متحف الماضي، متحف الاشتراكية، سمّه كما تريد. كل المدينة، كل يوم، 24 ساعة، المتحف التام. في الحقيقة، كلمة "متحف" هنا ليست كلمة دقيقة، فكل شيء يحدث مباشرة في الحياة. يظل الجميع كما كانوا في ذلك الوقت، ونحن ندفع لهم مقابل ذلك. أغطي كل النفقات. لا أعطيهم كثيرًا، ولكني لا أريد الكثير منهم. لا أريد إلا أن يبقوا كما كانوا ذاك الزمن. فضلاً عن ذلك، أنهم ما زالوا يشتاقون إلى الماضي. نقطع الإنترنت، وقنوات التلفزيون، ولا نبيع سوى الصحف من الماضي، الحقيقة أننا نقوم بإعادة طبع الأعداد القديمة من الصحف، بترتيبها المعاكس، نفرض العقوبات على النكات السياسية، نعيد الشرطة الشعبية، الاجتماعات الحزبية، المظاهرات. عرضتُ للمخبرين السابقين على أن يشتغلوا نفس العمل. أدفع أجرة لشخص أو شخصين، الذين كانوا يتكلمون من قبل ضد النظام، كي يستمروا. هذه الأشياء تخلق جوًا.

باختصار، لا تفعل شيئًا، تكسل كل اليوم وفي النهاية تأخذ مرتبًا. كما كان في الماضي. لكني بلا رحمة، إذا كان هناك من خرق النظام، فتتصرف الشرطة كما كان في الماضي. فأنت بنفسك تأكدت من ذلك. والناس راضون. تعرف عن البطالة في المدن المجاورة. يجيء زبائن أغنياء ويطلبون مظاهرة أو اجتماع الحزب. الكل يريد العودة إلى الماضي. بنيتُ آلة الماضي المثالية. كذلك لدي ضيوف من الخارج. هيا، أهلاً وسهلاً بك، صحتين.

-صحتين. والويسكي؟

-إنه من محل "كوريكوم". قلت لك، فكرت في كل شيء.

-ولماذا تفعله؟ إذا كان من أجل النقود، فهناك طرق أخرى عادية.

-لدي المال، رغم أنني لا أرفض أن آخذ المزيد. لا أفعل هذا لأجل المال... سأقول لك بصراحة (وصب من جديد الويسكي) لا أريد العيش في هذا الزمن. ليس سوى البؤس...

-البؤس كان موجودًا في ذاك الزمن أيضًا.

- ممكن، ولكن بالنسبة لي، ذاك الزمن كان تفوح من البؤس رائحة جميلة. ليس من الممكن ألا تلاحظ، أن العالم متوقف لا يتحرك. أريد أن أدعوك للانضمام إلينا. أريد أنتؤلف... أيامًا، حياة يومية. أعرف أن هذا طلب صعب. الأعياد أمر سهل وأستطيع التكفل بها. لكن هؤلاء الناس بحاجة إلى سيناريو لكل يوم. ولدي بعض الزبائن المهتمين. (ذهب إلى المكتبة وأخرج بعض الكتب). لدي كل كتبك. إلى درجة ما يمكنني القول إنك منحتني الفكرة، أنا مدين لك.

-أأأ... لا - حاولت أن أحتج - لم أمنحك فكرة شق حاجبي.

-فكرة جرد موجودات الاشتراكية وحكاياتها فكرة عظيمة. أستخدمها

مثل الدليل وقد قمنا باسترجاع أشياء كثيرة. فالناس من جديد يشربون مشروبات غازية ألتاي وسايدير، وفي المحلات يبيعون من جديد سائل غسل الأواني في العلب السابقة. لقد تم افتتاح عدة معامل في المدينة.

-هذا كابوس. الآن سأستيقظ... (لدي شعور قلق بأنني لا أمسك زمام الحكاية ولا زمام جواباتي الخاصة).

-لا، هذه حكاية تعتقد أنك تؤلفها، ولكنك في الحقيقة تقع في داخلها. أعرفك منذ الطفولة، دومًا كنت شارد البال، ليس من السهل أن تغوص في مكان ما.

-هل أنا معتقل؟

-لنقل أنك الآن مدعو إلى المشاركة في مشروعك الخاص. لا تنسَ أن الفكرة هي فكرتك، إني لست سوى مدير المشروع.

يتجرع من الكأس، أما أنا فلا أكاد ألمس حافة الكأس بشفتي.

-كذلك نعمل على أشياء أكثر جدية. بعد قليل سيجيء الطبيب، تعرفه، قدمت له البيت الأصفر، لقد أصلحناه. كي يُجري تجاربه هناك. علاج تراجعي... تجديد ذاكرة الخلايا... مصحح للماضي، تحفيزات خفيفة بالصدمة... الطبيب سيشرح لك بشكل أفضل. إننا بحاجة ملحة إلى مخترعي الماضي.

فكرت للحظة أن نوعًا من "المضاد لغاوستين" سكن أبا الكيكة. وكل شيء يخطر ببالي يذهب إليه بشكل انقلاب شائم. لأول مرة أردت أن أتوقف، أن أغادر، أن أنتقل إلى الأمام في الزمن. العودة إلى الوراء ليس بريئًا دائمًا. الماضي يمكن أن يكون مكانًا خطرًا.

-خطرًا جدًا – أضاف "المضاد لغاوستين". في الحقيقة، البيت الأصفر

ليس بعيدًا عنا، وإذا فتحنا النافذة الآن، ستسمع شيئًا مألوفًا جدًا. ستسمع...

لم أسمع ما إذا كانت الكلمة "صوت" أو "عواء"، لأنني نهضت ورميت نفسي عبر زجاج الشباك. فهذا دائمًا يساعد في الكوابيس.

يوميات المينوتور

لا أعرف كم من الزمن مضى وأنا أعيش هنا. لا أتذكر إذا كنت دخلت بنفسي، أو أن هناك من حبسني. الظلام كثيف إلى درجة تجعل الزمن ضائعًا. وحده في الظلام لا يوجد زمن. لا أعرف عمري. إني منسي. أريد أن أخبط على الباب، حتى يسمعوني ويفتحوا. ليس هناك إلا مشكلة واحدة لا حل لها وفيها الهول كله. لا يوجد باب.

ها هو اكتشافي. إنه بديهي إلى حد تكاد لا تستطيع أن تراه. الحمض الريبوزي النووي لكل كائن حي، مع سلسلته المزدوجة، له بناء متاهة. متاهة عمودية تنبسط في شكل لولب. التعليمات الوراثية لكل أشكال الحياة قد دونت في متاهة. يعني هذا هو الشكل الكامل لتخزين ونقل المعلومات. لذلك بقي الحمض الريبوزي النووي المنزوع الأوكسجين في طي الكتمان لهذه المدة الطويلة. إننا مصنوعون من متاهات.

ال

حمض

الري

بو

زوي

المن

زوع

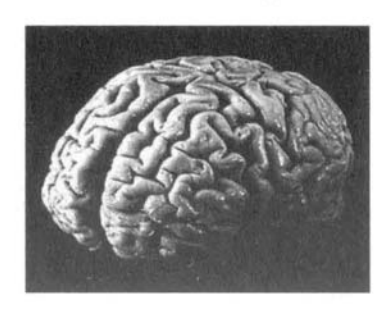
ال

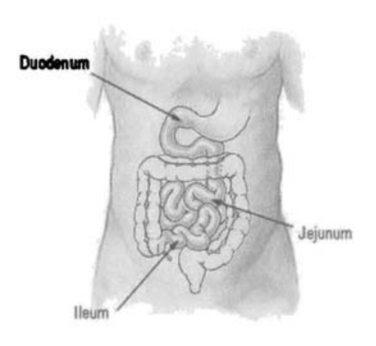
أوك

سجين

الحمض الريبوزي النووي المنزوع الأوكسجين. الحمض الريبوزي النووي... النووي... نوىً تسبح في مرق هذه الكلمة الأولية. أكتبه من جديد ومن جديد، حتى أضيع في متاهة هذا الاسم.

لكن هناك خطأ، هفوة، غلطة. وهذا الخطأ حولني فورًا إلى مينوتور. أعبر كل متاهة الحمض الريبوزي النووي المنزوع الأوكسجين كي أكتشف هذا الخطأ. ثمة متاهتان. في إحداهما محبوس أنا، والأخرى محبوسة فيّ. المتاهة في المينوتور.





الدماغ البشري. تلافيف دماغ كل الثدييات. الجهاز العصبي في جسم واحد أو عصب منفرد بكل تغصناته، ومِحْوارات وهلم جرا.

لولب الأمعاء الدقيقة والأعضاء الداخلية.

الحمض الريبوزي النووي المنزوع الأوكسجين.

فطيرة جبنة ملفولة، بيورك، بقلاوة "سراليا"، كل حلويات الشرق.

طيران النحل ولغته التي يتواصل من بابها الأشكال المتشابكة. لغة النحل متاهة.

الغابة.

نظام الجذور للنباتات الحولية والنباتات المعمرية.

تركيب الأذن الداخلية مع التيه العظمي والتيه الغشائي.

مدينة لا نهر فيها، تزورها لأول مرة. غياب النهر شيء مهم. لأن خيطه مثل خيط أريادني يُرشدك في الطريق.

طرق سرية للتنزه مع العشيقة التي تحبّها.

الشخابيط على الورقة، بينما تُجري مكالمة هاتفية مملة.

عانة أنثى شابة. حيث تقع المتاهة قبل المغارة.

كرة خيط غزل.

المتاهة التي يرسمه نظر القارئ.

إذا حدقت بنظرك إلى وردة عن قرب، سترى المتاهة فيها، وقرني الخنفساء ▯ المينوتور.

حمدًا لله على وجود هذا الظلام هنا، في هذا القبو، كي أمكث هنا وأعيد الزمن، وأركض في ممراته، وأصرخ، وأخور. يساعدني الظلام على التعود. فعندما يأتي من سيأتي، سأكون مستعدًا. وسيكون التحوّل سلسًا فعلاً، انتقال من ظلام إلى ظلام آخر.

أتذكر، أو أتخيل أنني أتذكر، أشياء غريبة. أتذكر مدنًا بعد الظهر، ساخنة من الشمس، وشوارع خالية، وازدحامها قبيل الغروب. أتذكر وهي أولى ذكرياتي، كيف تختفي أمي وراء ستارة، تلوح بيدها، وأضحك، لأنني أفهم اللعبة، أنطلق إلى الستارة، قمت لِتوّي بأولى خطواتي، لكن أمي ليست هناك. أحيانًا تظهر أمامي غرف عالية الأسقف، ظهر فتاة، عربة تتلاشى في الحقل، رجل مجروح في مدينة غير معروفة، كتاب، أقرأ فيه حكايتي الخاصة

المملوءة بأخطاء.

أتذكر مرة كنت سعيدًا. واستغرقت سعادتي حوالي ست دقائق. حدث ذلك مبكرًا صباحًا في حدائق كنسينغتون، في شمال لندن. لا أستطيع إيجاد سبب تلك السعادة، وهو أمر يبرهن على أصالتها. البقية انعكاس مشروط، كما هو الشأن عند كلب بافلوف. يأتي السبب، فتسيل السعادة مثل اللعاب.

أمضي في ممر الحدائق، أتنفس وأشعر بنفسي كأنني في جسد طفل. هذا هو المفتاح. في جسد طفل.

لم أخرج في الشارع منذ 84 يومًا. لا أتسلل إلا متأخرًا في الليل، كي آخذ الصحف من صندوق بريدي، ومن خلالها أعدّ الأيام. لا أريد أن ألتقي أحدًا. توقفت عن الحلاقة، يزداد فكي صلابة، ربما لأنني لا أتكلم مع أحد. هل من الممكن أن يصبح الفم مثل الأعضاء الأثرية، ويضمر؟

أتوقف عن الأكل لوقت ما. كما أن عدد المعلّبات والأطعمة قلّ كثيرًا. أعتقد أن تخفيف الوزن جزء من العودة إلى الوراء. فوزن الطفل ليس 80 كيلوغرامًا. أشعر براحة أكثر فأكثر داخل هذه البشرة الرقيقة. أشبه الطفل المينوتور أكثر فأكثر. لا أعرف إن كنت ذكرًا، فالمرء النحيل الواهن العظم لا جنس وعمر له.

عندما خرج ثيسيوس من المغارة، كان يمسك بيده اليسرى طفلاً. لقد محت الأسطورة هذا الطفل من ذاكرتها. الأساطير لا تحب الأطفال. تخيلوا ما أعظم هذا الارتباك. البطل ثيسيوس مع السيف القصير، الذي انتصر على العملاق بيريفيت، وقاطع الطريق المرعب سينيس، والخنزير البري الوحشي من كروميون، والعملاق كيركيون، وبروكروست القاسي، والثور من ماراتون وغيرهم، يرى في النهاية طفلاً خائفًا. يرمي ثيسيوس سيفه القصير

على الأرض ويُخرج الطفل من المتاهة.

في المساء يروي لأريادني. هل تعرفين.. لم يكن هناك وحش، وإنما ولد ذو رأس ثور. وكان هذا الفتى يشبهني قليلاً.

(أنا أشبه ثيسيوس فعلاً، ومع ذلك، وفي نفس الوقت، كان وسيمًا. هل أدرك أن وراءنا يظهر الأب الإلهي نفسه - إله وثور في آن واحد؟ أخي - من الأب الإله، أنا - من الأب الثور).

أريادني لا تهتم بكلماته، تعانقه وتقبله، داعية إياه إلى أن يغادرا المكان على عجل.

الحقيقة هي أنني وبينما أبحث عن مخارج في الحكاية لنجاة المينوتور، غالبًا ما أحلم بموتي في قبو، وأرى نفسي مطعونًا بسيف ذي حدين. يأتي السيف واليد من ظلام زمن آخر، وقد سافرا وقتًا طويلاً إلى درجة أن قاتلي ذا الوجه البشري قد أنهك، وضعفت يده، إذ ينبغي عليّ أن أساعده في تنفيذ عملية قتلي. أن أفتح بالسيف بابًا في جسمي. كنت طوال حياتي أحاول أن أُخرج المينوتور من داخلي.

ولكن ماذا لو لم يلاحظني قاتلي (أو الشيء الذي سيقتلني) في الظلام وينصرف؟ إذا اختفيت مثلما كنت في تلك الأمسية الصيفية، عندما نلعب "الغميضة"، وتخبأت، ونسوني... إذا لم يلاحظني وبقيت هنا مختفيًا، بينما يفعل الموت فعله سنين، وقرونًا... وإذا كان في الخارج قد ظهر ناس آخرون، ومرت أجيال، ولا يمكنني أن أشارك تفاحة أي ذكرى مع أحد. إذا كان ذلك الثمن... أسمع نفسي أصرخ، أعوي، أخور مثل ثور في ممرات هذا القبو، لأنني لم أعد أعرف ما هي لغتي الأصلية. إني هنا، لا تتجاهلني، ها أنا ذا. مووووووو...

الفصل التاسع

نهايات

الحكواتي وقاتله

أفكّر المينوتور أن يستعمل إستراتيجية شهرزاد؟ أراه مع ثيسيوس، يمضيان معًا في الممرات المتاهة اللانهائية والمينوتور لا يتوقف عن الحكاية. عما يمكن أن يروي من كان محبوسًا طوال حياته في ظلام أحد الأقبية؟ عن المنام الذي يملك فيه وجه بشر، عن وجه أمه الذي لا يلتفت أبدًا، عن ذكرياته في ملجأ للحماية من القنابل، حيث عاش تطمره علب كرتونية وصحف تحكي عن نهاية لم تحصل، عن تجوله في المهرجانات القروية، عن القتل في ساحات الكوريدا والمسالخ، عن متاهات المدن التي تاه فيها "وحيدًا مثل سحابة"، عن كل الكتب التي ضاع فيها... كان ثيسيوس يمشي معه، وتتقلص خيطان الكرة في يديه، ويختلط خيط أريادني بخيط الحكايات... بعض الأشياء كان لا يفهمها، وبعضها الأخرى تبدو له عجيبة إلى درجة تجعل مآثره ومغامراته الخاصة تافهة. في وسط إحدى الحكايات التي تروي عن بطل أثيني يسير في ممرات المتاهة كي يقتل الوحش، وقف المينوتور وقال لثيسيوس: انتهت كرة خيطك. لكن خيط الحكاية سحر ثيسيوس إلى حد أنه لم يتذكر أي كرة خيط يقصدها. إنك هنا كي تقتلني، قال المينوتور. نحن الآن تمامًا في هذا الممر من الحكاية. لو واصلنا إلى الأمام، لما استطعت العودة، لأن الخيط انتهى. لكنني لا أريد أن أقتلك، أجاب ثيسيوس. هناك من أقحمني في هذه الحكاية. بينما تروي لي أنت الحكايات، زرتُ أماكن أكثر مما زاروها كل أبطال أثينا. أريد أن تستمر الحكاية.

إنها تمر عبر موتي، رد المينوتور، ولكن لا بأس، إذا قتلتني حقًا، أو قتلتني في الحكاية التي ستسمعها.

أراهما يمضيان معًا في ممرات مدن وأقبية، يحبكان متاهات موازية من خيوط الحكايات، متشابكيْن فيها. ولا شيء يمكن فصلهما أبدًا، الحكواتي وقاتله.

تقرير الشرطة

(...)

تم العثور على سيف قصير ذي حدين، على الأرجح أنه قطعة أثرية من العصر الكلاسيكي القديم. لقد عُيّن أعضاء لجنة الخبراء لتحديد فترة صنعه بدقة، وثمنه وأصله. ليست هناك آثار دم على السيف.

وصْف الموجودات في القبو. علب كرتونية يصعب فهم منطق تنظيم محتوياتها. سبع منها مملوءة بمقالات مقصوصة من الصحف والمجلات. علبة قديمة من الطحينية. لقد تم العثور على ثمان مفكرات مختلفة الأحجام والأغلفة، مكتوبة بشكل كامل. أربعة صناديق كتب بمختلف اللغات. قناع مضاد للغاز. كمبيوتر وديناصور سيتم حبسهما على ذمّة التحقيق. (الديناصور مطاطي، إنه لعبة أطفال). تم أخذ بصمات الأصابع من كل السطوح المناسبة. ينبغي تعيين خبير في الأدب لتحديد محتويات المفكرات، وذلك نظرًا للأدلة والمعلومات التي يمكن استنتاجها لغرض التحقيق.

أنا هذا الخبير المكلّف. ومما فهمته أنه في مرات متعددة شكا الجيران إلى الشرطة من الأصوات الغريبة والعواء (أو الخوار – حسب أقوال الآخرين) التي تصدر من قبو البناية. ثم لم يُسمع شيء من أسبوع، فنزل مسؤول البناية

إلى القبو ووجد باب أحد الأقبية الثقيل (الذي كان جزءًا من ملجأ للحماية من القنابل من قبل) مفتوحًا وسيفًا ملقى على الأرض.

سألوني إذا كان لدي مانع في أن أعمل في القبو، لأن إخراج كل الأشياء مستحيل، فضلاً عن ذلك، فإن الشرطة ليس لديها مكان فارغ كاف للعمل. وافقت. كنت متحمسًا ومتشوقًا للعمل بشكل غريب، كانت لدي علاقة خاصة معقدة بهذا الكاتب دون أن أعرفه. فدومًا عندما أقرأ كتاباته، أحس كأنه يسرقني.

دخلت القبو في السابع عشر من مارس، في العاشرة صباحًا. في البداية شعرت بشعور غريب، كما لو كان هناك من يشاهدني. لا أخاف، فعينه حَسَنة النية، لو كان من الممكن وصفها هكذا. نظرت من جديد إلى كل الزوايا والتجاويف، بالرغم أن الشرطة قد قامت بذلك. ولم أجد شيئًا. سوى بزاقة تزحف ببطء على علبة الطحينية المعدنية. بدأت أقرأ. أقف، أعود إلى الوراء، أمر عبر ممر يبدو لي معروفًا، أضيع، أستمر. في الشهر الأول لم أخرج من القبو إلا مرة. ثم لم أخرج منه أبدًا.

ماذا يبقى في النهاية

وها أنا من جديد أجلس على ذاك الحجر، في السادسة من عمري، أقترب من فتاة تلك الرؤية التي تجلس أمام البيانو وترفع يديها، قد فتحتُ باب الغرفة، مستندًا إليه، لابسًا بنطلونًا قصيرًا، ما هذا الندبة القبيحة على رجلي اليسرى، شعاع ينفذ عبر الستائر السميكة ويشق الغرفة إلى نصفين، أنا والبنت في نصف مختلف. عندها يحدث العجب، تتحرك اللوحة، وتلتفت البنت ببطء...

لحظتها يعثر المينوتور على أمه وسط متفرجي الكوريدا،

جدي ذو الثلاث السنوات يرى أمه تعود أدراجها إلى المطحنة،

امرأة من مدينة هركان تستلم رسالة،

رجل ينزل من الأفيش، يذهب إلى جولييت أمام السينما وينطلقان يدًا بيد في الشارع الرئيسي لمدينة ت.،

غاوستين يركّب أكبر جهاز عرض، وفي نصف الكرة الشمالي كله ينزل مطر ليلي لا يبلل شيئًا،

أبي وأمي يطلان من شرفة شقة منيرة في الطابق الأخير...

أنا والبنت الآن نقف في نفس الجانب من الشعاع، أرى طرف وجهها، تلتفت...

"بابا، مرحبا".

خاتمة

متُّ (غادرت إلى هنغاريا) في نهاية يناير عام 1995 كمخلوق إنساني من الجنس المذكر، وكان عمري 82 عامًا. لا أعرف التأريخ الدقيق. من الأفضل أن يأتي الموت في الشتاء، عندما لا يوجد عمل كثير، حتى لا أثير همومًا.

متّ عند هبوط الغسق كذبابة فاكهة. كان أفول شمس النهار (وأفول عمري) جميلاً.

متّ في السابع من ديسمبر عام 2058 كمخلوق إنساني من الجنس المذكر. لا أتذكر شيئًا من هذ العام. لذلك أتذكر كل يوم من أيام السنة التي ولدت فيها، سنة 1968.

إذا كان الموت ظلامًا وغياب آخرين... فلطالما كنت ميتًا. ولطالما غشيني الظلام.

لم أمت بعد. أنا في انتظار موتي. عمري ناقص ثلاثة أشهر. لا أعرف

كيف يُعدّ هذا الزمن الناقص في الرحم. هنا ظلام وراحة، وأنا مربوط بشيء يتحرك. بعد ثلاث أشهر سأرحل إلى العالم الآخر. يسمي البعض هذا الموت ولادةً.

متّ في الأول من فبراير عام 2026 كمخلوق إنساني من الجنس المذكر. كان أبي يقول إنه من الأفضل أن يأتي الموت في الشتاء. وافقته. اشتغلت طبيبًا بيطريًا طوال حياتي. مرة سافرت إلى فنلندا...

أتذكر أنني متّ كبزاقة، ورد كلاب، وحجلة، وجينكو بيلوبا، وسحابة في شهر يونيو (الذكرى تستغرق وقتًا قصيرًا)، وزعفران بنفسجي خريفي قرب بحيرة هالنزيي، وشجرة كرز مبكرة جمّدها ثلج متأخر في أبريل، كثلج جمّد شجرة كرز مخدوعة...

أنا... كنّا.

بداية

اختفى أبي والديناصورات في آن واحد...

فيزياء الحزن - وأولاً كانت الفيزياء الكلاسيكية - هي موضوع تجاربي على مدى عدة سنوات الحزن مثل الغازات والأبخرة ليس له حجم وشكل ثابت، وهو يملأ شكل الإناء وحجمه، أو أي فراغ يتاح له. هل الحزن يميل إلى الغازات النبيلة؟ لعل الجواب هو "لا"، مهما جذبنا الاسم فالغازات النبيلة هي متجانسة خاملة أحادية الذرة، بالإضافة إلى أنه لا لون ولا رائحة لها. لا الحزن ليس هيليوم، كريبتون، أرغون، زينون، رادون... له رائحة ولون. الحزن نوع من "غاز حربائي" يغيّر كل ألوان وروائح العالم، كما يمكن للألوان والروائح المختلفة أن تحرّكه بسهولة

مجال جاذبية الحزن يتميز بقوة ضئيلة قياسًا على الغازات. وهذا يعني أن الجبهات الهوائية والأعاصير والأعاصير المعاكسة التي تحوم حولنا، كلها مشكّلة من الحزن. إن هجرة هذه الجبهات والأعاصير، وانتقالها من مكان إلى آخر، هي حقيقة مدهشة. غريب هذا العمى، الذي نتجاهل به هذه الحقيقة. أحيانًا يهاجمني حزن لا يجب أن يكون حزني. حزن من شمال أفريقيا مثلاً. حزن غريب، خاص، بهتت ألوانه من الشمس، حزن أصفر يحمل ذرات الرمل، مثل ذاك المطر الأصفر الذي كان يسقط السنة الماضية ويترك بقعًا عكرة على زجاج النوافذ.

أستطيع أن أرسم خريطة هجرة الأحزان. بعض المناطق حزينة في قرن، وبعضها الأخرى في قرن آخر.



Design by Mahdi Abdu